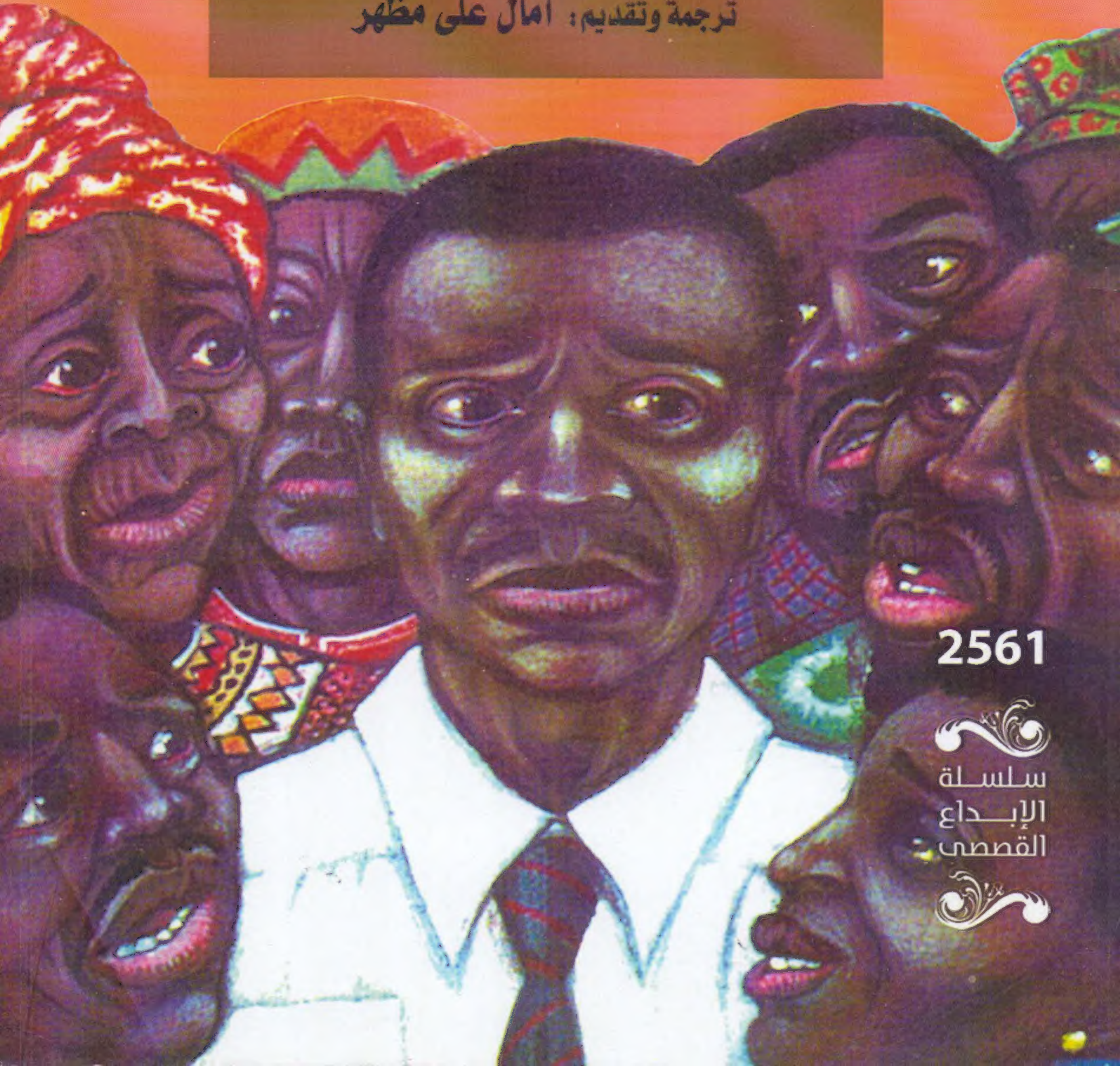
تشينوا آتشيبى

لم يعد هناك إحساس بالراحة

(رواية)

ترجمة وتقديم: آمال على مظهر

المركز القومى للترجمة



2561

سلسلة الإبداع القصصى

وصفت مجلة التايم رواية «لم يعد هناك إحساس بالراحة» بأنها «دراما مكثفة».

كان أوبى أوكنكو شابًا نيچيريًا مثاليًا، وبفضل تلقيه تعليمًا مميزًا فى بريطانيا، يعود إلى نيچيريا ليحصل على وظيفة فى الحكومة. وعندما يتقلد هذا المنصب، يكتشف أن العمل الحكومى يكتنفه الكثير من الفساد والرشوة. يتمكن أوبى من مقاومة إغراء الرشوة التى تُعرض عليه، إلا أنه يقع فى حب فتاة غير ملائمة له، مما يتسبب فى سخط وغضب أهله، عندئذ ينحدر إلى مستنقع عاطفى ومالى. ومن ثم يصعب عليه مقاومة إغراء «المال السهل»، ويقع فى فخ لا يمكنه الفكاك منه.

تصور رواية «لم يعد هناك إحساس بالراحة» رجلاً يقع فى هوّة الضياع والاغتراب الثقافى، كما تصور نيچيريا وهى تدخل عهدا جديداً من الإحباطات. وهذه هى الرواية الأخيرة فى ثلاثية آتشيبى الرائعة التى تؤرخ لثلاثة أجيال من المجتمع الأفريقى الذى يقع تحت وطأة الاستعمار. أما القصتان فهما «الأشياء تتداعى» و«سهم الله».

تصميم الغلاف: هانى الشناوى

لم يعد هناك إحساس بالراحة

(رواية)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

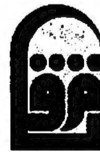
- العدد: 2561
- لم يعد هناك إحساس بالراحة
- تشينوا آتشيبى
- آمال على مظهر
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
No Longer at Ease
By: Chinua Achebe
Copyright © Chinua Achebe, 1960
Arabic Translation © 2016, National Center for Translation
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

لم يعد هناك
إحساس بالراحة
(رواية)

تأليف : تشينوا آتشيبى
ترجمة وتقديم : آمال على مظهر



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

آتشيبى، تشينوا، ١٩٣٠ - ٢٠١٣
لم يعد هناك إحساس بالراحة(رواية) / تأليف : تشينوا آتشيبى؛
ترجمة وتقديم : آمال على مظهر - القاهرة: المركز القومى للترجمة؛ ٢٠١٦
٢٠٨ ص؛ سم
١ - القصص الإنجليزية
(أ) مظهر، آمال على (مترجمة ومقدمة)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٥٤٦٧ / ٢٠١٥
الترقيم الدولى 978-977-92-0171-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويـــات

تقديم المترجمة

يُعتبر تشينوا آتشيبى (١٩٣٠- مارس ٢٠١٣) من أبرز كتّاب نيچيريا المعاصرين الذين يكتبون باللغة الإنجليزية، ولقد أحدثت روايتُه الأولى «الأشياء تتداعى» Things Fall Apart ضجةً نقديةً عندما نُشرت فى ١٩٥٨؛ لأنها كانت أولَ رواية تُكتب باللغة الإنجليزية فى غرب أفريقيا، وامتدحها النقادُ كثيرًا ودون تحفّظ لبنائها المحكم وأسلوبها الفنى المميز، وقد قامت الدكتورة أنجيل بطرس سمعان بترجمتها، واقتبس آتشيبى عُنوانَ الرواية من إحدى قصائد الشاعر الأنجلو- أيرلندى الشهير ويليام بتلر ييتس William Butler Yeats، وفيها يصف آتشيبى تداعى مجتمع الإيبو الذى تنتمى إليه الشخصية المحورية أوكنكو على المستويين المجتمعى والشخصى، وإن كان يتميز وصفُ آتشيبى لهذا وذلك بقدر كبير من الموضوعية، ومن المفترض أن البطل المحوريَّ أوكنكو قد عاش ما بين (١٨٥٠ و١٩٠٠) فى قرية تبعد كثيرًا عن نهر النيچر، وأهم ما فى الأمر أن هذه المنطقةَ لم يصبها أىُّ تأثرٍ بالثقافة الأوروبية حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٩٠)، ولذلك فإن مقدم الاستعمار أو «الرجل الأبيض» كان حدثًا جللاً أصاب التركيبة الاجتماعية والثقافية النيجيرية بزلزال عنيف.

تعتبر رواية «لم يعد هناك إحساس بالراحة» (١٩٦٠)- والتى نحن بصددها- الرواية الثالثةَ بعد «الأشياء تتداعى» و«سهام الله» فى ثلاثية آتشيبى؛ حيث تتناول شخصية الحفيد أوبى أوكنكو فى منتصف القرن العشرين، وتتعرض الرواية للتحولات المجتمعية والثقافية من خلال هذه الشخصية، وتبدأ الرواية بمشهد محاكمة أوبى أوكنكو بتهمة تلقى الرشاوى لتسهيل حصول بعض الطلاب على منح وبعثات لإنجلترا. ومن الناحية الفنية، تعتبر نقطة انطلاق الرواية هى وسط الحدث أو ما يُسمى medias res، وبذلك يخلق آتشيبى أقصى درجات التشويق، وهو مشهد درامى من الدرجة الأولى تدور حوله وبسببه

الأحداث التالية، ويكشف عن خلل جسيم في المجتمع. والتهمة الموجهة لأوكنكو تصبح بالغةَ السوء ومدمرة لاسمه؛ حيث إنه من المفترض أنه في وضع اجتماعي متميز بحصوله على درجته العلمية في إنجلترا، وهو مطمح وغايةٌ عزيزة يسعى إليها نيچيريون كثيرون؛ لكي يرتقوا السُّلمَ الوظيفي الحكومي ويحصلوا على «وظيفة أوروبية»، أي وظيفة مميزة في الكادر الحكومي.

وفي مشهد فلاش باك flashback إلى الماضي، نرى أوكنكو قبلْ سفره إلى إنجلترا، ثم تُختتم الرواية بمشهد المحاكمة. وتصف الرواية كيف اجتمع أعضاء اتحاد أموفيا التقدمي، وهم أُناس من الإيبو Igbo الذين تركوا قُراهم ليستقروا في المدن النيچيرية الكبرى، وقد جمعوا المال اللازم لكي يساعدوا أوبي؛ لدراسة القانون في إنجلترا، وكان ذلك من منطلق أنهم يأملون أن يعود إليهم متسلحًا بالعلم؛ لكي يساعد قومه في العَيش بكرامة، والحصولِ على حقهم في ظل الاستعمار الإنجليزي، ولكن عندما يذهب إلى إنجلترا يتجه لدراسة الأدب الإنجليزي، ويقابل كلارا أوكيكي لأول مرة خلال حفل راقص، ويعود أوبي إلى نيچيريا بعد أربع سنوات من الدراسة، ويعيش في العاصمة لاجوس مع صديقه جوزيف، ويعمل في وظيفة في مجلس المنح والبعثات، بعدها مباشرة يتم عرض رشوة عليه من قِبل رجل يريد أن يحصل على منحه لأخته الصغرى، وعندما يرفض أوبي غاضبًا وبكبرياء عَرْضَ الرشوة، تزوره الفتاة في بيته، في إشارة واضحة أنها سوف تقوم بمنحه رشوة جنسية مقابل حصولها على المنحة، وعندها أيضًا يقوم أوبي برفض هذا العرض.

في الوقت نفسه، تتطور علاقة أوبي العاطفية بكلارا أوكيكي، وهي سيدة نيچيرية، تكشف له أنها من طائفة الأوسو Osu، وهو ما يعني أنها تنتمي إلى فئة المنبوذين، حيث إن أسلافها كانوا يُقدِّمون قرابين بشرية للآلهة الوثنية، مما كان يعني أن أوبي لا يمكنه الزواج منها في ظل النظم الثقافية التقليدية الحاكمة والمسيطرة على الفكر النيچيري، ويظل أوبي مصرًّا على اقترانه بها على الرغم من معارضة أهله الشديدة، خاصة من قِبل أبيه الذي كان قد اعتنق المسيحيةَ، والتي تدعو للمساواة بين البشر. كان مَبْعثُ معارضة أبيه رغبتَه في التحضُّر والتقدم، وأن يتجنب العادات والتقاليد الوثنية لنيچيريا ما قبل الاستعمار، وكذلك تتوسل إليه أمُّه، وهي على فراش الموت، ألا يتزوج من كلارا، وعندما

يخبِر أوبى كلارا بذلك تقوم بفسخ الخطوبة بينهما بعد أن تخبره بخبر حَمْلِها، ويتم إجهاض كلارا بعملية جراحية غير قانونية، مما يعرّضها لتعقيداتٍ، ويؤدى كل ذلك إلى القطيعة الأبدية بينهما.

طوال هذا الوقت، نرى أوبى يغوص أكثر فأكثرَ فى مشاكله المادية التى تتراكم عليه من جرّاء إسرافه وطموحِه ورغبتِه فى أن يحيا حياة مرفهة باقتنائه سيارةً من ناحية، ومن ناحية أخرى اضطراره أن يرد الدَّيْن لاتحاد أموفيا التقدمى، وكذلك دفْع نفقات تعليم إخوته، والمصاريف اللازمة لإجراء عملية الإجهاض لكلارا. ويَحدُث التطور الدرامى فى شخصيته وارتكابه الخطأ التراجيدى عندما يقبل تلقى الرشاوى مخرجًا وحيدًا له من أزمته المالية، وتنتهى الرواية بقبول أوبى للرشوة، وبقراره أن يكون هذا هو آخر مبلغ رشوة يقبلُه، ويتم القبض عليه، ويكتشف أن هذا كان كمينًا أو حادثًا مدبرًا للإيقاع به متلبسًا بتلقى الرشوة، وتنتهى الأحداث بمشهد المحاكمة التى بدأت بها الرواية، مما يوحِى بانطباع أنها دائرة مغلقةٌ يستحيل أو من العسير كسرها أو الفكاكُ منها، ويوحى البناء الفنى الدائرى بهذا المعنى، أى إن الرشوة آفّة اجتماعية فى نيچيريا فى مرحلة مِفصلية فى تاريخها، إنها تقيم حلقة مغلقة لا فكاك منها حول مَن يرتكبها.

وتعد أهمية الرواية فى أنها تصور المجتمع النيچيرى فى فترة تحولات كبرى، فتركز على الشخصية المحورية أوبى أوكنكو الذى يطمح فى أن يحيا حياةً على النمط الغربى، مما يضطره إلى تلقى رشاوَى، إلا أن هناك محاورَ مهمةً للغاية فى علاقة الأَنَا والآخر على مستويين: النيچيرى / الإنجليزى، والنيچيرى / النيچيرى: فيصور آتشيبى البيئة المحلية فى مقابل التخوف من الآخر المتمثل فى المستعمر المهيمن على مقدرات نيچيريا وما يمثله من مخاوف ومخاطر. ومن المشاهد المهمة الدالة مشهدُ القس النيچيرى فى هذه القرية، وهو يقوم بإلقاء الموعظة، ثم يتلو ذلك أغنية تغنيها مارى، وفحواها أهمية محافظة الإنسان من فقدان نفسه أثناء الغربة «عندما يذهب إلى بلاد الرجل الأبيض». وكذلك يصور آتشيبى لاجوس ومدينة آيكونوى، فإحداهما يقطنها الأفارقة الفقراء، بينما آيكونوى الغنية ذات المنازل الفخمة التى يقطنها الأوروبيون تفتقر إلى الحياة الاجتماعية الدافئة، بينما يصور لاجوس وفيها تستمر الاحتفالات، سواء كانت احتفاء بالحياة أو الزواج أو الميلاد،

أو حتى الموت، وهناك تشبيه دال حيث يشبه المدينتين على أنهما النواة التوأم– فإحداهما سوداء وتتميز بالحيوية، أما الأخرى فكانت شديدةَ البياض وتعانى من الموت.

تتصف علاقة رئيس أوبى الإنجليزى وسكرتيرته الإنجليزية بأوبى بالاستعلاء والصَّلف، وإن كانت هناك محاولةٌ لإخفاء هذه النظرة الاستعلائية.

وهناك أمور أخرى يتناولها آتشيبى مثل صراع الأجيال والغَيْرة، التى تجتاح الجيل الأكبر؛ ممثلًا فى مشهد أومو من أوبى.

أما عَلاقةُ الأنا بالآخر على مستوى النيچيرى / النيچيرى فهى فى رأيى الأسلوب الأكثر أهمية؛ حيث يظهر صراع التقاليد القديمة مع محاولة تغييرها، ويظهر ذلك فى علاقة أوبى بكلارا، التى تنتمى إلى طائفة الأوسو المنبوذة التى لا يحق أن يتزوج أحدُ أفرادِها من نيچيرى مَسيحى حتى وإن كان قد اعتنق المسيحية، لأن أسلاف هذه الطائفة قد اقترفوا جُرمًا لا يُغتفر، وهو تقديم بعض منهم قرابينَ بشرية للآلهة الوثنية، وهناك نقد من قبل الكاتب للمقاومة الشديدة لتغيير تلك العادات، التى لا تسمح بالاندماج بين الطبقات الاجتماعية.

وتتناول الرواية أيضًا حياة أوبى المغترب نفسيًّا عن أهل بلدته وبنى وطنه وذلك بحكم تعليمه وثقافته الإنجليزية، وهناك إشارات كثيرة دالة على ذلك.

وتمتلئ وتتميز الرواية بالنكهة المحلية، ويظهر ذلك فى استخدام الكاتب لمفردات وتعبيرات كثيرة خاصة بالثقافة الشعبية النيچيرية، ويستخدم كذلك الأمثلة النيچيرية والأساطير والحكايات الفولكلورية، وذلك فى مجتمع يموج بالتحولات الاجتماعية والثقافية، وقد يكون ذلك على سبيل تأكيد الهوية النيچيرية. ويظهر ذلك أيضًا عندما يرسّخ آتشيبى الهويةَ الثقافية المتمثلة فى القَصص الشعبى عن طريق الشفاهية، وهو ما يظهر فى اهتمام المدرس بجعل الأطفال يسردون القصص الشعبى، على الرغم من أن هناك تعارضًا بين القصص الشعبى بما يمثله من ثقافة وثنية، وبين ثقافة النيچيريين المعتنقين للمسيحية.

تستمد الرواية عُنوانها «لم يعد هناك إحساس بالراحة» من اقتباسٍ من قصيدةٍ شهيرة للشاعر البريطاني / الأمريكي ت. س. إليوت، رائد الحَداثة في الشعر، وهي بعنوان «رحلة الماجوس» وتتناول القصيدة الإحباطات التي تصيب الإنسان في تشبُّثه وتعلقه بأوهام ومعبودات زائفة، ولذلك فإنه يفضل ويتمنى العودة إلى اللاشيء، أو المَوْت. وهناك علاقة تناص صريحة بين تلك الأبيات والرواية؛ حيث يتناول آتشيبي إحباطات أوبي أوكنكو في سعْيه وراء أوهام الثراء، مما يؤدي إلى اغترابه النفسي- يصور آتشيبي ذلك من خلال إطار أو نسق فترة الاستعمار وما تلاها، مما يؤدي إلى تفشي الفساد المالي والأخلاقي، ويؤدي ذلك إلى خَلْق عالم قبيح خالٍ من المثل العليا، ولذلك فإنه «لم يعد هناك إحساس بالراحة»، فلم يعد الحفيد أوبي أوكنكو يتشابه مع جده العظيم أوجبوفي أوكنكو، وهو البطل المحوري في رواية «الأشياء تتداعى»، وهذا مما دعا أحد النقاد أن يشير إلى أوبي أوكنكو على أنه البطل الضد anti-hero، ويصف الرواية نفسها بأنها بمثابة الرواية الضد أو المحاكاة لرواية جوزيف كونراد الشهيرة «قلب الظلام» التي يرد ذِكْرها في طَيّات الكتاب، عندما يمر بخاطر أوبي هذه الرواية، وفيها يتحول البطل في رحلته إلى أفريقيا من شخص محب للخير والسلام إلى إنسان يفقد سلامه الروحي وسكينته، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يعود أدراجَه إلى ممالكه القديمةِ، أي عالم التقاليد والمثل السامية، ولذلك «لم يعد هناك إحساس بالراحة»، وهو أشبه ما يصوره آتشيبي في روايته.٠

إلى كريستي

- عُدنا أدراجنا إلى أماكننا، إلى الممالك
- ولكننا لم نعد نشعر بالراحة تحت تلك الأنظمة القديمة
- مع أناس أغراب يتشبثون بآلهتهم
- آه! لَكم أسعد بالموت مرة أخرى

ت.س. إليوت

(رحلة الماجوس)

الفصل الأول

ظل أوبى أوكنكو قُرابة ثلاثة أسابيع أو أربعة يشدّ من أزر نفسه، ويقويها من أجل تلك اللحظة، وعندما دخل قاعة المحكمة هذا الصباح اعتقد أنه بالفعل قد أصبح مستعدًا لذلك تمامًا، وكان يرتدى بدلة صيفية أنيقة، يبدو عليه الهدوء والسكينة، بل عدم الاكتراث، لم تكن الإجراءات بالأمر الذى يثير اهتمامه، فيما عدا لحظة واحدة قصيرة فى بداية الجلسة عندما ثار خلاف بين أحد المحامين والقاضى.

«تبدأ الجلسات فى هذه المحكمة فى الساعة التاسعة، لماذا تأخرت إذن؟»،

كان من عادة السيد القاضى ويليام جالواى، قاضى المحكمة العليا فى لاجوس وجنوب الكاميرون، عندما ينظر إلى المتهم أن يرْمُقه بنظرة ثاقبة مثلما يفعل جامع الحشرات أو الفراشات مع تلك الحشرات المحنطّة بالفورمالين، كان يخفض رأسه مثلما يفعل الكبش وهو يأخذ وضع الهجوم أو الانقضاض، ثم ينظر من فوق نظارته ذات الحواف الذهبية تجاه المحامى.

غمغم الرجل «أنا آسف يا سعادة القاضى، فقد تعطلت سيارتى بينما كنت فى طريقى إلى هنا».

ظل القاضى يُحملق فيه لمدة طويلة، ثم قال بطريقة مفاجئة للغاية:

«حسنًا يا سيد آديمى، لقد قبلت عذرك، ولكنى يجب أن أقول لك إننى قد سئمت ومَللت للغاية من هذه الأعذار التى لا تنتهى عن مشاكل العربات والمركبات».

كان هناك صوت ضحك مكتوم عند الحاجز الخشبى الذى يقف خلفه المحامى. ابتسم أوبى أوكنكو ابتسامة باهتة وشاحبة، ثم فقد الاهتمام مرة أخرى.

كانت كل الأماكن المتاحة فى قاعة المحكمة قد شغلها الناس، فقد كانت القضية مثار لغط كثير فى لاجوس لعدة أسابيع، وفى ذلك اليوم حضر أى شخص يتاح له أن يترك عمله لكى يستمع إلى منطوق الحكم، بل وصل الأمر ببعض الموظفين أن يدفعوا قدرًا كبيرًا من المال (عشرة شلنات ونصف) لكى يحصلوا على شهادة طبية تفيد بأنهم مرضى فى ذلك اليوم؛ لكى يتسنّى لهم حضور المحاكمة.

لم تَبْد أى مظاهر تدل على أن توتر أوبى فى سبيله للنقصان حتى عندما بدأ القاضى فى تلاوة الخلاصة. وعندما قال «لا يمكننى تَفهُّم كيف يتأتّى لشاب حاصل على تعليم مثل الذى حصلت عليه وكذا ينتظره مستقبل واعد يمكنه أن يقوم بما فعلتَه»، عندئذ فقط طرأ تغيير مفاجئ وملحوظ، فقد لمعت عيناه بدموع تشى بالتهم الموجهة إليه. أخرج منديلاً أبيضَ مسح وجهه به، إلا أنه فعل ذلك بالطريقة نفسها التى يمسح الناس بها عَرقهم، كان أيضًا يحاول أن يبتسم لكى ينكر الدموع فى عينيه، وكانت الابتسامة سوف تبدو منطقية تمامًا، لم يفاجئه هذا الكلام عن التعليم والمستقبل الواعد والخيانة التى ارتكبها بدون قصد منه، كان يتوقعه بل قام بالتدريب على هذا المشهد مئات المرات حتى أصبح مألوفا لديه كما لو أنه كان من أقرب أصدقائه.

فى الحقيقة، عندما بدأت المحاكمة منذ عدة أسابيع، كان مستر جرين، وهو رئيسه فى العمل، وأحد شهود الملك، كان قد ذكر شيئًا أيضًا عن الشاب ذى المستقبل الواعد، ولكن أوبى ظل ثابتًا وهادئًا تمامًا، لا يحرك ساكنًا، ولحسن الحظ كانت أمُّه قد تُوفيت مؤخرًا، وكانت كلارا قد اختفت من حياته للأبد. كان هذان الحدثان اللذان تعاقبًا الواحد تلو الآخر قد جعلا إحساسه أقلَّ رهافةً، وتركاه رجلاً مختلفًا تمامًا قادرًا على أن يجابه كلمات مثل «التعليم» و«المستقبل الواعد» مجابهة صريحة وواضحة، إلا أنه عندما حانت اللحظة الحاسمة خانته دموعُه.

كان مستر جرين يلعب التنس منذ الساعة الخامسة، وكان ذلك أمرًا غير معتاد، فعلى سبيل القاعدة، كان عمله يستغرق معظم وقته لدرجة أنه لم يجد متسعًا من الوقت ليلعب، كان التمرين المعتاد هو المشى لمسافات قصيرة أثناء الأمسيات، ولكن اليوم كان يلعب مع صديق يعمل لدى المجلس الثقافى البريطانى، وبعد أن انتهيا من المباراة اتجها إلى البار فى النادى، كان مستر جرين يرتدى جاكت سبور (سويتر) فوق قميصه الأبيض، بينما كان يلف عنقه بفوطة بيضاء، وكان يوجد أوروبيون كثيرون فى البار؛ البعض منهم يرتكز فى شبه جِلسة على مقاعد عالية دون ظهور أو أذرُع، بينما كان البعض الآخر يقف فى مجموعات صغيرة مكونة من اثنين أو ثلاثة أفراد وهم يرتشفون البيرة الباردة، أو عصيرَ البرتقال، أو شراب الجن المخلوط بالتونيك.

قال الرجل الذى يعمل فى المجلس الثقافى البريطانى بلهجة تنم عن استغراقه فى تفكير عميق «لا يمكن أن أفهم دوافعه للقيام بما فعل». كان يقول ذلك بينما كان يرسُم بإصبعه خطوطًا من الماء على ظهر كوبه المغطى بالضباب من أثر البيرة المثلجة بداخله.

إلا أن مستر جرين قال ببساطة «ولكنى أنا أفهم! أما ما لا يمكن أن أفهمه فهو لماذا لا يستطيع أشخاص مثلك أن يواجهوا ويتقبّلوا الحقائق» اشتُهر عن مستر جرين بأنه يجهر بأفكاره دون مواربة، مسح وجهه المائل للاحمرار بالفوطة البيضاء التى تلفّ عنقه، ثم قال «الرجل الأفريقى فاسد تمامًا حتى النخاع»، اختلس الرجل من المجلس البريطانى النظر حوله، بدافع من الغريزة أكثر من كونها ضرورة، فعلى الرغم من أن النادى كان مفتوحًا ومتاحًا للأفريقيين من الناحية النظرية، فإن القليل منهم فقط هم الذين كانوا يرتادونه، أما فى هذه المناسبة تحديدا، فلم يوجد أىٌّ منهم، فيما عدا بالطبع الخدم الذين كانوا يقومون بالخدمة دون أن يظهروا أو يُبْدُوا عليهم أى فضول أو تطفّل، كان من الممكن جدًّا أن يدخل المرء المكان ويتناول الشراب، ثم يوقّع على شيك ويتحدث إلى أصدقاء ويغادر المكان دون أن يلاحظ هؤلاء الخدم المرتدين زيهم الأبيض الموحد (اليونيفورم). إذا ما سارت الأمور سيرًا طبيعيًّا فإنك لن تلاحظ هؤلاء الخدم.

أعاد مستر جرين قوله «إنهم كلهم فاسدون، أنا أؤيد المساواة وكل تلك الأمور المرتبطة بها، فأنا شخصيًا أكره أن أعيش فى جنوب أفريقيا، ولكن لن تُغير المساواة من الحقائق شيئًا».

سأل الرجل من المجلس البريطانى، الذى كان حديث العهد نسبيًا بالبلاد «أية حقائق؟» تلا ذلك السؤالِ هدوء مريبٌ غلّف الحوار الدائر على مسمع من الجميع، حيث إنه كان هناك أناس كثيرون يُنصِتون الآن لمستر جرين دون أن يَبدو عليهم أنهم يفعلون ذلك.

«هناك حقيقة تُقرّ أنه عبْر قرون لا حصر لها تعرّض الإنسان الأفريقى لأسوأ أنواع الطقس فى العالم، وكلّ أنواع الأمراض التى يمكن أن تخطر على بال أحد. لم يكن هذا خطأه بالطبع، إلا أن تلك الظروف والعوامل أدت إلى استنزافه بدنيًا وعصبيًا ونفسيًا، ولقد جلبنا له تعليمًا غربيًا، ولكن ما فائدة ذلك له؟ فهو...» تسبب حضور أحد أصدقائه الآخرين فى مقاطعة حديثه.

«أهلاً يا بيتر. أهلاً، يا بيل»

«أهلاً»

«أهلاً»

«هل تسمحون لى بالانضمام إليكم؟»

«بالطبع».

«بالطبع جدًا، ماذا تشربون؟ بيرة؟ أليس كذلك؟ نادل! أحضر شراب بيرة لهذا السيد».

«من أى نوع يا سيدى؟».

«هاينكن».

«حاضر يا سيدى».

«كنا نتحدث عن هذا الشاب الذى أخذ رشوة».

«نعم».

فى مكان ما فى البَر الرئيسى من لاجوس كان اتحاد أوموفيا التقدمى يعقد اجتماعًا طارئًا. أموفيا هى قرية تابعة لقبيلة إيبو تقع فى شرق نيجيريا، وهى مسقط رأس أوبى أوكنكو، وهى ليست بالقرية الكبيرة، إلا أن قاطنيها يطلقون عليها لفظ «بلدة»، وهم يتيهون فخرًا بما فى قريتهم عندما كانت تُمثّل رعبًا وإرهابًا لجيرانها، كان ذلك قبل قُدوم الرجل الأبيض، وقبل أن يُسوّى بالجميع أرضًا. وكان هؤلاء الأموفيون (هكذا كانوا يطلقون على أنفسهم) الذين يرحلون عن مسقط رأسهم؛ بحثًا عن العمل فى جميع أنحاء نيجيريا، يعتبرون أنفسهم عابرى طريق أو مقيمين إقامة مؤقتة. فهم يعودون إلى أموفيا تقريبًا كلّ سنتين؛ لكى يمضوا إجازاتهم فيها. وعندما يدخّر أحدهم مالاً كافيًا، كان يطلب من أقاربه فى قريته أن يبحث له عن زوجة، أو يقوم ببناء بيت من «الزنك» على الأرض التى تمتلكها عائلتُه، وأينما كانوا فى نيچيريا، فإنهم كانوا ينشئون فرعًا محليًا لاتحاد أموفيا التقدمى.

فى الأسابيع الماضية اجتمع الاتحاد مراتٍ عدةً لتناول قضية أوبى أوكنكو ومناقشتها. فى أول اجتماع عبرّت قلة من الناس عن رأيهم أنه لا يوجد أى مبرر أو سبب يدعو الاتحاد لكى يعتريه القلق فيما يخص المشاكل التى يثيرها شخص مسرف متلاف أبدى قدرًا كبيرًا من عدم الاحترام والازدراء لقريته منذ فترة وجيزة ماضية.

صاحَ أحدهم «لقد دفعنا له ثمانمائة جنيه لكى يقوم بالتدرّب فى إنجلترا، ولكن وبدلاً من شعوره بالامتنان لنا، فإنه يهيننا من أجل فتاة لا قيمةَ لها بالمرة. والآن نعقد اجتماعًا مرة أخرى لكى نوفر له نقودًا مرة أخرى. ماذا يفعل بماهيته الضخمة؟ فى اعتقادى أننا قد قُمنا بالفعل بعمل الكثير جدًا له».

ووجهة النظر تلك على الرغم من تقبّلها فى مجملها على أنها حقيقية، فإنها لم تؤخذ مأخذَ الجِد، وذلك لأن الرئيس أشار أنه يجب أن يقوم المرء بإنقاذ القريب الذى وقع فى

مأزق أو ضيق، وليس أن تصوّب له سهام اللوم، وأن الغضب الذى يشعر به المرء إزاء أحد الإخوة لا يتجاوز حدود الجِلد، ولكنه لا يخترق العظام، وهكذا قرر الاتحاد أن يقوم بدفع أتعاب المحامى من ميزانية الاتحاد.

ولكن فى هذا الصباح مُنيت القضية بالخسارة، ولذلك فقد تم عقد اجتماع طارئ، وتوافد أناس كثيرون على منزل الرئيس الواقع فى شارع مولونى، وكانوا يتناقشون ويتحدثون عن الحكم الذى صدر فى القضية.

قال الرجل الذى عارض فكرة تدخل الاتحاد منذ البداية «كنت أعلم أنها قضية خاسرة، ونحن نتصرف كالسفهاء بتبذيرنا للنقود، ماذا عسى الناس أن يقولوا عنا؟ إن الشخص الذى يدافع عن شخص فاشل لن يظهر منه أى شيء سوى رأسه المغطّى بالطين والأوساخ».

إلا أن هذا الرجل لم يجد أى شخص آخر يسانده، ويكرر أفكاره وآراءه، فقد كان الرجال من أموفيا مستعدين للنضال حتى آخر قطرة؛ دفاعا عن أوبى، لم يكن لديهم أى أوهام خاصة بأوبى، فقد كان دون أدنى شك شابًا متهورًا للغاية يتسم بالعند والصلف، ولكن لم يكن هذا بالوقت المناسب لمناقشة تلك الأمور، وكان من المتعين مطاردة الثعلب أولاً، ثم بعد ذلك يمكن توجيه التحذير للفراخ حتى لا تقع داخل الفخ.

عندما يحين وقت التحذير، كان من الممكن التيقن أن رجال أموفيا سوف يقومون بهذه المهمة على أحسن وجه.

قال الرئيس «إنه لأمر مُخزٍ أن يتم سجن رجل يحتل منصبًا مهمًا من أجل عشرين جنيهًا»، وكرر كلمة «عشرين جنيهًا»؛ لكى يعبر بوضوح عما يجول بخاطره.

«أنا ضد هؤلاء الناس الذين يحصدون ما لا يزرعون، ولكننا لدينا مثل يقول إنه إذا أردت أن تأكل ضفدعة فيتعين عليك أن تبحث عن ضفدعة سمينة وشهية».

صاح رجلٌ آخر «إنها قلة الخبرة، كان يجب عليه ألا يأخذ النقود بنفسه، ما يفعله الآخرون هو أن يقولوا لك أن تذهب وتسلم النقود للخادم فى المنزل»، وكان أوبى يحاول أن

يفعل ما يقوم به الآخرون دون أن يبحث عن كيفية القيام بذلك، ثم ذكر المثل الشعبى الخاص بجرذ المنازل الذى ذهب للسباحة مع صديقته السحلية، ثم مات بسبب البرد، فبينما أدت القشور التى تغطى جسم السحلية لبقائها جافةً، تسبَّب جسم الجرذ المغطى بالشعر فى أن يعانى من البَلل.

بعد فترة نظر الرئيس إلى الساعة التى يضعها فى جيبه، ثم صرّح بقوله «إنه قد حان الوقت لافتتاح الاجتماع». وقف الجميع وردّدوا صلاة قصيرة، ثم قام بعد ذلك بإعطاء ثلاث ثمرات بندق الكولا للمؤتمر، وقام أكبر الرجال الموجودين سنًّا بكسر إحداهن، وهو يردد صلاة من نوع آخر، بينما كان يفعل ذلك صاح قائلاً «إن مَن يحضر ثمرات بندق الكولا كأنه قد أتى بالحياة نفسها، نحن لا نبغى إيذاء أى شخص، ولكن إذا حاول أى شخص إيذاءنا فنحن نبتهل لله أن يدقّ عنقه» قام المجتمون بترديد قول «آمين»، أضاف الرجل قائلاً «نحن أغرابٌ فى هذه الأرض، فإذا أتى الخير إليها، ندعو الله أن نحصل على الجزء الخاص بنا» ثم مرة أخرى ردد الناس «آمين» عاد الرجل مرة أخرى، يقول «ولكن إذا أتى الشر فعساه أن يذهب إلى مُلاّك الأراضى الذين يعلمون أنه يتعين عليهم تهدئة الآلهة» ردد الحاضرون «آمين» قال الرجل «هناك بلدان كثيرة توجد فيها أربعة أو خمسة أو حتى عشرة من أبناء تلك البلدان يحتلون مراكز أوروبية مميزة فى هذه المدينة، ولكن فى أموفيا يوجد واحد فقط، ولكنّ أعداءنا يستكثرون علينا شخصًا واحدًا ويقولون إنه كثير جدًّا، ولكن أسلافنا لن يوافقوا على شىء من هذا القبيل» ردد الحاضرون «آمين» استأنف الرجل صلاته ودعاءه «إن ثمرة النخيل لن تفقد طريقها فى النار» ومرة أخرى ردد الآخرون «آمين».

كان أوبى أوكنكو بالفعل ثمرة نخيل وحيدة، وكان اسمه بالكامل أوبياچولو – بما يعنى «الذهن الآن أصبح يشعر بالراحة»، وكان الذهن بالطبع يرمز إلى ذهن أبيه الذى أنجبت زوجته له أربع بنات قَبْلَ أوبى، ولذلك كان من الطبيعى أن يعتريه القلقُ، وحيث إنه كان قد تحوّل للمسيحية فإنه لم يكن يُسمح له باتخاذ زوجةٍ ثانية، ولكنه لم يكن بالرجل الذى يسمح لمظاهر الحزن أن تبدو على وجهه، خاصة أنه لم يكن ليسمح للوثنيين أن

يعرفوا أنه لم يكن سعيدًا، فقد أطلق على ابنته الرابعة اسم نوانيدينما؛ أى «الفتاة أيضًا جيدة» إلا أن نبرات صوته لم تحمل أى إحساس باقتناعه.

إلا أن الرجل العجوز الذى كسر بندق الكولا فى لاجوس، والذى أطلق على أوبى أوكنكو ثمرة النخيل الوحيدة، لم يكن يفكر فى عائلة أوكنكو، كان فى الحقيقة يفكر فى قرية أموفيا العتيقة التى يرجع تاريخها إلى ماضٍ سحيق، وتتسم بطابع عسكرى منذ ستة أو سبعة أعوام، وقام الأموفيون المغتربون خارج الوطن بتكوين اتحاد خاص بهم بهدف جمع الأموال الكافية؛ لكى يتمكنوا من إرسال بعضٍ من أنبغ شبابهم للدراسة فى إنجلترا، من أجل ذلك كانوا يقترون على أنفسهم، ويتبعون أقصى درجات التقشف، وكانت أول منحة فى هذا المشروع من نصيب أوبى أوكنكو منذ خمس سنوات مضت بالضبط باليوم والساعة. وعلى الرغم من أن مسماها «منحة» فإنها كانت من المتعين ردُّها، فى حالة أوبى كان مقدار المنحة ثمانمائة جنيه تُدفَع بعد أربعة أعوام بعد عودته وطالبه أهل قريته بدراسة القانون حتى يتمكن بعد عودته من مباشرة القضايا المتعلقة بأراضيهم، وكذلك النزاعات بينهم وبين جيرانهم، إلا أنه عندما ذهب لإنجلترا قام بدراسة الأدب الإنجليزى؛ لأن هذه الرغبة الشخصية كانت لديه منذ وقت طويل. ثارت ثائرة الاتحاد، ولكن فى نهاية المطاف تركوه يفعل ما يشاء، وعلى الرغم من أنه لن يكون محاميًا فإنه سوف يحصل على «وظيفة أوروبية» مميزة فى الحكومة.

لم يمثل اختيار أول مَن يحصل على المنحة أى صعوبة أو مشقة بالنسبة للاتحاد، فقد كان أوبى اختيارًا واضحًا. ففى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة اجتاز الامتحانات الستة المحددة للمستوى، متفوقًا على كل أقرانه فى الإقليم كلِّه، ثم حصل بعد ذلك على منحة للدراسة فى واحدة من أفضل المدارس الثانوية فى شرق نيجيريا. فى نهاية السنوات الخمس حصل على شهادة «كامبريدج» الثانوية بامتياز فى المواد الثماني، وأصبح بالفعل شخصية شهيرة فى القرية، وكان دائمًا ما يُذكر اسمُه فى مدرسة الإرسالية؛ حيث كان تلميذًا يَدْرُس بها سابقًا، إلا أنه لم يذكر أى شخص فى الحاضر أنه تسبب فى وضع مُحرج أو مُشين للمدرسة عندما قام بكتابة خطاب لأدولف هتلر إبّان فترة الحرب، وذكر ناظر المدرسة أثناء تلك الفترة، وهو فى حالة تشبه البكاء، أن أوبى كان مصدر خزى وعار

للإمبراطورية البريطانية، وأنه لو كان أكبرَ عُمُرًا من ذلك لكان قد أُلقى عليه القبض وألقى فى السجن ليبقى فيه حتى آخر عمره التعيس، وكان يبلغ الحادية عشرة فقط آنذاك، ولذلك فقد اكتفوا بضربه ست ضربات بالعصا (الخيزرانة) على مقعدته.

أثار سفر أوبى لإنجلترا لغطًا كثيرًا فى أموفيا، فقبل بضعة أيام من سفره إلى لاجوس دعا والديْه وعائلته لاجتماع تُتلى فيه الصلاة فى منزلهم. وكان القس ساموبل إيكيدى من كنيسة سان مارك الإنجيلية، هو الذى يؤم الصلاة، وقال «إن هذه المناسبة هى تفسير للنبوءة:

رأى القوم الذين يجلسون فى الظلام نورًا وضياء مشعًا، وكان هؤلاء الذين يقطنون فى المنطقة، وفى ظلال الموت بزغ الضياء، وأنار حياتهم».

تحدث القس لأكثر من نصف ساعة، ثم طلب من أحدهم أن يؤمّهم فى تلاوة الصلوات، وفى الحال تصدّت مارى لهذا التحدى وقبلته حتى قبل أن يكون هناك متسعٌ من الوقت؛ لكى يقف الناس الحاضرون، وطبعًا لم يكن هناك وقت لديهم لإغلاق أعينهم. كانت مارى إحدى المسيحيات الأكثر تمسكًا بدينها فى أموفيا، وكانت أيضًا صديقة حميمة لأم أوبى حنا أوكنكو، وعلى الرغم من أن مارى كانت تقطن على مبعدة أكثر من ثلاثة أميال من الكنيسة، فإنها لم يفتها قطُ صلاة الصباح الباكر، التى كانت دائمًا يؤمها القس عند صياح الديك.

كان من الأمور المؤكدة وجود مارى، سواء فى الموسم المطير أو موسم الشتاء، حتى إنها فى بعض الأحيان كانت تأتى قبل الميعاد بنصف الساعة تقريبًا، كانت تطفئ المصباح الذى يُستخدم أثناء العواصف؛ لكى تدخر الكيروسين، وتذهب لكى تنام على المقاعد المستطيلة المبنية من الطين.

صاحت مارى «يا الله! يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أنت الأول والآخر. بدونك لا نستطيع القيام بأى شىء، إن النهر الكبير ذا الماء الغزير لا يكفى أن تغسل يديك فيه. أنت تمتلك الخبز والسكين ودون أن تقطع لنا قطعة منها لن نستطيع أن نأكل، فنحن لا نَعْدُو أن نكون مجرد نمل فى نظرك، نحن مثل الأطفال الصغار الذين يغسلون بطونهم

فقط عندما يستحمون، تاركين ظهورهم جافةً لم تَمسها المياهُ». استمرت فى ذكر حكمة تلو الأخرى، وترسم صورة بعد الأخرى، وفى آخر الأمر وصلت لموضوع الاجتماع، وتناولته كما ينبغى، وكان من بين ما سردته تاريخ حياة ابن صديقتها الذى كان يزمع الذهاب إلى المكان الذى سوف يستكمل فيه تحصيل العلم، وعندما انتهت من عمل ذلك طرف المجتمعون بعيونهم، ومسحوا عيونهم؛ لكى يتأقلموا على ضوء المساء الخافت مرة أخرى.

جلسوا على مقاعد خشبية مستطيلة، وكانوا قد قاموا باستعارتها من المدرسة، وكانت هناك منضدة أمام الرئيس، بينما جلس أوبى على أحد الجوانب وهو يرتدى جاكت المدرسة وبنطلونًا أبيض.

برز الخدم من منطقة المطبخ فى وضع شبه انحناءة من أثر حمْل الوعاء الحديدى الضخم، الذى كانوا يحملونه بينهم، وتلا ذلك وعاء آخر، ثم أحضرت فتاتان وعاء ممتلئًا بالعصيدة الساخنة ينبعث منه دخان كثيف، وتلا ذلك تقديم كاسات صغيرة بها نبيذ مستخرَج من النخيل، وكذلك أكوام من الأطباق والملاعق التى قامت الكنيسة بتخزينها؛ لكى يستخدمها رواد الكنيسة فى مناسبات مختلفة، مثل الزواج والميلاد والموت، ومناسبات أخرى مشابِهة.

ألقَى السيد إيزاك أوكنكو خطبة بها لمحة قصيرة، واضعًا هذه الكولا الصغيرة أمام ضيوفه، وطبقًا للمعايير المتعارف عليها فى أموفيا؛ فإنه كان يعتبر شخصًا ثريًّا، وكان ينتمِى لجماعة الإنجيليين التابعين لجمعية إرسالية الكنيسة لمدة تقارب الخمس عشرة سنة، ثم أُحيل بعد ذلك إلى المعاش، وكان يقبض معاشًا سنويًّا يبلغ خمسة وعشرين جنيهًا.

كان أولَ رجل يقوم ببناء منزل من الزنك فى أموفيا، فلم يكن إذن بالأمر غير المتوقع أن يقوم بإعداد وليمة، ولكن لم يتخيل أحد قط شيئًا على هذا النطاق، حتى من أوكنكو، الذى كان يشتهر عنه الكرم، والذى كان فى أحوال كثيرة يمكن وصفه بالإسراف، وعندما كانت توبّخه زوجته على إسرافه وبذْخه كان يردّ بقوله «إن أى شخص يعيش على ضفاف نهر النيجر لا يجب أن يغسل يديه بالبصاق»، وكان هذا قولاً أثيرًا يردده والدُه دوما، وكان من الغريب أنه قام برفض أى شىء قام به أو فعله أبوه، أى يتعلق بأبيه، فيما عدا هذا المثَل أو هذه الحكمة، ربما لأنه كان قد نسىَ منذ فترة طويلة أن أباه لطالما استخدمه.

فى نهاية المأدبة ألقى القس خطبة أخرى طويلة قام فيها يشكر أوكنكو، لاستضافتهم على مآدب أكبر بكثير جدًا من مآدب أفراح تقام هذه الأيام.

كان مستر إيكيدى قد أتى إلى أموفيا من إحدى المدن الصغيرة، وكان بالتالى قادرًا على إبلاغ الحضور كيف انحدرت مآدب الأفراح بصورة منتظمة فى المدن منذ اختراع كروت الدعوات للأفراح. أطلق عدد كبير من الحاضرين صفيرًا؛ دَلالةً على عدم التصديقِ عندما أخبرهم أنه لا يمكن لأى رجل أن يذهب إلى فرح أحد جيرانه دون أحد تلك الكروت التى كتب فوقها RSVP، وهى الحروف التى تَعنى «رجاء الرد» وفسّرت خطأً بأنها «الأرز والعصيدة متوفرة بكثرة» وهو ما كان يمثل جملة لا ضرورة لها.

ثم استدار ناحية الشاب الجالس على يمينه، قائلاً له «فى ماضى الزمان كانت أموفيا سوف تطالبك بأن تحارب فى حروبها وتأتى برءوس الأعداء عندما ترجع إليها، ولكن تلك كانت أيامًا يسودها ظلامُ الجهل، تَحررنا منه بفضل الدم الذى أُريق من أبناء الله الصالحين، واليوم نحن نرسلك؛ لكى ترجع لنا بالحكمة والعلم. تذكّر أن الخوف من الله هو بداية طريق الحكمة، ولقد سمعت عن شباب آخرين من مدن أخرى ارتحلوا إلى بلاد الرجل الأبيض، ولكنهم بدلاً من أخْذ دراستهم مأخذَ الجد انزلقوا ناحية ملذات الجسد، حتى إن البعض منهم تزوج نساء من البيض»، صدرت هَمْهماتٌ من الحضور تدل على رفض قاطعٍ لهذه التصرفات، أردف القس قائلاً «إن أى شخص يقوم بعمل ذلك سوف يعتبره قومُه ضائعًا مثله مثل المطر المفقود فى الغابات، وكنت سوف أقترح عليك أن تتزوج قبل أن تسافر، ولكن الوقت غير كافٍ بالمرة. وعلى أية حال، فأنا أعلم أنه لا يخالجنى أى تخوف من ناحيتك، فنحن سوف نرسلك لكى تتعلم ما فى داخل الكتب، يجب أن تؤجل الاستمتاع بالملذات، لا تتسرع فى طلب المتعة وملذات الحياة، وبذلك تكون مثل الغزال الصغير الغر الذى ظل يرقص حتى أصابه العَرج، بينما كانت الرقصة الأساسية لم يحِن وقتها بعدُ».

شكر أوكنكو مرة أخرى وكذلك الضيوف الذين لبوّا الدعوة، قائلاً «إذا لم تلبُّوا دعوته، لكان أخونا قد أصبح مثل الملك المذكور فى الكتاب المقدس، الذى أطلق على الزفاف اسم وليمة».

وبمجرد أن انتهى من كلامه، أطلقت مارى عقيرتها بغناء إحدى الأغانى التى كانت النساء يعرفنها عندما كن يجتمعن للصلاة:

«لا تتركنى يا يسوع، انتظرنى عندما أذهب إلى الحقل. لا تتركنى يا يسوع، انتظرنى عندما أذهب إلى السوق، لا تتركنى يا يسوع، انتظرنى عندما أتناول طعامى، لا تتركنى يا يسوع، انتظرنى عندما أستحم، لا تتركنى يا يسوع، انتظرنى عندما يذهب لبلاد الرجل الأبيض، لا تتركه يا يسوع، انتظره».

انتهى الاجتماع بغناء «ممجدًا الله الذى ينبع منه كل النعم» ثم بعد ذلك تبادل الضيوف تحيات الوداع مع أوبى، وقام الكثير بإسداء كل النصائح التى أُسديت له من قبلُ، تصافحوا بالأيدى معه، وبينما كانوا يفعلون ذلك قاموا بدسّ هداياهم فى راحة يده، لكى يشترى بالنقود قلمًا رصاصًا أو كراسة أو رغيفَ عيش يأكله أثناء الرحلة، كانت تلك النقود تتمثل فى «شلن» أو أقل من ذلك، وكانت تلك هَدايا قيّمة فى قرية كانت النقود فيها شحيحةً ونادرةً، حيث كان الرجال والنساء يعملون بكَد شديد من سنة لأخرى؛ لكى يعتصروا خيرًا زهيدًا من أرض أصابها الوَهْنُ، وأصبحت غيرَ راغبة فى منحهم أىَّ خيرٍ.

الفصل الثانى

أقام أوبى فى إنجلترا لمدة أقل بقليل من أربع سنوات، كان فى بعض الأحيان يصعُب عليه أن يصدّق أن الفترة كانت بهذا القِصَر؛ كانت المدة تبدو كما لو أنها عَقد من الزمان وليس أربع سنوات، خاصة بإحساس البؤس الذى كان يعتريه فى الشتاء عندما كان إحساس الشوق للعودة لبلده يؤلمه ويوخزه وخزًا كأنه ألم جسمانى. أصبحت نيچيريا لأول مرة أكثر من مجرد اسم بالنسبة له، وحدث له هذا فى إنجلترا. كانت تلك هى أعظم شىء منحته إنجلترا له.

ولكن كانت نيچيريا، التى عاد إليها، مختلفة كل الاختلاف عن الصورة التى حمَلها فى عقله ووجدانه خلال تلك السنوات الأربع، وكانت هناك أشياء كثيرة لم يستطِع التعرف عليها، بينما كانت هناك أشياء أخرى مثل البيوت الشعبية فى لاجوس التى كان يتبينها لأول مرة.

عندما كان لا يزال صبيًا فى قرية أوموفيا كان قد استمع إلى أولى القصص الخاصة بلاجوس من جندى عائد من الحرب. كان هؤلاء الجنود أبطالاً قد رَأَوْا وتعرفوا على العالم الواسع الفسيح، وكانوا يتحدثون عن الحبشة ومصر وفلسطين وبورما وبلاد أخرى، وكان بعضهم من القرويين الفشلة الذين لم يصيبوا أى نجاح فى التعليم، ولكنهم كانوا الآن فى مصافّ الأبطال، ويمتلكون الآن أموالاً طائلة، وكان القرويون يجلسون تحت أقدامهم؛ لكى يستمعوا إلى رواياتهم، وكان أحدهم يذهب بصفة منتظمة إلى السوق فى القرية المجاورة، ويأخذ منها ما يحلو له أن يأخذه دون دفع نقود، ويرتدى البِذلة العسكرية كاملةً، ويدقّ الأرض بحذائه العسكرى، ولذا لم يجرؤ أحد أن يقول له شيئًا، فقد كان يُقال إنه إذا لَمَستَ جنديًا فإن الحكومة هى التى سوف تعاقبك على فعلتك تلك.

بالإضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء الجنود كانوا يتمتعون بقوة جسمانية مثل الأسود؛ بسبب الحقن التى كان الجيش يقوم بحقنهم بها. كوّن أوبى أول صورة له عن لاجوس من أحد هؤلاء الجنود.

لا يوجد ظلام هناك؛ لأن فى الليل تنير المصابيح الكهربائية فتصبح مثل الشمس، ويظل الناس يمشون ويَهيمون فى الشوارع، أنا أقصد بالطبع هؤلاء الذين يريدون أن يمشوا، أما الذين لا يريدون ذلك فما عليهم إلا أن يلوّحوا بأيديهم لإحدى سيارات الأجرة لتتوقف وتقلّهم، عند هذا الحد أطلق المستمعون صيحاتٍ تنمُّ عن الدهشة، وعلى سبيل الاستطراد أكمل حديثه قائلا «إذا رأيت رجلاً أبيض فيجب عليك أن ترفع قبعتك له، فهو يستطيع عمل أى شىء، الشىء الوحيد الذى لا يمكنه عمله هو خلْق إنسان».

لسنوات عديدة بعد ذلك، أصبحت لاجوس مرتبطة فى ذهنه بالمصابيح الكهربائية والسيارات التى تعمل بالموتور، وحتى بعد أن قام بزيارة المدينة فى نهاية الأمر وأمضى بها بضعة أيام قبل أن يستقل الطائرة إلى المملكة المتحدة لم تتغير أفكارُه كثيرًا. وبطبيعة الحال، لم يرَ الكثير من الأماكن فى لاجوس حينذاك. كان عقله منصبًا على أمور أكثر أهمية. أمضى أيامًا قليلة مع «ابن بلدته» جوزيف أوكيكى الذى كان يعمل موظفًا فى مصلحة المساحة. كان أوبى وجوزيف فى الفصل الدراسى نفسه فى مدرسة أموفيا المركزية، إلا أن جوزيف لم يُكمل دراسته فى المدرسة الثانوية؛ لأن سنه كان قد تجاوزت كثيرًا السن القانونية، وكان أهله يعانون من فقر مُدْقع، انضم إلى كتبة التعليم فى السرية رقم ٨٢، وعندما وضعت الحرب أوزارها انضم إلى العمل فى الحكومة النيجيرية.

كان جوزيف ينتظر فى الحديقة العامة المسماة حديقة لاجوس العامة للسيارات؛ لكى يقابل صديقه المحظوظ الذى كان يمر بلاجوس فى طريقه إلى المملكة المتحدة. أخذه إلى حيث يقطُن فى أوبالند، كان مكونًا من أكثر من غرفة واحدة، وكانت هناك ستارة من القماش الأزرق الفاتح بطول الغرفة تفصل قدس الأقداس (كما كان يسميه) عن المساحة المخصصة للجلوس، وكان يخفى أدوات الطهى والعلب وأغراضه الشخصية الأخرى وراء قدس الأقداس، وكان فى المساحة المخصصة للجلوس بها كرسيان لهما أيدٍ وكنبة (كان

يطلق عليهما «فتاتا وانا») ومائدة مستديرة يضع فوقها ألبوم الصور الخاص به. وفى المساء كان خادمه يزيح المائدة المستديرة جانبًا، ويقوم بفرش السجادة الصغيرة الخاصة به على الأرض.

كان فى جُعبة جوزيف الكثير من الروايات لكى يقصها على أوبى فى أول ليلة يقضيها فى لاجوس، حتى إنهما عندما ناما كانت الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا، حدّثه عن السينما وساحات الرقص، كما تحدث إليه عن الاجتماعات السياسية.

«الرقص فى زماننا هذا مهم جدًّا، لن تعيرك أى فتاة اهتمامًا إذا لم تعرف كيف ترقص. قابلت چوى لأول مرة فى مدرسة للرقص» تساءل أوبى الذى كان مبهورًا بالمعلومات عن هذا العالم الجديد الغريب الذى تكتنفه الخطيئة «ومَن هى چوى؟» رد عليه موضحًا «كانت صديقتى لفترة، دعنى أتذكر» ثم بدأ فى العدّ على أصابعه «مارس وأبريل ومايو ويونيو ويوليو – أى لمدة خمسة شهور، ولقد قامت بعمل أكياس المخدات تلك لى».

اعتدل أوبى بحركة لا شعورية حتى يتمكن من رؤية المخدة التى كان يضع رأسه عليها، وكان قد لاحظها تحديدًا قبلَ ذلك بساعات فى هذا النهار كانت هناك كلمة «القبلات» مطرزة فوقها، وكان كل حرف مطرزًا بلون مختلف.

«كانت فتاة لطيفة، إلا أنها كانت تتسم فى بعض الأحيان بالرعونة، ومع ذلك فإننى فى بعض الأحيان أتمنى لو لم نكن قد انفصلنا، وكانت تَهيم بى حبًّا وكانت عذراء عندما قابلتها لأول مرة، وهو أمر نادر الحدوث هنا».

تحدث جوزيف دون توقف، إلا أنه فى آخر الأمر أصبح أقل وأقل وضوحًا وأكثر غموضًا، ثم وبدون أى توقف على الإطلاق تحوّل حديثه إلى شخير عالٍ استمر حتى الصباح.

فى اليوم التالى، وجد أوبى نفسه مضطرًّا للقيام بالتريّض الإجبارى فى شارع لويس. كان جوزيف قد جلب امرأة إلى منزله، وكان من الواضح أن وجود أوبى فى الغرفة ليس بالأمر المرغوبِ فيه، فلذلك خرج لكى يلقى نظرة على المكان فى الخارج، وكانت الفتاة أحد اكتشافات جوزيف الجديدة، كما صرح له بعد ذلك.

سمراء وطويلة، ذات صدر كبير محشور داخل فستان ضيق ذى ألوان أحمر وأصفر.

كانت شفتاها وأظافرها الطويلة ذات لون أحمر فاقع، وكان حاجباها الأسودان رفيعين للغاية، وكانت تبدو كبيرة الشبه بالأقنعة الخشبية المصنوعة فى ليكوت إيكبيني. وبوجه عام تركت انطباعًا سيئًا مثل ذلك الانطباع الذى تركته كلمة «القبلات» ذات الألوان المختلفة المطرزة على كيس المخدة.

بعد ذلك بسنوات عدة، بعد أن عاد حديثًا من إنجلترا، وبينما كان واقفًا بجوار سيارته ذات مساء فى إحدى مناطق لاجوس الأقل فقرًا، منتظرًا كلارا لكى تأخذ قماشًا إلى الخياطة، سرَحَ بخياله إلى انطباعاته الأولى عن المدينة، ولم يكن يتخيل أن أماكن مثل تلك التى كان بها ممكن أن توجد فى المكان نفسه الذى توجد به سيارات وأنوار كهربائية وفتيات فى أزيائهن الزاهية.

كانت سيارته تقف بجوار مخر سيول ضخم عريض؛ حيث كانت تصدر عنه رائحة عفنة قوية للغاية تنبعث من بقايا جثة كلب الذى لا شك أنه قد صدمته سيارة مسرعة، وكان أوبى كثيرًا ما يتعجب عن السبب وراء دهس سيارات كثيرة للكلاب فى لاجوس، حتى حدث ذات يوم أن السائق الذى طلب منه أن يعلِّمه قيادة السيارات انحرف بالسيارة ودهس أحد الكلاب.

سأله أوبى، وهو فى حالة من الذهول والصدمة لماذا فعل ذلك، فرد عليه السائق بقوله «هذا نذير شؤم. الكلب يجلب الحظ الحسن للسيارة الجديدة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للبط، لأنك إذا دهستَ بطة فإنك ستتسبب فى حادثة أو تقتل رجلاً».

هبّ الفتى واقفًا وبدأ فى توجيه الشتائم له. اتجه الرجل صوْبَه وهو يُشهِر مكنسته، إلا أن الصبى كان قد أخذ بالفعل فى الهروب وهو يحمل وعاء الأكارا على رأسه. انفجر الرجل الذى يطحن الذرة فى الضحك، وانضمت إليه المرأة فى الضحك. ابتسم الحارس المسائى وانطلق فى طريقه بعد أن قال شيئًا بذيئًا عن أم الصبى.

دار بخَلَد أوبى أن هذه هى لاجوس الحقيقية التى لم يكن قد شاهدها من قبل، ولا حتى تخيل أن تكون موجودة قبل هذه اللحظة، وخلال أول شتاء مر به فى إنجلترا كتب قصيدة شعر تتسم بالسذاجة والحنين إلى وطنه نيچيريا، ولم تكن عن لاجوس على وجه الخصوص، إلا أن لاجوس كانت تمثل جزءًا من نيچيريا فى مخيلته.

«كم هو رائع أن تنام وتستظل تحت شجرة فى الأمسيات وتشترك فى النشوة التى تبعثها الطيور الفرحة ورقة الفراشات، كم هو رائع أن نتخلى عن أجسادنا الطينية فى الطين، ونسمو نحو موسيقى الأكوان. ثم نهبط رويدًا مع الرياح والضياء الرقيق نحو الشمس الغاربة».

تذكَّرَ هذه القصيدة، ثم استدار ونظر إلى الكلب المتعفن الملقىٰ فى مخر السيول، ثم ابتسم قائلاً من خلال أسنانه المجزوزة «لقد ذقت طعمَ لحم عفن ذى رائحة نفاذة أكثر من هذا الذى أراه» وأخيرًا ظهرت كلارا من شارع جانبى، فانطلقا بعيدًا.

كان الصمت يلفهما بينما كانت العربة تنطلق فى الشوارع الضيقة المكتظة بالناس، سألها «لا أعرف لماذا يجب عليك أن تذهبى إلى خياطة فى هذه الأحياء الشعبية القذرة؟» إلا أن كلارا لم تُجِبْه، ولكنها بدلاً من ذلك بدأت تدندن بالأغنية الشهيرة «لا بد أن يحدث ما هو مقدر لنا che sera sera».

أصبحت الآن الشوارع مزعجة ومزدحمة، وهو ما كان متوقعًا فى أمسية يوم السبت الساعة التاسعة مساء.

وكل بضع خطوات تَقَابل الإنسان مع مجموعات من الراقصين كانوا غالبًا ما يرتدون الرداء نفسه أو ما يطلق عليه آسو إيبى «aso abi». أقيمت العشش المؤقتة ذات الألوان المبهجة أمام منازل مزرية، وكانت مضاءة بالمصابيح الفلورسنت الزاهية للاحتفال بخطوبة أو زواج أو ميلاد أو ترقية أو نجاح فى العمل، أو وفاة أحد الأقارب من كبار السن.

هدَّأ أوبى من سرعة السيارة بينما كان يقترب من ثلاثة من قارعى الطبول ومجموعة كبيرة من الشابات يرتدين ثيابا من القماش الدمشقى والقطيفة ملفوفة حول خصورهن

بصورة تبدو عشوائية، أطلق سائقُ تاكسى نَفير سيارته بعد أن فقَد صبره وانطلق لكى يلحق به، ثم فى اللحظة نفسها أطلق برأسه من شباك السيارة، وصرخ قائلاً «يا مغفل، يا مجنون!» فأجابه أوبى «أنت المغفل يا غبى!» وفى اللحظة نفسها تقريبًا عبَرَ راكبُ دراجة الطريق دون أن ينظر وراءه أو يعطى أى إشارة، وأطلقت كلارا صرخة مكتومة وأمسكت بيده اليسرى، ونظر راكب الدراجة للخلف مرة واحدة ثم انطلق بدراجته، كانت حقيبة دراجته السوداء تعبر عن أمانيه وطموحه لكى يراها الجميع، كان مكتوبًا عليها «وزير المستقبل».

كان الذهاب من لاجوس إلى إيكويو(أمسية السبت) أشبه ما يكون بالذهاب من بازار يعجّ بالحركة إلى مأتم، كانت جبّانة لاجوس المترامية الأطراف التى تفضل المكانين هى السبب فى ترسيخ هذا الإحساس، فعلى الرغم من الشاليهات والشقق الضخمة والخضرة مترامية الأطراف فى إيكويو، فإنها كانت مثل الجبّانة؛ كانت تفتقر إلى الحياة الجماعية- على الأقل كان هذا هو إحساس الأفريقيين الذين يقطنون هناك، وبالطبع لم يكونوا يقطنون هناك قبل ذلك، فقد كانت أشبه ما تكون بالمحمية أو المستعمرة الخاصة بالأوروبيين، إلا أن الأمور تغيرت، فتم منح بعض الأفريقيين الذين يعملون فى «مناصب أوروبية» منازل فى إيكويو. فعلى سبيل المثال، كان أوبى أوكونكو يعيش هناك وبينما كان يقود سيارته من لاجوس عائدًا إلى شقته أصيب بالدهشة من انقسام هذه المدينة بما يشبه المدينتين، كان هذا دائمًا ما يذكره بنواة توأم بينهما حائط رفيع داخل قشرة بندق النخيل، وفى بعض الأحيان كانت إحدى تلك النوى تلمع من شدة سوادها وتتميز بالحيوية، أما الأخرى فكان يكسوها لون أبيض مثل الدقيق، ولكنه بياض يشبه بياض الموتى.

نظر أوبى من طرف عينه إلى كلارا التى كانت تتعمّد الجلوس بطريقة لافتة بعيدًا عنه، حتى إنها التصقت بالباب البعيد عنه تمامًا ناحية الشمال. واستوضحها متسائلاً «ما الذى يجعلك متقلبة المزاج بهذا الشكل؟» إلا أنها لم ترد عليه، أعاد عليها السؤال «قولى لى يا حبيبتى» وهو يمسك بإحدى يديها بينما كان يقود السيارة باليد الأخرى، إلا أنها جذبت يدها مبتعدةً عنه قائلة «اتركنى، اتركنى».

كان أوبى يدرك تمامًا لماذا كانت كلارا متقلبة المزاج بهذا الشكل، وكانت قد ألمحت إليه بطريقتها التى تتحسس الكلام أنهما يتعين عليهما الذهاب إلى السينما؛ ففى هذه المرحلة من علاقتهما لم تكن كلارا لتقول «دعنا نذهب إلى السينما» ولكنها كانت تقول «هناك فيلم جيد فى سينما كابيتول»، إلا أن أوبى الذى لم يكن يهتم كثيرًا بالأفلام، خاصة تلك التى كانت كلارا تصفهم بأنهم جيدو المستوى، قال بعد فترة صمت طويلة:

«حسنًا، سوف نذهب إذا كنت مصرة على الذهاب، إلا أنى لست متحمسًا» ولكن لم تصرّ كلارا، ولكنها شعرت بإهانة شديدة، وكانت طوال الأمسية تضمّد من جراح نفسها، وقال أوبى متداركًا أو على الأقل يدّعى ذلك «الوقت لم يتأخر بعدُ للذهاب إلى الفيلم الذى ترغبين فى مشاهدته، يمكنك الذهاب إذا أردت ذلك، ولكنى لن أذهب». قبل ذلك بثلاثة أيام فقط كانا قد ذهبا لمشاهدة «فيلم جيد جدًا» أثار حفيظة أوبى لدرجة أنه لم ينظر حتى ناحية الشاشة، فيما عدا عندما همست كلارا شارحةً أحد المشاهد لكى توضح له الفيلم. فى إحدى المرات قالت «سوف يتم قتل هذا الرجل» كأنها تتنبأ، وبالفعل حدث ذلك للرجل الذى أطلق عليه الرصاص فى التو واللحظة. كان رواد السينما فى الصالة بالأسفل الذين يجلسون فى الأماكن الرخيصة يشتركون فى التعليق على أحداث الفيلم بطريقة مزعجة.

لم يتوقف أوبى عن الاندهاش من انبهار كلارا وسعادتها فى أحداث القتل المريعة تلك على الشاشة. فى الحقيقة؛ فإنها كانت تثير المتعة بداخله عندما كان يفكر فيها خارج السينما، إلا أنه عندما كان هناك كان لا يشعر بشىء إلا الضجر والملل، وكانت كلارا مدركة لهذا تمامًا، وحاولت قدر المستطاع أن تخفف عنه من وطأة الملل بالضغط على يده أو بعض أذنه بعد أن تهمس إليه بشىء.

كانت فى بعض الأحيان تقول «وعلى أية حال، أنا لا أتشاجر معك عندما تبدأ فى قراءة إحدى قصائدك لى» وكان هذا بالفعل شيئًا حقيقيًا. كان فى هذا الصباح تحديدًا قد اتصل بها هاتفيًا عندما كانت بالمستشفى ودَعاها لتناول الغداء معًا؛ لكى تقابل أحد أصدقائه،

الذى كان قد وصل لتوه إلى لاجوس منقولاً من أنوجو. فى الحقيقة، كانت كلارا قد قابلت هذا الشخص قبل ذلك، ولم تكن تحبه، فلذلك قالت وهى تحادثه تليفونيًا إنها لم تكن راغبة أو متشوقة لرؤيته مرة أخرى، ولكن كان أوبى مصرًا، فقالت كلارا «أنا لا أعرف لماذا تريد منى أن أقابل أناسًا لا أرغب فى مقابلتهم؟».

رد أوبى عليها بقوله «هل تعلمين يا كلارا، أنك شاعرة أن تقابلى أناسًا لا تريدين أن تقابليهم بها رنة واضحة من شعر ت. س. إليوت».

لم يكن لدى كلارا أية فكرة عما يتحدث عنه، ولكنها ذهبت لتناول الغداء وقابلت صديق أوبى، كريستوفر، ولذلك فأقل ما كان لأوبى أن يفعله بوصفه ردًا مناسبًا هو أن يجلس صابرًا لمشاهدة «الفيلم الجيد جدًا» بالطريقة الصابرة نفسها التى جلست وتحملت فيها تناول غداء يكتنفه الملل، بينما كان أوبى وصديقه كريستوفر يحللان وينظران فى الرشوة فى المصالح الحكومية فى نيچيريا، وكلما تقابل أوبى وكريستوفر كانا يتجادلان ويتناقشان بحرارة حول مستقبل نيچيريا. وأيًا كان الموقف الذى يتخذه أوبى، فقد كان كريستوفر يأخذ الموقف المعاكس له، وكان كريستوفر رجل اقتصاد تلقى تعليمه فى كلية لندن للاقتصاد، وكان دائمًا ما يذكر أن أفكار أوبى لم تكن ترتكز على تحليل علمى أو موضوعى، ولم يكن هذا بالأمر المستغرب؛ حيث إنه كان حاصلاً على درجته العلمية فى اللغة الإنجليزية وليس فى الاقتصاد.

قال أوبى «الأداء الحكومى يتسم بالفساد؛ بسبب هؤلاء الذين يسمّون بالمتخصصين الجالسين على أعلى الهرم الحكومى».

«أنت لا تؤمن بالخبرة؟ أنت تعتقد أن شابًا حديث التخرج من الجامعة يجب أن يكون وزيرًا يتولى وزارة؟».

«لم أقل حديث التخرج من الجامعة، ولكن حتى هذا سوف يكون أفضل من إشغال المناصب العليا برجال عواجيز لا يتميزون بأى فضيلة فكرية يمكن أن تدعم خبرتهم».

«وماذا عن المسئول عن الأراضى الذى تم حبسه العام الماضى، لقد كان حديث التخرج من الجامعة؟».

رد أوبى عليه قائلاً «لقد كان هذا استثناء للقاعدة، ولكن خُذ على سبيل المثال أحد هؤلاء الرجال العواجيز على الأرجح، فإنه ترك الدراسة منذ ثلاثين عامًا فى الصف السادس، وكان دائمًا يعمل بمنتهى الهمة والنشاط ليصل إلى أعلى المناصب من خلال الرشوة، وكان ذلك هو المسار الطبيعى بالنسبة له. كان يتلقاها وكذلك فهو يتوقع الحصول عليها، ويقول مواطنونا إذا احترمتَ وأجْللت الرجل ذا المنصب الرفيع فإن الآخرين سوف يحترمونك ويجلّونك أنت عندما تتولى هذا المنصب الرفيع. حسنًا، هذا ما يردده الرجال العواجيز».

«هل لى أن أسأل ما رأى الشباب؟».

«بالنسبة للكثير؛ فإن الرشوة لا تمثل أية مشكلة، فهم يأتون مباشرة إلى المناصب العليا دون أن يرشوا أحدًا، وهم ليسوا بالضرورة أفضل من الآخرين، فهم ببساطة يمكنهم أن يتمتعوا بالفضيلة، وحتى هذا النوع من الفضيلة من الممكن أن يكون عادة بالنسبة لهم أكثر منه إيمانًا».

قال كريستوفر موافقًا على كلام أوبى (بينما كان يأكل قطعة كبيرة من اللحم التقطها من داخل شوربة اللحم) «لقد عبّرت عن الفكرة بطريقة جيدة»، كانا يأكلان شوربة اللحم باستخدام أصابعهما.

عاد الجيل الثانى من النيچيريين المتعلمين مرة أخرى لتناول طعامهم باستخدام أصابعهم، لسبب وجيه وبسيط، أن الطعام كان له مذاق أشهى عندما يتم تناوله بهذه الطريقة، ولسبب أكثر وجاهةً أنهم لم يكونوا مذعورين مثل الجيل الأول من النيچيريين المتعلمين من أن يطلق عليهم أحد ما صفة «غير مهذبين».

صاحت كلارا منادية «زاكايوس».

«رد صوت امرأة من المطبخ «نعم يا سيدتى».

«أحضرى لنا المزيد من الشوربة».

لم يكن زاكايوس لديه نية حقيقية أن يردّ، ولكنه فكر مَليًّا ثم قال متململاً «حاضر يا سيدتى». كان زاكايوس قد قرر أن يستقيل بمجرد أن يتزوج السيد من السيدة، وكان حكمه هو «أنا أحب سيدى حبًّا جمًّا، أما سيدتى فهى سيئة».

الفصل الثالث

لم يكن من الصواب إطلاق لفظ «حب من أول نظرة» على العَلاقة بين أوبى وكلارا، وكانا قد تقابلا فى حفلة راقصة، قام بتنظيمها فرع لندن للمجلس الوطنى النيچيري والكاميرون فى مجلس بلدية فى سان بانكراس،وحضرت كلارا بصحبة طالب كان أوبى يعرفه معرفة جيدة، وكان قد قام بتعريفهما على بعضهما. وفى التو واللحظة، انجذب أوبى إلى جمال كلارا، وتابعها بعينيه حول الصالة، وفى نهاية الأمر نجح فى دعوتها للرقص معه، ولكنه كان مضطربًا لدرجة أن الشىء الوحيد الذىاستطاع أن يقوله هو سؤالها «هل كنت تمارسين الرقص منذ فترة طويلة؟».

أجابت برد مقتضب «كلا. لماذا؟». لم يكن أوبى قط راقصًا بارعًا، ولكنه فى هذا المساء تحديدًا كان يرقص بطريقة بشعة، داس على أصابع قدميها تقريبًا أربع مرات فى نصف الدقيقة الأولى. بعد ذلك ركزت كل اهتمامها على إزاحة قدميها جانبًا فى الوقت المناسب تمامًا، وبمجرد انتهاء الرقصة قامت بالهروب، تبعها أوبى حتى وصل إلى حيث تجلس ليقول لها: «أشكرك شكرًا جزيلاً».

هزت رأسها دون أن تنظر ناحيته.

لم يتقابلا بعد ذلك حتى بعد ذلك بثمانية عشر شهرًا تقريبًا فى مرسى هارينجتون فى ليفربول؛ لأن ما حدث أنهما كانا عائديْن إلى نيچيريا فى اليوم نفسه، وعلى المركب نفسه.

كان مركب بضائع صغيرًا يحمل اثنى عشر مسافرًا وطاقمَ المركب المكون من خمسين شخصًا، وعندما وصل أوبى إلى المرسى كان كل الركاب المسافرين الآخرين قد صعدوا

على ظهر المركب، وقاموا باستكمال الإجراءات والشكليات الخاصة بالجوازات، وكان ضابط الجوازات القصير ذو الرأس الصلعاء يبدو ودودًا، وبدأ أوبى السؤال ما إذا كان قد استمتع بقضاء وقته فى إنجلترا، وهل انضم إلى جامعة هناك؟ وعلق بقوله إنه لا بد وأنه شعر ببرودة الجو فى إنجلترا.

رد أوبى بقوله «لم يضايقنى الجو كثيرًا فى نهاية الأمر». كان أوبى قد نمَا إلى علمه أن الشخص الإنجليزى قد يتململ ويتذمر من الجو فى إنجلترا، ولكنه لا يرحب بأى أجنبى يوافقه على ذلك.

عندما ذهب أوبى إلى البهو شعر أنه سوف يخرّ صريعًا لدى رؤيته كلارا. كانت تتحدث مع سيدة مسنّة وشاب إنجليزى. جلس أوبى معهم بعد أن قام بتعريف نفسه، وكانت السيدة المسنّة المسماة مسز رايت عائدة إلى فريتاون، وكان الشاب واسمه ماكميلان يعمل موظفًا إداريًا فى شمال نيچيريا. قدّمت كلارا نفسها باسم الآنسة أوكيكى، وبادرها أوبى بقوله «أعتقد أننا تقابلنا قبل ذلك». نظرت إليه كلارا بمزيج من الدهشة والعدوانية؛ وأوضح لها أوبى «فى الحفلة الراقصة NCNC فى لندن» ردت قائلة «فهمت» بفتور كما لو أنه قد قال لها إنهما كانا على متن قارب فى مرسى ليفربول، ثم أكملت حوارها مع مسز رايت.

ترك القارب المرسى الساعة الحادية عشرة صباحا. ولبقية اليوم ظل أوبى منعزلاً يجلس وحدَه ناظرًا إلى البحر، أو لكى يقرأ داخل الكابينة الخاصة به.

كانت هذه رحلته البحرية الأولى، وكان قد قرر بالفعل أن السفر بحرًا بالقطع أفضلُ من السفر جوًّا.

استيقظ صبيحة اليوم التالى دون أن تظهر عليه أيةُ مظاهر لدوار البحر الذى طالما سمع عنه، وقام بالاستحمام بالماء الساخن قبل أن يستيقظ أى مسافر آخر، ثم ذهب إلى الحواجز المعدنية لكى يلقى نظرة على البحر، وكان البحر فى الليلة الماضية يبدو هادئًا، ولكنه الآن أصبح صاخبًا مترامىَ الأطراف كأنه جبال من المياه المتلاطمة التى يعلوها زَبد أبيض، وظل أوبى واقفًا عند الحواجز المعدنية زُهاء الساعة وهو يرتشف الشاى مستمتعًا

بالجو النقى. تذكر مقولة «هؤلاء الذين يرحلون بحرًا...» لم يكن متدينًا فى تلك الأيام، إلا أنه مع ذلك تركت تلك العِبارة أبلغَ الأثر فيه.

عندما قرعت الجونج إيذانًا وإعلانًا عن تقديم وجبة الإفطار، كانت شهيته حادة مثل نسيم الصباح، وكانت ترتيبات الجلوس قد تمت بالفعل فى اليوم السابق، فهناك مائدة كبيرة فى المنتصف تكفى لجلوس عشرة أشخاص، وكانت هناك أيضًا ست موائد صغيرة مصفوفة حول الغرفة تكفى لجلوس شخصين؛ جلس ثمانية من المسافرين الاثنى عشر على المائدة الموجودة فى منتصف الغرفة مع قبطان المركب، الذى كان يجلس على رأس المائدة، بينما جلس كبير المهندسين على رأس المائدة من الجانب الآخر، وجلس أوبى بين ماكميلان وموظف حكومى نيچيرى اسمه ستيفن أودم، بينما كان يجلس أمامه مباشرة السيد جونز، الذى كان يشغل منصبًا ما فى شركة أفريقيا المتحدة، وانهمك مستر جونز فى تناول أربعة أو خمسة أطباق بمنتهى الهمِة والنشاط، ثم نادى على أحد الخدم بلهجة يملؤها الاعتزاز بالنفس «قهوة فقط» مؤكدًا على كلمة «فقط».

وخلافًا لمستر جونز، لم يتناول كبير المهندسين أى طعام تقريبًا، وبالتمعُّن فى وجهه، كان يخيل للمرء أنه قد تعاطى كميات كبيرة ووفيرة من أملاح أبسوم الهاضمة وأدوية أخرى، وكانت كتفاه مرتفعتين، ويداه تضغطان على جانبه بشدة كما لو أنه كان فى خوف دائم من إفراغ ما فى جوْفه.

جلست كلارا على يسار مستر جونز، ولكن رفض أوبى بشدة وإصرار أن ينظر فى اتجاهها، وكانت تتحدث مع أحد موظفى التعليم من عبدان، والذى كان يقوم بشرح الاختلاف بين اللغة واللهجات.

بدًا خليج بسكاى فى أول الأمر هادئًا وساكنًا. كانت السفينة الآن تتجه ناحية أفق تبدو فيه السماء خافتة اللون، وهى تعد بوعد غامض أن يأتى نور الشمس من بعدها، ولم يعد الأفق ملتصقًا بالسماء، ولكنه كان يتعارض ويتناقض بشدة كأنه منصة عملاقة مُعَدة لانطلاق طائرة الرب من فوقها، بعد ذلك أسدل الليل أستاره، واختفى السلام والسكينة بطريقة مفاجئة. تَغضَّن وجه البحر بعلامات الغضب، وشعر أوبى بشعور دوار طفيف، مما

جعله يشعر أن هناك شيئًا ثقيلاً يضغط على رأسه، فلذلك عندما جلس لتناول العشاء، كان كل ما فعله هو النظر إلى عشائه، وكان واحد أو اثنان من المسافرين غائبين، بينما تناول الآخرون طعامهم فى صمت.

عاد أوبى إلى كابينته، وعندما اتجه إلى سريره سمِع طرْقًا خفيفًا على الباب. فتحه ليجد كلارا لدى الباب.

قالت له بلغة الإيبو «لاحظت أنك لم تكن على ما يرام، فلذلك أحضرت لك بعض حبوب الآفومين»، وناولته مظروفًا يحتوى بداخله على نصف دستة حبوب بيضاء، ثم قالت له «خذ حبتين قبل أن تنام».

«شكرًا جزيلاً، هذا لطف وكرم منك». كان أوبى مأخوذًا تمامًا لدرجة أن كل البرود وعدم الاكتراث الذى قام أوبى بتدريب نفسه عليه اختفيا تمامًا، تلعثم عندما قال لها «ولكن، ألا أحرمك بذلك من...».

«كلا، أنا لدىّ ما يكفى لكل المسافرين، هذه هى ميْزة وجود ممرضة على المركب» ثم ابتسمت ابتسامة باهتة «لقد أعطيت هذه الحبوب للتو لمسز رايت ومستر ماكميلان. عِم مساء، سوف تشعر بالتحسن فى الصباح».

ظل أوبى يتقلب فى فراشه طوال الليل من أحد أطراف السرير إلى الجانب الآخر بطول الفراش وعرضه من تأثير حركة السفينة الصغيرة المحمومة، وهى تئِنّ وتصدر أزيزا فى ظلمة الليل. لم يستطع أن ينام ولم يستطع أيضًا أن يظل مستيقظًا، ولكنه بطريقة ما استطاع أن يفكّر فى كلارا معظم الليلة، وفى كل مرة كان يستغرق ذلك بضع ثوانٍ. كان قد اتخذ قرارًا بألا يُظهِر اهتمامه بها. إلا أنه عندما فتح الباب ورآها أمامه، فلابد وأن سعادته واضطرابه كانا واضحين لها تمامًا. ولكنها عاملته مثل أى مريض آخر، فلقد قالت له «لدىّ ما يكفى من الحبوب لكل المسافرين، لقد أعطيت بعضًا منها لمستر ماكميلان ومسز رايت». ولكنها أيضًا تحدثت بلهجة الإيبو، ولأول مرة، كما لو أنها تريد أن تقول «إننا ننتمى لبعضنا الآخر.. نحن نتحدث اللغة نفسها» كما أنها قد ظهر عليها بعض الاهتمام.

استيقظ مبكرًا جدًا صباح اليوم التالى وهو يشعر ببعض التحسن، ولكنه لم يكن قد استعاد كامل صحته، كان طاقم السفينة قد قام بتنظيف ظهر السفينة وغسْلها، مما جعله على وشك الوقوع على الخشب المبلل. اتخذ موقعه المفضل عند الحواجز المعدنية، ثم تنامى إلى سَمعه خطوات رقيقة خفيفة لوقع أقدام نسائية، فاستدار ليقع نظره على كلارا.

ابتسم ملء فِيه وهو يقول لها «صباح الخير».

ردت عليه وهى تحاول المرور «صباح الخير».

قال بلهجة الإيبو «شكرًا على حبوب الدواء».

ردت عليه بالإنجليزية «هل جعلتْك تشعر بتحسن؟».

«نعم، تحسن كبير».

قالت وهى تمضى فى طريقها «الحمد لله».

استند أوبى مرة أخرى على الحواجز الحديدية لكى يشاهد البحر الصاخب، والذى بدَا الآن مثل صحراء التّيه حادًا ومدببًا مثل الصخور فى حالة حركة دائمة، ولأول مرة منذ أن غادروا ليفربول، أصبح البحر الآن ذا زُرقة حقيقية، اللون الأزرق يتعارض مع اللون الأبيض اللامع الذى يحّف الأمواج الصغيرة اللانهائية وهى تتلاطم وتتصادم مع بعضها. سمع شخصًا ما يدبُّ بثقل ثم بنشاط، ثم صوت وقوع.

كان ذلك هو ماكميلان.

قال «أنا آسف».

قال الآخر «لم يحدث شىء» قالها وهو يضحك ببلاهة وهو يمسح الرذاذ العالق ببنطلونه.

رد عليه أوبى بقوله «أنا أيضًا كنت على وشك الوقوع».

«انتبهى يا آنسة أوكيكى» قالها ماكميلان بينما كانت كلارا عائدة مرة أخرى «سطح السفينة مبلل. قد يخدعك لقد وقعت لتوى». وكان لا يزال يمسح مؤخرة بنطلونه.

قالت كلارا «الكابتن يقول إننا سوف نصل إلى جزيرة فى الغد».

قال ماكميلان «نعم، إنها جزر الماديرا، أظن أننا سوف نصل مساء الغد».

قال أوبى «نعم، فى الوقت المناسب تمامًا».

«ألا تحب البحر؟».

«نعم، ولكن بعد خمسة أيام أحتاج إلى تغيير».

أصبح أوبى أوكنكو وجون ماكميلان فجأة أصدقاء منذ اللحظة التى سقط ماكميلان على السطح المبلل بالماء. وسرعان ما بدآ فى لعب تنس الطاولة معًا، ويقومان بشراء الشراب لبعضهما.

سأله ماكميلان «ماذا تريد أن تشرب يا مستر أوكنكو؟».

«بيرة من فضلك». أصبح تعامله أكثر حرارةً، مسح بإصبعه على وجهه فأزاح العرق.

«أليس كذلك؟» قال ماكميلان، وهو ينفخ داخل صدره «بالمناسبة، ما اسمك الأول؟! أنا اسمى جون».

«أنا اسمى أوبى».

«أوبى، يا له من اسم جميل! يا ترى ما معناه؟ قيل لى إن كل الأسماء الأفريقية لابد أن يكون لها معنى».

«حسنًا، أنا لا أعرف عن الأسماء الأفريقية، أما بالنسبة لأسماء الإيبو، فالإجابة نعم، فهم عادةً ما يكونون جملاً طويلة، مثل هذا النبى فى الإنجيل الذى أطلق على اسمه «الباقى سوف يعود».

«ماذا درستَ فى لندن؟».

«الأدب الإنجليزى، لماذا؟»»

«أبدًا، كنت فقط أتساءل. كم تبلغ من العمر؟ اعذرنى إذا كنتُ فضوليًا لهذه الدرجة».

رد أوبى بقوله «خمس وعشرون. وأنت؟».

«أليس هذا غريبًا، لأنى أنا أيضًا أبلغ الخامسة والعشرين. كم تظن عمر الآنسة أوكيكى؟».

قال أوبى وهو يبتسم «لا يجب أن نضع عمرًا للنساء وللموسيقى. أعتقد أنها فى الثالثة والعشرين تقريبا».

«إنها جميلة جدًا، ألا تظن ذلك؟».

«نعم، إنها فعلا كذلك».

قال أحدهم «إن جزر الماديرا أصبحت الآن على مقربة تقريبًا ساعتين أو نحوها»». وقف الجميع عند الحواجز يقدّمون لبعضهم أقداحَ الشراب. انتابت مستر جونز حُمَّى الشعر على حين فجأة. وظل يغمغم بأبيات شعر قالها الشاعر كولريدج «المياه تحيطنا من كل جانب ولكن لا توجد رَشفة ماء لنشربها» ثم تخلى عن شاعريته قائلاً «يا له من ماء مُهدر!».

خطَر على بال أوبى فجأةً أنه أصاب قلب الحقيقة بقوله هذا «يا له من ماء مهدر!» أن جزءًا يسيرًا جدًا من المحيط الأطلسى كفيل بأن يحوّل الصحراء الكبرى إلى مَراعٍ يانعة.

وفرة كثيرة هنا ولا شىء البتة هناك.

ألقت السفينة مرساها عند ميناء فونشال عند الغرب. حضر مركب صغير للغاية بحذا السفينة، وكان هناك شاب صغير يقوم بالتجديف، كما كان هناك ولدان بالمركب؛ كان الأصغر سنًا يبلغ العاشرة بالكاد، أما الآخرُ فكان على الأرجح أكبر منه بسنتين. كانا ينشدان الغطس فى المياه؛ بحثًا عن النقود المعدنية التى يلقيها المسافرون لهم، وفجأة طارت النقود المعدنية من فوق ظهر السفينة إلى البحر، وقام الصبيان بالتقاط كل قطعةٍ

نقودٍ. ألقى ستيفن أدوم بعملة صغيرة، إلا أن الصبيين لم يتحركا، فقد قالا إنهما لا يقومان بالغطس من أجل ملاليم. ضحك الجميع عندما سمعوا ذلك.

بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب كانت تلال فونشال والأشجار الخضراء والبيوت ذات الحوائط البيضاء والبلاطات الحمراء، تبدو كأنها جزيرة مسحورة، وبمجرد الانتهاء من وجبة العشاء، ذهب ماكميلان وأوبى وكلارا إلى الشاطئ، مشوا معًا فى شوارع مرصوفة بالزلط، مرورًا بصف طويل من السيارات الغريبة تستخدم سيارات أجرة، مروا بثورين يجران عربة كانت مجرد لوحٍ مستوى مثبتٍ على عِجْل يجلس عليه رجل ومعه جوال مملوء بشىء ما. ثم قاموا بدخول حدائق صغيرة وحدائق عامة كبيرة.

علقت كلارا على ذلك بقولها «إنها جاردن سيتى، إنها مدينة الحدائق».

بعد تقريبًا الساعة من التجوال، عادوا أدراجهم مرة أخرى إلى المرسى المائى، وجلسوا تحت مظلة ذات ألوان حمراء وخضراء ضخمة، وقاموا بطلب مشروبات من القهوة والنبيذ. حضر إليهم رجل ليبيع لهم كروت بوستال، ثم جلس لكى يحكى لهم عن نبيذ ماديرا، وكانت حصيلتُه من اللغة الإنجليزية بضعَ كلمات قليلة، إلا أنه لم يكن هناك أى غموض فى المعانى التى يريد إيصالها.

قال بإنجليزية متعثرة «نبيذ لاس بالماس نبيذ إيطالى، مياه عذبة. نبيذ ماديرا، عينان، أربعة عيون» ضحك الجميع وضحك الرجل. ثم قام ببيع حُلى مبهرجة لماكميلان، الذى كان الجميع يدرك أنها سوف تفقد بريقها حتى قبل أن يرجعوا إلى السفينة.

قالت كلارا «لن تُعجَب صديقتك بهذا يا مستر ماكميلان».

إلا أن ماكميلان شرح لها «إنها لزوجة خادمى» ثم أضاف قائلا:

«أنا أكره عندما ينادينى الناس مستر ماكميلان، يشعرنى ذلك أننى مُسن وعجوز».

قالت له «آنا آسفة. اسمك جون؟ أليس كذلك؟ وأنت أوبى، وأنا كلارا».

في العاشرة مساءً عادوا إلى السفينة؛ لأنها كانت ستبحر الساعة الحادية عشرة أو نحو ذلك، كما قال القبطان، واكتشف ماكميلان أنه ما زال يحتفظ ببعض العملات البرتغالية، فقام بطلب كأس آخر من النبيذ الذى قام باقتسامه مع أوبى، ثم رجعوا إلى السفينة، وكان ماكميلان يمسك بيد كلارا اليمنى، بينما كان أوبى يمسك بيدها اليسرى.

لم يكن المسافرون الآخرون قد عادوا بعدُ، مما جعل السفينة تبدو مهجورة. استندوا على الحاجز المعدنى ليتحدثوا عن فونشال، ثم قال ماكميلان إنه كان يتعين عليه كتابة خطاب مهم ليرسله إلى بلده، قائلا لهم «نتقابل فى الصباح».

قالت كلارا «وأنا أيضًا أظن أنه علىّ كتابة بعض الخطابات».

سألها أوبى «لترسليهم إلى إنجلترا؟».

ردت عليه «كلا، سوف أرسلهم لنيچيريا».

قال أوبى «لا يوجد سبب للسرعة؛ لأنك لن تستطيعى إرسال الخطابات لنيچيريا حتى نصل إلى فريتاون، هذا ما عرفتُه منهم».

سمعًا ماكميلان يصفِّق باب الكابينة الخاصة به، وتقابلت عيناهما لمدة ثوانٍ، ثم ودون أن ينبس بأى كلمة احتواها بين ذراعيه وكانت ترتجف، بينما كان يمطرها بالقبلات.

همست قائلة «أرجوك اتركنى».

«أنا أحبك».

كانت صامتةً لبرُهة وهى تبدو كأنها تذوب بين ذراعيه.

قالت فجأة «لا، أنت لا تحبنى. نحن نتصرف بغباء وتهور، سوف تنسى كل هذا فى الصباح» نظرت إليه ثم قبّلته بعنف، ثم قالت: «أنا أعلم بأننى سوف أكره نفسى فى الصباح. أنت لا تحبنى فعلا، اتركنى، هناك شخص قادم نحونا».

كانت القادمة هى مسز رايت، السيدة الأفريقية من فريتاون.

سألتهم «هل رجعتم؟ يا ترى أين الآخرون؟.. لم أستطِع أن أنام»، قالت إنها كانت تعانى من سوء الهضم.

الفصل الرابع

خلافًا للسفن التى تقوم بنقل البريد التى كانت ترسو على مرسى لاجوس فى أيام محددة من الأسبوع، كانت مواعيد سفن البضائع غير متوقعة على الإطلاق، فلذلك عندما وصلت السفينة المسماة MV Sasa لم يكن هناك أى أصدقاء ينتظرون قدوم مسافرين على متنها عند محطة وصول الأطلنطى، وفى أيام وصول سفن البريد كانت غرفة الانتظار الجميلة ذات الهواء العليل تكتظ بالأصدقاء والأقارب، الذين يرتدون أفضل ملابسهم وأجملها فى انتظار قدوم السفينة وهم يقطعون الوقت بشرب البيرة والكوكا كولا المثلجة، أو يأكلون الكيك. فى بعض الأحيان، كان من الممكن رؤية مجموعة صغيرة يبدو عليها الحزن أو يَقبعُون فى صمت، فى تلك الأحوال كان يمكنك أن تتأكد أن ابنهم قد تزوج من سيدة بيضاء فى إنجلترا.

لم يكن هناك الحشد نفسه من الناس فى انتظار MV Sasa. وكان من الواضح جدًا أن مستر ستيفن إدوم قد أصيب بخَيْبَة أمل شديدة، وبمجرد أن لاحت لاجوس رجع إلى الكابينة الخاصة به، ولكنه خرج مرة أخرى بعد نصف ساعة وهو يرتدى بدلة سوداء وقبعة، ويمسك شمسية مطوية، على الرغم من أنه كان يومًا حارًا فى شهر أكتوبر.

استغرقت إجراءات الجمارك ثلاثة أضعاف الوقت الذى يستغرقه فى ليفربول، كما كان الموظفون هنا يبلغون خمسة أضعاف، وكان هناك شاب أو بالأحرى صبى يقوم بالإجراءات الخاصة بكابينة أوبى، وأخبره أن الرسوم على استخدام الراديو جرام تبلغ خمسة جنيهات.

قال له أوبى (وهو يبحث فى جيوب بنطلونه) «حسنًا. اكْتُب لى إيصالاً بذلك». إلا أن الصبى لم يكتب شيئًا، ولكنه نظر إلى أوبى لعدة ثوانٍ، ثم قال «أستطيع أن أخفّض المبلغ إلى جنيهين من أجلك أنت».

سأله أوبى «كيف؟».

أجابه بإنجليزية ركيكة «أنا سأفعل ذلك، ولكنك لن تحصل على إيصال رسمى».

لم يستطع أوبى أن ينطق ولو حرفًا واحدًا لمدة ثوانٍ عدة. ثم بعد ذلك قال «لا تكن سخيفًا. لو كان هنا رجل شرطة لكنت قد سلمتك له» هرب الصبى من الكابينة دون أن ينبس بأى كلمة، ووجده أوبى بعد ذلك يتعامل مع بعض المسافرين الآخرين.

قال محدثًا نفسه «آه يا نيجيريا العزيزة!» بينما كان ينتظر قُدوم موظف آخر ليحضر إلى الكابينة. فى النهاية حضر أحدهم عندما انتهت إجراءات جميع المسافرين.

لو كان أوبى قد عاد باستخدام سفينة البريد، لكان اتحاد أوموفيا التقدمى- فرع لاجوس- قد استقبلوه استقبالاً حافلاً عند الميناء. على أى حال، فلقد اتفقوا أثناء اجتماعهم أنه يجب التحضير لحفل كبير يُدعى إليه محررو الصحف ومصوروها.

تم أيضًا إرسال دعوة إلى هيئة الإذاعة النيچيرية؛ لكى تقوم بتغطية الحدث، ولكى تسجل حفلة الأوركسترا الخاصة بسيدات أوموفيا، وهى الأوكسترا التى كانت تقوم بالتدريب على مجموعة من الأغانى.

أقيمت الحفلة ذات مساء سبت الساعة الرابعة فى مكان فى شارع مولونى، حيث كان الرئيس يشغل غرفتين.

كان الجميع يرتدون أفضل ما لديهم (فيما يُطلق عليه أجياد بالنيچيرية)، أى الملابس الأوروبية، فيما عدا ضيف الشرف الذى حضر، وهو يرتدى قميصًا لكى يتغلب على حرارة الجو. كان هذا هو الخطأ الأول الذى وقَع فيه أوبى، فقد توقع الجميع أن شابًا قد رجع لتوه من إنجلترا أن يكون قد تحول.

بعد إقامة الصلاة تلَا سكرتير الاتحاد خطاب الترحيب، وقام ثم تنحنح ثم بدأ يتلو من ورقة ضخمة.

«خطاب الترحيب مُقدم إلى مايكل أوبى أوكنكو الحاصل على الليسانس بمرتبة الشرف من جامعة لندن من موظفى وأعضاء اتحاد أموفيا التقدمى بمناسبة عودته من المملكة المتحدة؛ بحثًا عن أمل بعيد المنال. سيدى، نحن موظفىالاتحاد السابق ذِكْرُه وأعضاءه نقدم بكل تواضع وامتنان تذكارًا يعبر عن تقديرنا لكل نبوغك الأكاديمى غير المسبوق...».

تحدث عن الشرف الكبير الذى جلبه أوبى لمدينة أموفيا العتيقة، والتى يمكنها من الآن أن تنضم إلى المدن الأخرى فى زحفهم نحو التطور السياسى، والعدالة الاجتماعية، والتحرر الاقتصادى.

«إن أهمية أن يكون أحد أبنائنا موجودًا فى مقدمة مسيرة التقدم لا يعْدو كونه ضربًا من الحكمة. هناك مقولة يرددها أهالينا ما يخصنا خاص بنا جميعًا، ولكن ما يخصنى يخصنى وحدى». إن كل مدينة وقرية تكافح وتناضل فى هذه الحِقبة الفاصلة فى تطورنا السياسى؛ لكى نمتلك ما يجعلنا نستطيع أن نقول «هذا يخصنى» نحن نسعد اليوم بأن لدينا كَنزًا ثمينًا يتمثل فى شخص هذا الابن اللامع، وضيف الشرف العزيز».

قام برصد وسرد تاريخ خطة البعثات الخاصة بأموفيا التى أتاحت لأوبى أن يدرس بالخارج، وأطلق عليه وصف الاستثمار، الذى ولابد أن يعطيهم مردودًا سخيًا، ثم أشار بطريقة خفيّة للغاية بالطبع إلى الاتفاق الذى بموجبه كان يتوقع من المستفيد مِن هذا المشروع أن يقوم بتسديد الديْن على مدى أربع سنوات؛ حتى يتمكن طابور طويل من الطلبة أن ينهلوا من نبع المعرفة العميق.

وغنىّ عن القول،إن هذه الخطبة كانت كثيرًا ما تقاطعها هتافات الحاضرين وتصفيقهم. أجمع كل الحاضرين أن سكرتير الاتحاد شاب يتميز بالذكاء الحاد، وأنه يستحق أن يذهب

بنفسه هو أيضًا إلى إنجلترا، وكان يستخدم اللغة الإنجليزية بالمفردات التى يحبونها، وإن لم يكونوا يستوعبونها تمام الاستيعاب، نوع اللغة نفسها التى تملأ الفم مثل التشبيه المجازى «لحم جاف»، ولكن لغة أوبى كانت على النقيض من ذلك غير مؤثرة إطلاقًا.

كان يستخدم لغة تراعى قواعد النحو الرصين. تحدث إليهم عن قيمة التعليم «إن التعليم جُعل ليقدم خدمةً وليس من أجل الوظائف المكتبية والمرتبات المحترمة. إن بلادنا العظيمة، وهى على أعتاب الاستقلال، تحتاج لرجال مستعدين لخدمتها بجدية وإخلاص».

عندما انتهى من الخطبة جلس وصفق الحاضرون؛ تأدبًا من باب المجاملة. وكان هذا هو الخطأ الثانى.

بعد ذلك، تم تقديم البيرة الباردة والمياه المعدنية والنبيذ المستخرج من النخيل وكذلك البسكويت، ثم بدأت النساء فى الغناء عن أموفيا وعن أوبى أوكنكو– الذى سافر إلى بلاد الرجل الأبيض. ظلوا يرددن هذا المقطع الذى يقول إن قوة الفهد تكمُن فى مخالبه.

سأل رئيس الاتحاد أوبى (بينما كانت الموسيقى تعزف) «هل أعطوك الوظيفة؟» فى نيجيريا كانت الحكومة دائمًا ما يُشار لها بكلمة «هم»، لم يكن هناك استخدام لكلمة «أنت» أو «أنا». كانت الحكومة كائنًا غريبًا، وكان دور الناس أن يحصلوا منهم على أقصى ما يستطيعون دون الدخول فى مشاكل.

رد أوبى عليه «لا، ليس بعد. سوف تُجرى مقابلة شخصية لى يوم الاثنين».

قال نائب الرئيس الواقف على يسار أوبى «بالطبع، الناس مثلُكم الذين حصلوا على قدر كبير من التعليم والثقافة، لن يجدوا أى صعوبة فى الحصول على الوظيفة، وإلا لكنتُ قد اقترحت عليك أن تسعى للحصول على واسطة أحدهم».

رد عليه الرئيس بقوله «لم يكن هذا بالأمر الضرورى؛ حيث إن هؤلاء الذين كنت قد تسعى لهم سوف يكونون على الأرجح رجالاً بيضًا».

«هل تظن أن الرجال البيض لا يأخذون رشاوى؟ تعال إلى القسم الخاص بنا. إنهم هذه الأيام يطلبون رشاوى أكبر من الرجال الملونين».

بعد حفل الاستقبال أخذ جوزيف أوبى لتناول العشاء فى مطعم «غابة النخيل أو بالم جروف». كان مكانًا صغيرًا أنيقًا، ولم يكن مكانًا يقصده أهل لاجوس مساء السبت؛ حيث كانوا ينشدون مكانًا أكثرَ حيوية، وكان هناك أشخاص قليلون– تقريبا: اثنا عشر من الأوروبيين، وثلاثة أفريقيون.

«مَن يمتلك هذا المكان؟».

قال جوزيف: «أعتقد أنه سورى. إنهم يمتلكون كل شىء فى لاجوس».

جلسَا على إحدى الموائد الشاغرة فى أحد الأركان، ثم لاحظا أنهما كانا يجلسان مباشرة تحت مروحة سقف، فجلسا على مائدة أخرى، وكانت الأضواء الخافتة تنبعث من مصابيح ضخمة، بينما كانت الحشرات تتراقص حولهم بشدة. من المحتمل ألا يكونا قد لاحظا أن كل مصباح يحتوى على عدد ضخم من جثثِ حشراتٍ كانت مثل تلك التى تتراقص الآن، قد تراقصت من قبل.

صاح جوزيف بلهجة آمِرة «يا نادل!» وفى الحال ظهر النادل وهو يرتدى جاكتًا وبنطلونًا أبيض، وحزامًا وطربوشًا أحمرَ. سألَ أوبى «ماذا تريد أن تأكل؟».

كان النادل واقفًا ينتظر وهو منحنٍ للأمام.

«فى الحقيقة أنا لا أظن أننى أريد أن أشرب أى شىء آخر».

«كلام فارغ. ما زال أمامنا اليوم بطوله، اليوم ما زال فى أوله. ما رأيك فى بيرة باردة».

استدار ناحية النادل ونادى «اثنين بيرة هاينكن».

«كلا. كلا. واحدة فقط تكفى. دعنا نشترك فى واحدة».

ولكن جوزيف عاد مرة أخرى يقول «اثنين هاينكن»، فذهب النادل إلى البار وسرعان ما عاد بصينية فوقها زجاجتان.

«هل يقدمون طعامًا نيچيريًا هنا؟».

اندهش جوزيف من السؤال؛ ذلك لأن كل المطاعم المحترمة لم تكن تقدم طعامًا نيچيريًا «هل تريد أن تأكل طعامًا نيچيريًا؟».

«بالطبع، كنت أتوق بشدة لأكل شوربة الأوراق المرة، في إنجلترا كنا نعوّض ذلك باستخدام السمولينا، ولكنها لم تكن المذاق نفسه».

«سوف أطلب من خادمي أن يعدّها لك مساء الغد».

صاح أوبي ووجهه يبتهج بابتسامة واسعة «يا رجل يا طيب!» ثم أضاف قائلاً بالإنجليزية (حتى يفهمها مجموعة الأشخاص الأوروبيين الذين كانوا يجلسون على الطاولة الملاصقة لهم) «أنا مللت للغاية من البطاطس المسلوقة» وعندما نطق كلمة «مسلوقة» أكد عليها، ليؤكد مدى التقزز الذى كان يشعر به.

أمسكتْ يدٌ بيضاء الكرسيَّ الذى يجلس عليه بشدة، فاستدار بسرعة ليرى أنها كانت المديرة العجوز، وقد أمسكت بالكراسى حتى تتوازن فى مشيتها المهتزة. لا بد وأنها كانت قد تجاوزت السبعين، إن لم تكن فى الثمانين. كانت تعبر الصالة وهى تمشى مثل الطفل الصغير حتى وصلت إلى الحاجز الخشبى، ثم حضرت مرة أخرى وهى تحمل كوبَ لبن يهتز فى يدها.

سألت «مَن ترك المنفضة هنا؟» وهى تشير بإصبعها إلى قطعة قماش صفراء على الأرض.

قال النادل الذى وجهت إليه الكلام «أنا لا أعرف».

صاحت بصوت أجشّ «خذها بعيدًا». كانت فى محاولتها لإعطاء الأوامر قد نسيت موضع كوب اللبن، مالت قبضتُها غير المتزنة، فسَالَ اللبن على ثوبها الجديد. اتجهت ناحية

مقعد فى الركن، وغاصت فى مقعدها، وهى تئِنّ وتزمجر كأنها آلة قديمة قد أصابها الصدأ من طول تركْها تحت مياه المطر. لابد أن هذا كان ركنها المفضل؛ ذلك لأن القفص الخاص ببغائها كان معلقًا فوقه مباشرة، بمجرد أن جلست برز البَبْغاء من القفص على قطعة من الحديد، ثم أخفض نيله وأطلق برازًا بالكاد أخطأ السيدةَ. قام أوبى قليلاً من مقعده حتى يرى الفضلات على الأرض، إلا أنه لم يكن هناك أى أثر لها، وكان كل شىء منسقًا تنسيقًا رائعًا، وكانت هناك صينية بجانب الكرسى الذى تجلس عليه السيدة شبه ممتلئة بالفضلات المبللة.

قال أوبى «لا أعتقد أن شخصًا سوريًا يمتلك هذا المكان».

«إنه إنجليزى».

تناولوا مشويات مشكّلة، قال عنها أوبى إن طعمها لم يكن سيئًا للغاية. إلا أنه لا يزال يضرب أخماسًا فى أسداس لماذا لم يعرض جوزيف عليه المبيت عنده كما فعل قبل أن يغادر إلى إنجلترا؟ وبدلاً من ذلك كان اتحاد أموفيا التقدمى قد قام بتجهيزات على نفقتهم الخاصة؛ لكى يبيت فى فندق ذى مستوى متواضع يمتلكه نيجيرى، على مشارف مدينة يابا.

«هل وصلك آخر خطاب أرسلته لك من إنجلترا؟».

أجاب جوزيف بالإيجاب، قائلاً إنه بمجرد أن وصله الخطاب تناقش فى محتوياته مع المسئول التنفيذى للاتحاد، وتوصلوا للرأى أنه يجب حجز مكان لمبيته بطريقة ملائمة فى فندق. وكما لو أنه يقرأ ما يدور برأس أوبى، قال:

«كما تعلم أنا لدىّ غرفة واحدة فقط».

رد عليه أوبى «لا بأس! سوف أترك غرفة الفندق الكئيبة، وسآتى إلى بيتك».

ظهرت معالم الدهشة على وجه جوزيف، إلا أنه كان سعيدًا للغاية، وكان يحاول أن يثير اعتراضًا آخر، إلا أنه كان من الواضح أنه لم يكن مقتنعًا.

«ماذا عسى أهالى المدن الأخرى أن يقولوا عندما يسمعون خبرَ أنَّ أحدَ أبناء أموفيا قد عاد من إنجلترا تَشَارَك شخص آخر فى غرفته أو بالنِّد؟».

«دعهم يقولون ما يتراءى لهم».

تناولا الطعام فى صمت لمدة قصيرة، ثم قال أوبى «ما زال أمام شعبنا الكثير لكى ينجزه ويقوم به»، وفى الوقت نفسه، بينما كان يقول ذلك كان جوزيف قد بدأ فى قول شىء ما، إلا أنه توقف.

«نعم، كنت تقول شيئًا ما».

«كنت أقول إننى أؤمن بالقدر».

«فعلاً؟ لماذا؟».

«هل تتذكر السيد آنان، أستاذنا بالمدرسة، كان دائمًا ما يقول إنك سوف تسافر إلى إنجلترا. كنت آنذاك صغيرًا جدًا دائمًا ما يسيل المخاط من أنفك، ولكن فى نهاية كل فصل دراسى كنت تتفوق على جميع أقرانك. هل تتذكر أننا كنا نطلق عليكَ «القاموس؟»».

شعر أوبى بالحرج الشديد؛ لأن جوزيف كان يتحدث بأعلى صوته.

«فى الواقع ما زال أنفى يفعل ذلك، يقال إن السبب هو حُمّى القش».

قال جوزيف «وأيضًا، قمت بكتابة خطاب لهتلر».

ضحك أوبى إحدى ضحكاته العالية النادرة «ما زلتُ أتساءل ما الذى دهانى، ما زلت أفكر فى هذه المواضيع فى بعض الأحيان. ما الذى كان يعنيه هتلر لى، أو ما الذى أعنيه أنا لهتلر؟ أعتقد أننى أشفقت عليه، كما أننى لم أكن أحب أن أقوم بأى مجهودات تحت شعار كسب الحرب». وفجأة أصبح جادًّا «إلا عندما نتوقف لكى نفكر فى هذا الأمر، فقد كان أمرًا غيرَ أخلاقى من جانب الناظر أن يقول للأطفال الصغار كل صباح إن كل ثمرة نخيل يقومون بجمعها فكأنهم يشترون مسمارا لنعش هتلر».

ذهبًا مرة أخرى إلى الصالة. كان جوزيف على وشك طلب المزيد من البيرة، إلا أن أوبى رفض بشدة.

من موقعه حيث جلس، كان باستطاعة أوبى أن يشاهد السيارات وهى تمر فى برود ستريت، توقفت سيارة ماركة دى سوتو De Sotto أمام المدخل مباشرة ثم دخل شاب وسيم إلى البَهو. استدار الجميع ليلقوا عليه نظرة ثم امتلأ المكان بهمسات خافتة حينما بدأ كل شخص فى الهمس للشخص المجاور، ليقول له إن هذا الشخص هو وزير دولة.

همس جوزيف «هذا سعادة الوزير سام أوكولى» إلا أن أوبى فجأة أصبح كأنه أصيب بصاعقة من جراء الحملقة فى السيارة دى سوتو وهى قابعة فى مكان شبه مظلم.

كان سعادة الوزير سام أوكولى أحدَ أكثر السياسيين شعبية فى لاجوس، وفى شرق نيچيريا، حيث مقر دائرته الانتخابية. أطلقت عليه الصحف لقب «أكثر الرجال أناقة فى لاجوس، وأكثر العزاب ملاءمة للزواج» على الرغم من أن عمره كان بالقطع أكثر من ثلاثين عامًا، فإنه كان يبدو مثلَ صبى قد أتم دراسته المدرسية لتوه. كان طويلاً ذا قَوام رياضى، ترتسم على ملامحه ابتسامة مضيئة يوزعها على الجميع. اتجه ناحية البار، وقام بشراء علبة بيرة تشيرشمان، وطوال هذه الفترة كان نظر أوبى مثبتًا على الشارع بالخارج؛ حيث كانت كلارا مسترخيةً فى السيارة. كان قد لمحها لمحة خاطفة. ربما لم تكن هى على الإطلاق. عاد الوزير مرة أخرى إلى السيارة، وبينما كان يفتح باب السيارة أضاء الضوء الخافت الداخلى المقاعد الوثيرة. لم يكن الآن هناك مجال للشك. كانت هى كلارا.

«ما الأمر؟».

أجاب أوبى «لا شىء. فكل ما فى الأمر أنى أعرف هذه الفتاة».

«فى إنجلترا؟».

هز أوبى رأسه.

«يا الله يا سام! إنه لا يترك أى فتاة دون أن يقيم علاقة معها».

الفصل الخامس

كان أوبى يؤمن بأن الجهاز الحكومى فى نيچيريا سوف يظل وَكرًا للفاسدين، حتى يتم استبدال بالأفارقة العواجيز الموجودين على رأس النظام آخرين من الشباب خريجى الجامعات، وكان قد قام بصياغة تلك الفكرة لأول مرة فى بحث ألقاه أمام اتحاد الطلبة النيـچيريين فى لندن. ولكن، وخلافًا لمعظم النظريات التى كوّنها الطلبة فى لندن، فإن هذه النظرية استمرت وظلت صامدةً أمام الصدمة الأولى بعد عودته لنيـچيريا. فى الحقيقة؛ فإنه بعد عودته بشهر قابل أوبى مثالَيْن تقليديين للأفريقى القديم.

قابله أول مثال فى لجنة تابعة للجهاز الحكومى؛ حيث كان يبحث عن وظيفة، ولحسن حظ أوبى كان قد ترك انطباعًا حسنًا لدى اللجنة قبل أن يتسبب هذا الرجل فى أن يخرِجه عن شعوره.

الذى حدث أن رئيس اللجنة، الذى كان رجلاً إنجليزيًّا سمينًا مرحًا، مُولعٌ بالشعر الحديث والرواية الحديثة، وكان يستمتع بالحديث عنهما. أما الأعضاء الأربعة الآخرون فقد كان أحدهم أوروبيًّا والثلاثة الآخرون أفارقة لم يكونوا على دراية بهذا الجانب من الحياة، فقد ترك فيهم انطباعًا حسنًا. أو ربما كان الأحرى بنا القول وبطريقة محددة للغاية إن ثلاثة منهم كانوا منبهرين بأدائه، أما الرابع فقد كان نائمًا طوال المقابلة، وقد يبدو هذا الأمر إذا نظرنا إليه بطريقة سطحية أنه أمر غير ذى بال وغيرِ مهم إذا لم يكن هذا السيد الممثل الوحيد لأحد الأقاليم من مجموع ثلاثة أقاليم تمثل نيـچيريا (ومن أجل صالح نيـچيريا وحده فسوف يظل اسم الإقليم محجوبًا).

تراوح حديث رئيس اللجنة مع أوبى بين جراهام جرين الكاتب الروائى البريطانى الشهير إلى الحديث عن توتولا، وهو أمر استغرق تقريبًا نصف الساعة. قال أوبى بعد ذلك إنه قال الكثير من الهُراء. ولقد اندهش حتى من نفسه عندما بدأ يتدفق فى الحديث.

«لقد ذكرت أنك معجب أشد الأعجاب بجراهام جرين، ما رأيك إذن فى روايته «حقيقة الأمر؟»».

«إنها الرواية العاقلة الوحيدة التى كتبها أى أوروبى عن غرب أفريقيا، وإحدى أفضل الروايات التى قرأتها» توقف أوبى ثم أضاف قائلاً كما لو أن خاطرًا جديدًا قد خطر له «الشىء الوحيد الذى أجده سلبيًا فى الرواية وأرى أنه قد دمرها تقريبًا، هو النهاية السعيدة».

اعتدل رئيس اللجنة فى جِلسته متسائلاً:

«نهاية سعيدة؟ هل أنت متأكد أنك تتحدث عن رواية «حقيقة الأمر؟» ذلك لأن ضابط الشرطة الأوروبى يقوم بالانتحار».

«ربما كان تعبير النهاية السعيدة تعبيرًا مبالغًا فيه، ولكنه لم يكن لدىّ طريقة أخرى للتعبير عما أريده. ضابط الشرطة كان ممزَّقًا بين حبه لسيده وحبه لله، ولذلك انتحر. الأمر بهذا الشكل يبدو بسيطًا بطريقة مبالغ فيها.

إن المأساة ليست بهذه الطريقة أبدًا. أتذكر رجلاً طاعنًا فى السن فى قريتى كان قد اعتنق المسيحية، وعانى من مصيبة تِلو الأخرى. كان دائمًا ما يقول إن الحياة تشبه وعاء مملوءًا بالديدان يتجرعه المرء رَشفةً صغيرةً بعد الأخرى فى عالم بلا نهاية. هذا الشخص كان يفهم معنى المأساة».

تساءل رئيس اللجنة «هل تعتقد أن الانتحار يدمر التأثير التراجيدى؟».

أجابه أوبى بقوله «نعم؛ ذلك لأن التراجيديا الحقة لا تنتهى بحلول، فهى تستمر دون أمل إلى ما لا نهاية، أما التراجيديا التقليدية فهى بسيطة للغاية؛ البطل يموت ونشعر

بالحزن والتطهر الذى يحدثه هذا الحزن، فالتراجيديا الحقة تَحْدُث فى ركن فى مكان غير ممهد وغير أنيق كما يقول الشاعر أودن. أما باقى العالم؛ فإنه غير مدرِك لما يحدث فى هذا الركن، مثل هذا الرجل فى رواية «حفنة من التراب» الذى يقرأ روايات ديكنز للسيد تود، فبالنسبة له لا توجد حلول أو مخرج، وعندما تنتهى الرواية فإنه لا يزال يقرأ. لا يوجد تطهير للأحاسيس بالنسبة لنا؛ لأننا لا وجود لنا».

علق الرئيس بقوله «يا للتحليل الممتع!» ثم نظر فى كل اتجاهات المائدة، وسأل بقية الأعضاء إذا ما كانت لديهم أية أسئلة للسيد أوكنكو، فأجاب الجميع بالنفى، فيما عدا الرجل النائم.

سأل الرجل النائم «لماذا تنشد وظيفة فى الجهاز الحكومى؟ حتى تتمكن من الحصول على الرشاوى؟».

تردد أوبى، كان أول خاطر يخطر بباله أن يقول إن هذا سؤالاً غبى، ولكنه بدلاً من ذلك قال «لا أعرف كيف تتوقع منى أن أجيب عن هذا السؤال، وحتى إذا كان السبب لدىّ هو الحصول على الرشوة، فأنا بالطبع لن أعترف بهذا أمام اللجنة، فلذلك لا أعتقد أنه سؤال مفيد».

«الأمر ليس متروكًا لك لتقرر ما الأسئلة المفيدة يا سيد أوكنكو» قال الرئيس محاولاً دون جدوى أن تظهر عليه ملامح الصرامة والجدية «على أى حال، فسوف نتصل بك قريبًا».

لم يكن جوزيف سعيدًا للغاية عندما أخبره أوبى بقصة اللقاء. وكانت وجهة نظره أنه عندما يكون المرء فى حاجة إلى وظيفة؛ فإنه لا يملك رفاهية أن يغضب.

صاح أوبى «هذا هراء! هذا ما أطلق عليه العقلية الاستعمارية».

رد عليه جوزيف بلغة الإيبو «أطلق عليها ما شئتَ، فأنت نِلت قدرًا أكبر منى من التعليم، ولكنى أنا أكبر منك وأكثر حكمة، وأستطيع أن أخبرك أنه لا يستطيع أى شخص أن يتحدى رئيسه فى مباراة مصارعة».

قام خادم جوزيف مارك بإحضار أرز وعصيدة، وعلى التو قاما بالتهام الطعام، ثم عبَر مارك الشارع بعد ذلك إلى محلٍ لشراء زجاجتين من الماء المثلج، حاملاً في رحلته ذهابًا وإيابًا هبابًا على طرف أنفه، كانت عيناه تميلان إلى الاحمرار، وتمتلئان بالدموع من أثر النفخ في النار.

بعد أن تناولا الطعام سادت فترة صمت تام، ثم علّق أوبى «هل تعلم أنك تغيرت كثيرًا خلال تلك السنوات الأربع، كان هناك شيئان يثيران اهتمامك؛ السياسة والنساء».

ابتسم جوزيف «إنك لا تستطيع تعاطى السياسة على معدة خاوية».

رد أوبى مرِحًا «اتفقنا. وماذا عن النساء؟ مكثتُ يومين ولم أرَ أى امرأة حتى الآن».

«ألم أخبرك أننى عازم على الزواج؟».

«وماذا في ذلك؟».

«عندما تدفع مائة وثلاثين جنيها مهرًا للعروس وأنت مجرد موظف درجة ثانية، فإنك لا تجد في جُعبتك نقودًا بعد ذلك لكى تنفقها على نساء آخرين».

«هل تعنى أنك دفعت مائة وثلاثين جنيهًا؟ وماذا عن القانون المنظِّم للمهور؟».

«أدى إلى زيادة المهور، هذا كل ما في الأمر».

«خسارة كبيرة، إن أخواتى الثلاثة الأكبر منى سنًا تزوجن مبكرًا جدًا، فلم نتمكن من جنْى الأموال من ورائهن، سوف نحاول أن نتدارك هذا ونعوضه في الأخوات الأخريات».

علق جوزيف بقوله «هذه ليست مادة للتندُّرِ والضَّحِك. انتظر حتى تنوى الزواج، عندئذ فسوف يطلبون منك مهرًا يبلغ خمسمائة جنيه، حيث إنك تعمل في وظيفة محترمة».

«لست في وظيفة محترمة. لقد قلت لتوك إننى لن أحصل على الوظيفة؛ لأنى قلت لهذا الغبى رأيى فيه، وعلى أى حال، سواء كانت وظيفة محترمة أو غير محترمة، فأنا لن أدفع خمسمائة جنيه مهرًا للزوجة، ولا حتى مائة، ولا حتى خمسين».

قال جوزيف «لا يمكن أن تكون جادًا، إلا إذا قررتَ أن تدخل سلك الرهبنة».

بينما كان ينتظر نتيجة المقابلة، قام أوبى بزيارة قصيرة إلى بلدته أموفيا، التى تقع على بعد خمسمائة ميل فى المنطقة الشرقية. لم تكن الرحلة فى حد ذاتها ممتعة.

استقل لورى يحمل اسمًا مضحكًا، وجلس فى «الدرجة الأولى»، والذى كان يعنى أنه سوف يتشارك المقعد الأمامى مع السائق وشابةٍ تحمل طفلاً. أما المقاعد الخلفيةُ فكان يشغلها تجار يسافرون بصفة منتظمة بين لاجوس وسوق أونيتشا الشهير، الذى يقع على ضفة نهر النيجر. كان اللورى مكدسًا لدرجة أن المسافرين لم يجدوا مكانًا لأرجلهم لكى تتدلى فيها، وكانوا يجلسون وأرجلُهم على نفس مستوى مقعدتهم، وركبهم تلامس ذقونهم وكانوا يَبْدون مثل الدجاج المشوى، إلا أنه لم يظهر عليهم أى تبرم أو ضيق، ولكى يقطعوا الوقت قاموا بغناء أغانٍ مرحة وخارجة، وغالبًا كانت موجهة إلى الفتيات اللواتى أصبحن ممرضات أو مدرساتٍ بدلاً من أن يتزوجن وينجبن أطفالاً.

كان سائق اللورى رجلاً هادئًا للغاية، وكان إما أنه يأكل بندق الكولا أو يدخن السجائر. يأكل الكولا لتساعده على اليقظة خاصة فى الليل؛ حيث إن الرحلة بدأت فى ساعة متأخرة من العصر، واستمرت طوال الليل وانتهت فى الصباح الباكر، ومن آن إلى آخر كان يطلب من أوبى أن يشعل ثقابًا ويشعل سيجارة له. فى الحقيقة، كان أوبى هو الذى عرَض أن يقوم بذلك فى الحالة الأولى، إذ أصابه الفزع أن يرى السائق ممسكًا بعجلة القيادة بكوعيْه، بينما كان يبحث عن ثقاب عود.

صاح السائق على حين فجأة عندما كانوا على بعد أربعين ميلاً تقريبًا من عبدان بإنجليزية ركيكة «ها هم الشرطة الملاعين!» لاحظ أوبى وجود رَجُلَىْ شرطة يقفان على جانب الطريق على بعد ثلاثمائة ياردة تقريبًا، وهما يشيران لسائق الشاحنة أن يتوقف.

صاح أحدهما للسائق «أين أوراقك؟» وفى هذه اللحظة تحديدًا لاحظ أوبى أن المقعد الذى كانوا يجلسون عليه كان بمثابة خزينة لحفظ النقود والأوراق المهمة. طلب السائق من المسافرين أن يقوموا، ثم قام بفتح الصندوق وأخرج منه حزمةَ أوراقٍ. نظر رجل الشرطة إليهم بارتياب وسأل السائق «أين رخصة تسيير السيارة للسماح لك بالمرور؟»، وعندها قام السائق بإخراج رخصة المرور.

وأثناء هذه الآونة كان مساعد السائق (التّباع) يقترب من رجل الشرطة الآخر، ولكن في اللحظة نفسها التي كان يهّم بإعطائه شيئًا ما، نظر أوبى فى اتجاههم، لم يكن رجل الشرطة مستعدًا أن يخوض المخاطرة، لأنه حسب إحساسه كان من الممكن أن يكون أوبى رجل مخابرات، ولذلك دفع مساعد السائق (التّباع) بعيدًا عنه، وظهرت على وجهه أمارات امتعاض وسخط شديدين صائحًا «ماذا تريد الآن؟ امشِ!» أثناء هذه الآونة كان رجل الشرطة الآخر قد وجد خطأ ما فى أوراق السائق، وكان يقوم بأخذ كل مستنداته، بينما كان السائق يتوسل إليه ويستعطفه دون جدوى. فى نهاية الأمر، ابتعد السائق بالسيارة بعيدًا أو هكذا بدَا الأمرُ. ولكنه بعد ربع ميل تقريبًا توقف.

وجه السائق سؤالاً لأوبى بلغة ركيكة «لماذا كنتَ تحملق فى وجه الرجل بينما كنت أريد أن أعطيه شلنًا؟».

رد عليه أوبى بقوله «لأنه لا يحق له أن يأخذ منك شلنين».

إلا أن السائق ظل يعترض «لأنه يستطيع أن يجعلنى أتوقف عن حملكم يا مثقفين يا بتوع الكتب. وكمان أنت لا تعرف الأرف اللى ممكن أراه منهم. لماذا تحشر أنفك فى أمور لا تخصك؟ ودلوقت البوليس يقوم يغرّمنى تقريبًا ١٠ شلنات».

إلا أن أوبى لم يدرك سبب توقفهما إلا بعد دقائق عدة. كان مساعد السائق قد عاد أدراجه مسرعًا ناحية رجلىْ الشرطة، لعلمه أنهما سوف يكونان أكثر استعدادًا لأخذ النقود بعيدًا عن عيون الغرباء المتطفلين. سرعان ما رجع المساعد وهو يلهَث من جرّاء الرَّكْض لمسافة طويلة.

سأله السائق «كم أخذوا؟».

قال المساعد وهو يشهق «١٠ شلنات».

قال موجهًا كلامه لأوبى «أرأيتَ؟ كما قلت لك» بدأت تظهر عليه بعض علامات الشعور بالذنب، خاصة أن كل المسافرين الذين كانوا يجلسون فى الخلف عندما علموا بما دار من أحداث، بدأوا فى تحويل دفة الهجوم من الفتيات العاملات إلى الشبان المتعلمين، ولبقية الرحلة لم يوجه السائق أى كلمة بتاتًا إلى أوبى.

تمتم لنفسه «يا له من مكان يعج بالفوضى. من أين للمرء أن يبدأ؟ من جماهير الشعب؟ علّم وثقف الجماهير؟» هز رأسه «لا توجد ثمة أمل فى ذلك، فإن ذلك سوف يستغرق أمدًا بعيدًا. حفنة من الرجال يجلسون على القمة، أو حتى رجل واحد يمتلك رؤية، هذا هو الديكتاتور المستنير. فى زماننا هذا يرتجف الناس من ذكر هذه الكلمة. ولكن أية ديمقراطية تلك التى من الممكن أن توجد جنبًا إلى جنب مع كل هذا الكم الهائل من الفساد والجهل؟ ربما كان من الممكن إيجاد نوع من المواءمة» عندما وصل تفكير أوبى الفلسفى إلى هذا الحد ذكّر نفسه أن حتى إنجلترا كانت تعانى من الفساد منذ فترة وجيزة مضت. لم يكن فى واقع الأمر فى حالة نفسية تسمح له بإثارة جدل فلسفى آخر فى تتابع واستمرار، وكان خياله يتوق أن يسبح فى عالم أكثر جمالاً.

كانت الشابة الجالسة على يساره الآن تغط فى النوم وهى تحتضن طفلها بشدة إلى صدرها. كانت متجهة إلى بنين، وكان هذا هو كل ما يعرفه عنها. كانت بالكاد تتحدث أى كلمة إنجليزية، بينما لم يكن هو يتحدث باللغة البينية. أغمض عينيه متخيلاً أنها كلارا، وكانت ركبتاهما الآن ملتصقتين، إلا أن هذا لم يُجدِ.

لماذا كانت كلارا مصرة على أنه لا يجب إخبار أهله عنها حتى الآن؟ هل من الممكن أنها لم تكن قد حزمت أمرها بعدُ للزواج منه؟ هذا أمر مستبعد، فلقد كانت متشوقة للإعلان عن ارتباطهما ارتباطًا رسميًا مثله تمامًا، ولكنها قالت فقط إنه يجب ألا يكلف نفسه شراء خاتم الخطوبة حتى يحصل على وظيفة. على الأرجح كانت تريد أن تبلغ أهلها أولاً. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كل هذه السرية والغموض؟ لماذا لم تقل ببساطة إنها سوف تستشير أهلها؟ أو ربما لم تكن بالخُبث الكافى كما كان يتخيل، وكانت تستخدم كل هذه الأساليب فى الإثارة؛ لكى تحكم الوثاق عليه بطريقة أكثر. استعرض أوبى كل احتمال، ثم رفضهم واحدًا بعد الآخر.

كلما تقدم الليل أصبح الهواء المتدافع فى أول الأمر باردًا ومنعِشًا، ثم تحول لشديد البرودة. أخرج السائق قبعة متسخة من القماش بُنية اللون من خلال مجموعة الخِرَق التى كان يجلس عليها، ثم قام بوضعها على رأسه، وقامت الشابة من بنين بإعادة ربط غطاء

شعرها لكى تغطى أذنيها، وكان أوبى لديه جاكت (سترة) سبور قديمة قام بشرائها فى أول سنة له فى إنجلترا، كان يستخدمها حتى الآن، لكى يقلل من حدة مسند الظهر، قام بوضعها على ظهره وكتفيه، ولكن كانت الآن قدماه ورجلاه هم فقط الذين يشعرون بالراحة دون أعضائه الأخرى. أصبحت الحرارة المنبعثة من الموتور أقل، وهى التى تسببت فى بعض الضيق وعدم الراحة من قبل من أثر برودة الجو حتى إنها أحاطت رجليه وقدميه بدفء.

بدأ أوبى فى الشعور بالنُّعاس، فاتجهت أفكاره أكثر فأكثر تجاه أمور حسية، كان يردد داخل نفسه كلماتٍ وأفكارًا لم يكن يستطع أن يتفوَّهَ بها بصوت عالٍ حتى عندما يكون بمفرده، ومن الغريب والطريف أنه قال كل هذه الكلمات بلغته الأصلية. كان بإمكانه أن يتفوه بأى كلمة إنجليزية مهما بلغت حد قذارتها، ولكن ببساطة فإن بعض الكلمات بلغة الإيبو لم تكن لتخرج من فمه. بلا شك، فإن التدريب الذى تلقاه فى مرحلة سنية مبكرة هى التى فرَضت عليه هذه الرقابة، فقد تدخلت الكلمات الإنجليزية؛ لأنه كان قد تعلمها فى مرحلة لاحقة من حياته.

استمر أوبى فى حالة تشبه النعاس حتى توقف السائق فجأة على جانب الطريق، ثم فرَك عينيه، وأعلن أنه اكتشف أنه كان يغطُّ فى النوم مرة أو مرتين، وبالطبع كان الجميع مهتمًّا بهذا الأمر، وحاولوا أن يمدوا يد العون.

سأل أحد التجار الجالسين فى الخلف بلغة غير سليمة «أنت لا تأكل بندق الكولا؟».

أجابه السائق بلغة غير سليمة «وماذا كنت آكلاً طوال فترة العصر. أنا لا أشعر أننى على ما يرام– صدقونى، أنا لم أنَم قط ليلة أمس، ولكن هذه لم تكن المرة الأولى التى أفعلها». اتفق الجميع أن النوم كان أكثر الظواهر الطبيعية غير المنطقية.

بعد مرور زُهاء دقيقتين أو ثلاث دقائق فى التحدث فى هذا الموضوع، بدأ السائق مرة أخرى فى الاستمرار فى طريقه مع قطعه الوعودَ وإبداء الإصرار أن يحاول قُصارى جُهْده أن يظل مستيقظًا، أما بالنسبة لأوبى فإن النوم كان قد خاصم جُفونه بمجرد توقف السائقِ، وأصبح ذهنُه صافيًا فجأة كما لو أن الشمس قد أشرقت، وبذلك جففت الندى الذى أصاب ذهنَه.

انطلق التجار مرة أخرى فى الغناء، ولكن فى هذه المرة لم تكن هناك أية كلمات أو أفكار بذيئة فى الأغانى، كان أوبى يعرف الأغنية، وحاول أن يقوم بترجمتها إلى الإنجليزية، ولأول مرة تكشَّفت المعانى الحقيقية له..

ذهب رجل لزيارة صهره

ولكن صهره أمسك به وقتله

أحضر قاربا، أحضر مجدافا

المجداف يتحدث الإنجليزية

كان المعنى الظاهرى لا يدل على أن الأغنية تحمل أى منطق أو معنى، ولكن كلما أمعن أوبى فى معانيها فى ذهنه أصابه الذهول؛ لثراءٍ وكمٍّ ترابط المعانى التى تحملها هذه الأغنية المتواضعة. فبادئ ذى بدء لم يسمع قط ولم يكن من المنطقى قط أن رجلاً قد أمسك بصهره وقتله. فبالنسبة لمنطق الإيبو فإن هذا الفعل يمثل أقصى درجات الخيانة. ألم يقل كبار القوم من الإيبو إن صهر الشخص كان بمثابة إلهه الشخصى الذى يؤمن به؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن ذاك يضيف خيانة أكبر بكثير، فما الأدهى؟ هو الإشارة إلى المجداف الذى يبدأ فجأة فى التحدث بلغة لا يفهمها الصياد وهو السيد لهذا القارب. باختصار إذن، فإن ما خطر على بال أوبى فإن فحوى الأغنية كان فى «العالم فى حالة فوضى كاملة وقد انقلب رأسًا على عقب، فكان سعيدًا بهذا التفسير وبدأ ينقب فى تلافيف عقله عن أغان أخرى يمكن تناولها بالطريقة نفسها. ولكن كانت أصوات التجار تعلو أكثر فأكثر، ويضيفون إليها المشهيات والتوابل، حتى إنه لم يستطع أن يركز أكثر من ذلك.

أصبح الآن السفر إلى إنجلترا أمرًا معتادًا وعاديًا كما لو أن شخصًا يذهب إلى النهر الواقع بالقرية، ولكن منذ خمس سنوات كان الأمرُ مختلفًا، فلقد كانت عودة أوبى إلى قريته بمثابة احتفال. كان بانتظاره سيارة فاخرة عند أونيتشا لكى تقلّه بأسلوب لائق إلى أموفيا، التى تقع على بعد خمسين ميلاً. ولكن قبل أن يبدأوا رحلة العودة كان لديه بضع دقائق لكى يلقى نظرة على سوق أونيتشا الكبير.

كان أول شيء يسترعي انتباهه وجود عربة جيب تنطلق منها موسيقى عالية محلية من خلال أجهزة ميكروفونات. تمايل رجلان يجلسان في السيارة على أنغام الموسيقى، كما فعل آخرون كثيرون في هذه المجموعة الكبيرة التي اجتمعت حولَهم، وكان أوبى يتساءل عن مغزى هذا المشهد عندما توقفت الموسيقى فجأة، أمسك أحد الرجال بزجاجة عاليًا حتى يتمكن الجميع من رؤيتها، وكانت تحتوي على «مزيج الحياة الطويلة» كما قال هو، وبدأ يقول للناس المحتشدين عن هذا المزيج، وبالأحرى فإنه لم يقل إلا القليل جدًّا عنه، ذلك لأنه كان من المستحيل أن يعدّد أو يذكر كل المزايا الرائعة الخاصة به. أحضر الرجل الآخر دفتر فواتير، ثم قام بتوزيع الورق على الحشد الذى كان يبدو أن معظمهم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة، وأعلن لهم «هذه الورقة سوف تحدثكم عن مزيج الحياة الطويلة»، وكان من الواضح للغاية أنه إذا كان هناك ثمة شيء مكتوب على الورق عن هذا المزيج، فإنه لا بد وأن يكون حقيقيًّا. أمسك أوبى بإحدى تلك الأوراق وقرأ قائمة الأمراض، وكان أول ثلاثة منهم «الروماتيزم، والحمى الصفراء، وعضة الكلب».

على الجانب الآخر من الطريق وبالقرب منه، جلست نِسوة في صف يبعن حبوب الجارى من أوعية مصقولة بيضاء كبيرة، وعند ذلك ظهر شحاذ، لا بد وأنه كان معروفًا، فقد ناداه أناس كثيرون باسمه، ربما كان أيضًا به مَسٌّ من الجنون. كان اسمه «الطريق الوحيد»، ويحمل وعاءً مصقولاً ثم بدأ يمر على الصف، عندئذ بدأت النسوة فى الطرق بمبسم السجائر الفارغة مُحدِثين إيقاعًا منتظمًا، وعندئذ كان يرقص «الطريق الوحيد» على إيقاعه، بينما يتلقى حفنة من الجورى فى الوعاء بيده من كل واحدة منهن، وعندما بلغ آخر الصف كان قد تلقى ما يكفى لكى يُشبِعَ جَوْعه لوجبتين مشبعتين.

اصطفت جَوْقة موسيقية على بعد ميلين على طريق أوموفيا- أونيتشا فى انتظار مَقدِم أوبى. كانت هناك على الأقل خمس مجموعات مختلفة، إذا ما استبعدنا الفرقة النحاسية الخاصة بمدرسة أوموفيا كان يبدو كما لو أن القرية بكاملها تحتفل. أما بالنسبة لهؤلاء الذين لم ينتظروا على طول الطريق، خاصة كبار السن، فقد كانوا يتوافدون بأعداد غفيرة فى مجمع أوكنكو السكنى.

المشكلة الوحيدة كانت تكمن فى أنها يمكن أن تُمطر. فى الواقع؛ فإن أناسًا كثيرين كانوا أشبه ما يكونون يتمنَّوْن لو أن السماء تمطر بغزارة حتى يظهرَ لإيزاك أوكنكو أن اعتناقه للمسيحية قد أدى إلى عمى بصيرته. كان الرجل الوحيد الذى لم يستطع أن يدرك أن فى مناسبة مثل تلك؛ فإنه يتعين عليه حمل خمر النخيل وديك وحفنة من النقود إلى جالب المطر الرئيسى فى أموفيا.

قال أحد الرجال «إنه ليس المسيحى الوحيد الذى صادفناه فى حياتنا، ولكن هذا الأمر بمثابة احتساء خمر النخيل، فبعض الناس يمكنهم احتساءه ويظلون فى كامل وعيهم، أما البعض فإنه يفقد وعيه».

أجابه رجل آخر «هذا صحيح، هذا صحيح، عندما تصل بدعة جديدة إلى بلاد الرجال ذوى العقول الخاوية؛ فإنهم يفقدون صوابهم فى التو انبهارًا بها».

فى هذه اللحظة نفسها تحديدًا، كان إيزاك أوكنكو قد انهمك فى نقاش عن طريقة لجلب المطر مع أحد الرجال العجائز الذى كان قد حضر للاحتفال معهم.

تساءل الرجل العجوز «ربما قد تودّ أن تقول لى إن بعض الرجال لا يستطيعون أن يرسلوا الرعد على أعدائهم».

قال لهم السيد أوكنكو «إن الإيمان بهذا الأمر هو محض جنون وأفكار هلامية».

قال معلقا «ما قام به الشيطان فى عالمنا هذا لَهُو عمل عظيم حقًّا، لأنه هو الوحيد الذى يمكنه وضع هذه الأفكار القميئة الفظيعة فى عقول الرجال».

كان الرجل العجوز ينتظر على أحرّ من الجمر؛ لكى ينتهى من كلامه ثم قال:

«أنت لستَ بغريب على أموفيا، ووثيقَ الصلة بها، ولقد سمعت كبار السن يقولون إن الرعد لا يمكنه أن يقضى على أحد أبناء أموفيا. هل سمعت عن أن أى شخص سواء فى الماضى أو الحاضر قد قُضى عليه بهذه الطريقة؟».

اضطر أوكنكو أن يعترف أنه لم يسمع عن أى شخص حدث له هذا الأمر.

قال «ولكن هذا قضاء الله».

رد الرجل العجوز عليه قائلاً «بل إنه عمل أسلافنا».

«لقد أقاموا نظامًا قويًا ناجعًا لكى يحموا أنفسهم، وليس أنفسهم فقط، ولكنه امتد لكل ذريتهم من بعدهم، وإلى الأبد».

أمّن على كلامه رجلٌ آخر «كلام مضبوط، هذا حقيقى وإنكار هذا الأمر لن يجدى، دعهم يذهبون لسؤال نوكيكى كيف أصابه الرعد العام الماضى، سقط جلده كلُه عن جسده كأنه جلد ثعبان، ولكنه لم يلقَ حتفه».

سأله أوكنكو «ولكن لماذا أصيب أساسًا؟». لم يكن من المفروض أن يصاب بالرعد أبدًا».

«هذا أمر يخصه، ولكنك يجب أن تعلم أنه أصيب فى مباينو وليس فى بلدته. قد يكون الأمر أن الرعد عندما رآه فى مباينو اعتقد أنه رجل من مباينو».

كانت فترة الأربع سنوات فى إنجلترا قد ملأت أوبى بشوق جارف للعودة إلى أموفيا، وكان هذا الإحساس فى بعض الأحيان من القوة بمكان حتى إنه وجد نفسه خجلاً من دراسة الإنجليزية لنيل درجته العلمية، وكان يتحدث لغة الإيبو كلما سنحت له أدنى فرصة لذلك، ولم يشعر بأقصى درجات السعادة إلا عندما كان يقابل طالب علم يتحدث الإيبو فى إحدى حافلات لندن، ولكنه عندما كان يضطر للتحدث بالإنجليزية مع طالب نيچيرى ينتمى لقبيلة أخرى، كان يُخفِض صوته، كان أمرًا مهينًا أن يضطر للتحدث لأحد أبناء قومه بلغة أجنبية، خاصة فى حضور أصحاب هذه اللغة الذين يتيهون فخرًا بها، وكانوا من الطبيعى أن يستنتجوا أن الآخرين لا يمتلكون لغة خاصة بهم، وتمنى لو أنهم كانوا هنا اليوم لكى يَشهدوا أمورًا كثيرة. دعهم يأتون إلى أموفيا الآن لكى يستمعوا لحديث الرجال الذين جعلوا الحديثَ متعةً فى حد ذاته. دعهم يأتون ليروا رجالاً ونساءً وأطفالاً يعرفون كيف يعيشون، وأن الاحتفاء بالحياة لم يُقتل بداخلهم إلى الآن، حتى من هؤلاء الذين يدعّون أنهم يعلمون أممًا أخرى فن الحياة.

كان هناك مئات الأشخاص يحضرون الاحتفالية بأوبى، فمن جهة كان طاقم التدريس والطلبة فى مدرسة أموفيا المركزية ومعهم الفرقة الموسيقية النحاسية، التى كانت قد انتهت على التو من عزف موسيقى «كلابار العجوز» عزفت الفرقة لحنًا كَنسيًّا قديمًا كان أوبى يغنيه أثناء دراسته المدرسية، إلا أن التلاميذ البروتستانت كانوا يغنون هذه الأغنية بكلمات تناهض القصيدة الكاثوليكية، خاصة فيما يسمى بـ«يوم الإمبراطورية»، عندما كان التلاميذ البروتستانت والكاثوليك يتبارون فى الرياضة.

كانت الأغنية عن ترجمة بالإنجليزية تقول:

«يا آكل البلح، يا أستاذ كاثوليكى رومانى زوجته تبتلع الضفادع ابتلاعًا».

بعد عدد لا يحصى من مصافحة البعض واحتضان آخرين (أربعمائة مصافحة ومائة احتضان) تمكن أوبى أخيرًا من الجلوس لبُرهة قصيرة مع أقارب والده المسنين فى البهو الكبير، لم تكن هناك مقاعد تكفيهم جميعًا، حتى إن كثيرًا منهم جلس على فروة الجديان الموضوعة على الأرض، فى الحقيقة لم يكن هناك فرق بين الجلوس على مقعد أو الجلوس على الأرض؛ لأن هؤلاء الذين جلسوا على المقاعد كانوا قد وضعوا فروة الجدى على المقعد أولاً.

علق أحد الرجال بقوله «لا بد وأن بلاد الرجل الأبيض تبعد عن هنا كثيرًا». كان الكل يعرف أنها بلاد بعيدة جدًّا، ولكنهم أرادوا فقط أن يسمعوها مرة أخرى من فم قريبهم الشاب.

رد عليهم أوبى بقوله «ولكن هذا شىء لا يمكن تحديدُه، فقد استغرقت سفينة الرجل الأبيض ستة عشر يومًا للقيام بالرحلة، أى أربعة أسابيع، وكانت تقام فيها أسواق».

صاح أحد الرجال للآخرين «تخيل ذلك، أربعة أسابيع تقام فيها الأسواق، ولم يكن ذلك فى قارب صغير، ولكن سفينة الرجل الأبيض التى تسير على المياه مثل الثعبان الذى يمرق فى الحشائش».

أجابه أوبى «فى بعض الأحيان ولمدة أسبوع كامل من إقامة السوق لا يمكن رؤية الأرض، لا توجد أرض سواء أمامك أو من خلفك أو على يسارك أو على يمينك. لا يوجد أى شيء سوى المياه».

قال الرجل للآخرين «فقط تخيل هذا الأمر، لا يمكن أن ترى الأرض لأسبوع كامل تهيم على وجهك. فى قصصنا الشعبى لا يمكن أن يصل الإنسان إلى الأرض التى يتهم فيها الأرواح إلا عندما يعبر سبعة أنهار وسبع غابات وسبعة جبال. بدون شك لا بد وأنك قد زرت الأرض التى تهيم فيها الأرواح».

أمَّن رجل عجوز آخر على كلامه بقوله «لا بد وأنك قمت بذلك فعلاً يا بنى» «ثم صاح «أزيك» (وهو يعنى «إيزك)، أحضر لنا بندق الكولا لكى نكسرها ونتعاطاها؛ ابتهاجًا بعودة الصبى».

رد أبو أوبى معترضًا «هذا منزل مسيحى».

رد الرجل مستهزئًا «منزل مسيحى، حيث لا يؤكل بندق الكولا؟»».

رد عليه السيد أوكنكو «نحن نأكل بندق الكولا هنا، ولكنها لا تقدم كقرابين للأوثان».

رد عليه فى سخط وازدراء «لم يذكر أحد أى شيء عن تقديم القرابين. ها هو الطفل العائد من مصارعة الأرواح فى أرض الأرواح، وها أنت تجلس ساكنًا ولا تفعل أى شيء إلا الثرثرة عن المنازل المسيحية والأوثان، أنت تتحدث كأنك رجل قد أسكره احتساء نبيذ البلح» قال الرجل هذا الكلام مشمئزًا وبصوت يشبه فَحيح الأفعى، ثم أخذ فروة الماعز وخرج ليجلس بالخارج.

صاح شخص آخر «ليس هذا يومًا للعراك، سوف أحضر بندق الكولا» ثم أخذ حقيبته المصنوعة من فروة الماعز، التى كان قد علّقها على كرسيه، ثم أخذ يبحث بداخلها، بينما كان يبحث كانت هناك أشياء بداخلها تصطدم بعضها ببعض– مثل الوعاء الذى يشرب فيه، وزجاجة الاستنشاق وملعقة، قائلاً وهو يبحث عن بندق الكولا «وسوف نكسر بندق الكولا بالأسلوب المسيحى الأمثل».

رد عليه أوكنكو بقوله «لا تشغل بالك بذلك يا أوجبوفى أودوجوا، فأنا لا أرفض أن أضع بندق الكولا أمامك. ما أود أن أقوله فقط إنها لن تستخدم بصفتها قربانًا وثنيًا فى منزلى» ثم ذهب إلى غرفة داخلية، وما لبِثَ أن عاد بثلاث من حبات بندق الكولا موضوعةً فى طبق، إلا أن أوجبوفى أودوجوا أصر على إضافة حبة البندق الخاصة إلى الحبات الموجودة بالفعل.

صاح أبوه «يا أوبى، دع الجميع يرى بندق الكولا» كان أوبى قد قام بالفعل ليرى الجميع البندق، بما أنه كان أصغر الموجودين سنًّا فى الغرفة. عندما رأى الجميع ذلك، قام بوضع الطبق أمام أوجبوفى أودوجوا الذى كان أكبر الحاضرين سنًّا. لم يكن مسيحيًا، ولكنه كانت لديه معلومات بسيطة عن المسيحية، ومثله مثل الكثير فى أموفيا، كان يرتاد الكنيسة مرة واحدة فقط أيام الحصاد. كان انتقاده الوحيد للقداس المسيحى أن جمهور الحاضرين بالكنيسة كان لا يُسمح لهم بالرد على الموعظة، وكان أحد الأشياء التى يحبها تصوره خاصة هى مقولة من الكتاب المقدس «كما هو الحال فى البداية فالشىء نفسه يحدث الآن وأبدًا، فى عالم بلا نهاية».

كان كثيرًا ما يردد «مثلما يأتى الإنسان إلى هذا العالم، فسيذهب بالطريقة نفسها، عندما يموت إنسان ذو حيثية، فإن كل هذه الحيثيات سوف تقطع عنه بحيث يرجع حيث جاء، إن المسيحيين على حق وقد أصابوا كبِد الحقيقة عندما يرددون «مثلما كانت البداية، فالشىء نفسه سيحدث فى النهاية».

تناول الطبق، وأطبق ركبتيه معًا ليستخدمهما كأنهما مائدة لوضع الطبق عليها، رفع كلتا يديه، وباطن كفيه لأعلى، ثم قال «اللهم بارك بندق الكولا هذه بحيث عندما نأكله يعود بالفائدة والنفع على أجسادنا بحق يسوع المسيح، كما كانت البداية فسوف يكون الحال فى النهاية. آمين» ردد كل الحاضرين وراءه «آمين» وهنأوا أودوجوا العجوز على أدائه، حتى أوكنكو لم يتمالك نفسه من الانضمام إلى الهتاف.

قال له مقترحًا «لا بد أن تعتنق المسيحية».

رد أودوجوا «نعم، إذا وافقتَ أن ترسمنى كاهنًا».

ضحك الجميع مرة أخرى، ثم اتجه الحديث مرة أخرى تجاه أوبى، أما ماثيو أوجبونا، الذى كان يعمل نجارًا فى أونيتشا، وبالتالى فإنه كان عليمًا ببواطن الأمور، فإنه قال إنهم عليهم جميعًا أن يشكروا الله أن أوبى لم يجلب معه زوجة بيضاء لدى عودته لوطنه.

تساءل أحد الحاضرين «زوجة بيضاء؟» فبالنسبة له كانت هذه فكرة شديدة الغرابة لا يمكن تصديقها.

رد عليه ماثيو موضحًا «نعم، لقد رأيت هذا الأمر بأم عينى».

قال أوبى «نعم، إن الكثير من الرجال السود الذين يذهبون إلى بلاد الرجل الأبيض يذهبون للزواج بزوجات ذوات بشرة بيضاء».

سأل ماثيو «هل تسمع هذا؟ أنا أكرر قولى لك إنى رأيت هذا الأمر بأم عينى فى أونيتشا، المرأة حتى كان لديها طفلان، ولكن ماذا حدث فى نهاية الأمر؟ تركت الطفلين ثم عادت إلى بلادها، ولذلك فأنا أقول إن الرجل الأسود الذى يتزوج امرأة بيضاء يضيع وقته، فبقاؤها معه مثل بقاء القمر فى السماء، وعندما يحين الوقت فسوف ترحل».

قال رجل آخر كان قد سافر للخارج «كلامك صحيح، إن عودتها لبلادها هو ما يهم. فما هو الأهم والأدهى هو ما تقوم به من إبعاده عن أهله وبنى قومه عندما يستقريها المقام فى بلدنا أو بيننا».

قال ماثيو لأوبى «أنا سعيد أنك رجعت لبلدك بأمان».

قال أودوجوا «إنه بحق ابنُ بلده إيجودوا، توجد تسع قرى فى أوموفيا، ولكن إيجودوا هى إيجودوا، مختلفة ولها وضع متميز، نحن لدينا أخطاؤنا، ولكننا لسنا بحال رجالاً تافهين يتلوّنون فينقلبون إلى الأبيض عندما يرون الأبيض، وأسودَ عندما يقابل شخصًا أسود».

ابتهج قلب أوبى اعتزازًا وفخرًا، وصاح:

«إنه حفيد أوجوبوفى أوكنكو الذى تصدى للرجل الأبيض وهو أعزل وبمفرده، ومات وهو فى المعركة. قف!».

وقف أوبى مُنصاعًا.

قال أودوجوا «تفحصه مليًا. كأنى أرى أوجبوفى أوكنكو قد بُعث من جديد. إنه أوكنكو بالضبط، تمامًا».

تنحنح والد أوبى وهو يشعر بالحرج، ثم قال «الموتى لا يعودون للحياة مرة أخرى».

«أنا أقول لك إنه أوكنكو بشحمه ولحمه، كما كانت فى البداية فستكون كذلك فى النهاية». هكذا يقول لك الدِّين الذى تعتنقه.

«هذا الدين لا يقول إن الموتى يعودون».

«قبيلة الإيجودو تربى رجالاً عظامًا» قال أودوجوا (وهو يحاول تغيير مسار الحديث) «عندما كنت شابًّا كنت أعلم بأمر أوكنكو وإيزودو وأبوريكا أوكولو ونوسو» كان يقوم بعدِّ وبإحصاء تلك القبائل على أصابع يده اليمنى وهو يدق على يده اليسرى «كما يوجد آخرون كثيرون عددهم لا يحصى مثل حبات الرمل، من بين آبائهم كنا نسمع أسماء ندو نوسيسى، إيكيدى وأوبيكا وأخاغه إيسويكا– كلهم كانوا عمالقة عظامًا. كان هؤلاء الرجال عظماء فى العصور التى عاشوا فيها. أما اليوم؛ فإن العظمة قد اختلفت فى صفاتها، ولم تعد الألقاب تدل على العظمة، الشيءُ نفسُه ينطبق على الملكيات الزراعية أو الأعداد الكبيرة للزوجات والذرية، العظمة فى زماننا هذا تكمن فى الأشياء الخاصة بالرجل الأبيض، وكذلك فنحن أيضًا قد قمنا بتبديل أولوياتنا وتغييرها، نحن أول قرية من بين القرى التسع التى قامت بإرسال أحد أبنائها إلى بلاد الرجل الأبيض، لقد كانت العظمة دومًا من نصيبنا منذ قديم الأزل، فالعظمة لم تكن قط من صنع الإنسان، فأنت لا تستطيع أن تزرع العظمة كما لو كنت تزرع الذرة أو القمح. مَن ذا الذى قام بزرع شجرة الإيروكو– أعظم شجرة فى الغابة؟ قد تستطيع جمع كل حبات الإيروكو وبذورها من كل أطراف العالم، وتشق باطن الأرض وتضعهم بداخلها، وسوف يكون ذلك بلا فائدة أو طائل؛ فالشجرة العظيمة هى التى تقرر أين ستنمو ولسوف نجدها؛ حيث اختارت أن تكون، وكذلك هو الحال فيما يخص العظمة فى الرجال!».

الفصل السادس

لم تكن عَودة أوبى فى نهاية الأمر بالحدث السعيد الذى طالما حلُم به، كان السبب يعود إلى أمه التى كانت قد بلغت من الكبر عِتيًا وأصبحت فى حالة من الوَهن خلال أربع سنوات لدرجة لم يصدقها، وكان يسمع عن فترات مرضها الطويلة، ولكنه لم يكن يعتقد أن الأمور قد بلغت هذا المدى، والآن وعندما انصرف كل الزوار حضرت إليه واحتضنته، ثم لفّت ذراعيها حول رقبته، وللمرة الثانية اغْرَوْرَقَتْ عيناه بالدموع، ومنذ هذا الحين التفت تعاستها حول عنقه مثل عقد من الأحجار حتى كاد أن يخنقه.

كان أبوه أيضًا كتلة من العظام، على الرغم من أنه لم تكن حالته بالقدر نفسه من السوء مثل أمه، وكان واضحًا لأوبى أنهما لم يكن لديهما القدر الكافى من الطعام ليقيمَ أَوَدَهما، ومن وجهة نظره فإنها كانت فضيحة مدويّة أنه بعد تقريبا ثلاثين عامًا من الخدمة فى الكنيسة أحيل أبوه إلى المعاش براتب يبلغ جنيهين فى الشهر، وكان جزء كبير من هذا المبلغ يعود مرة أخرى إلى الكنيسة نفسها فى صورة مصاريف مدرسية وتبرعات أخرى. وما زال آخر أبنائه الاثنين فى المدرسة، وكلاهما يدفعان المصاريف المدرسية بالإضافة إلى المصاريف التى تدفع للكنيسة.

بقى أوبى وأبوه لفترة طويلة بعد أن غادر الآخرون للخلود إلى النوم، يجلسان فى الغرفة المستطيلة المؤدية للخارج من خلال باب ضخم يتوسط نافذتين، وكان يطلق على هذه الغرفة بيازة فى البيوت المسيحية، وكانت النوافذ وكذلك الباب تُترك مغلقةً حتى لا تشجع الجيران على التوافد والتقاطر المستمر لكى يروا أوبى- وبعضهم فعل ذلك للمرة الرابعة فى اليوم نفسه.

كان هناك مصباح يُستخدَم أثناء العواصف موضوعًا بجانب كرسى يجلس عليه والد أوبى، وكان المصباح خاصًا به يقوم بتنظيف الزجاجة بنفسه، لم يكن ليأتمن أى شخص آخر ليفعل ذلك، وكان عمر المصباح أكبر من عمر أوبى.

كانت حوائط هذه الغرفة قد طُليت بطلاء جديد من الطباشير الرخيص، لم يتسنّ لأوبى حتى هذا الوقت أى لحظة لكى يتجول لمشاهدة كل مظاهر الحب التى أحاطوه بها، وكانت الأرضيات أيضًا قد تم كشْطها، ولكن مع نفس الأعداد الغفيرة التى لا حصر لها على هذه الأرضيات فقد كانت تحتاج أن تكشط مرة أخرى باستخدام الطينة الحمراء والمياه.

فى نهاية الأمر قطع أبوه الصمت.

«يا إلهى، الآن دع عبدك يغادر فى سلام حسبما تقتضى شريعتك».

تساءل أوبى وهو مندهش لاستخدام أبيه هذه النبرة الدينية «ما هذا يا أبى؟».

«كان الخوف كثيرًا ما يعترينى أننى لن أحيا حتى أراك مرة أخرى».

«لماذا؟ تبدو لى فى أحسن صحة كما كنت دوما».

تجاهل أبو أوبى هذه المجاملة الكاذبة، وهو يتابع خيط أفكاره، ثم قال «غدًا سوف نقيم قداسًا فى الكنيسة نحضره جميعًا. وافق القس أن يجعله قداسًا خاصًا بمناسبة رجوعك».

تساءل أوبى «ولكن يا أبى، هل هذا أمر ضرورى؟ ألا يكفى أن تصلى هنا كما صلينا هذه الليلة؟».

رد أبوه بقوله «نعم، هذا أمر ضرورى، إنه أمر حسن أن تصلى فى المنزل، ولكن من الأفضل أن نصلى فى أحد بيوت الله».

جال بخاطر أوبى «ماذا لو تصديتُ له وقلت له: يا أبى، أنا لم أعد أعتقد فى إلهك؟» كان يعلم أنه من المستحيل أن يقوم بذلك، إلا أنه تساءل ماذا سيحدث لو أنه فعل ذلك؟ كان كثيرًا ما يدور فى باله مثل تلك التساؤلات، منذ أسابيع قليلة عندما كان فى لندن كان كثيرًا ما يتساءل ماذا كان سيحدث لو أنه قد وقف وصاح فى وجه عضو البرلمان الناعم، الذى

كان يحاضر طلبة أفارقة عن الاتحاد الفيدرالى فى أفريقيا الوسطى، قائلا «اغرب عنى، أنتم كلكم منافقون أفّاكون!» لم يكن هذا ليكون الشىء نفسه، كان أبوه يؤمن بشدة فى الله، أما عضو البرلمان الناعم هذا فإنه كان منافقًا وأفاكًا.

سأله أبوه «هل كان لديك وقت كافٍ لتتلو صلواتك من الإنجيل عندما كنت هناك؟».

لم يستطع أوبى أن يقول أى شىء إلا الكذب، ففى بعض الأحيان تصبح الأكاذيب أكثر رقة من قول الحقيقة. كان أوبى يعلم جيدًا لماذا سأله أبوه هذا السؤال، فقد تلا أوبى آيات الإنجيل تلك الليلة بصورة سيئة للغاية.

أجابه قائلاً «نعم، فى بعض الأحيان، ولكنه كان الإنجيل المكتوب باللغة الإنجليزية».

رد عليه أبوه بقوله «نعم، نعم، أتفهّم هذا».

كانت هناك فترة صمت طويلة تذكّر أوبى أثناءَها كيف كان وهو طفل يتلعثم وهو يتلو بعض آيات من الإنجيل، كان ينطق بعض الكلمات بطريقة خاطئة تمامًا بحيث تعطى معانىَ غير مرغوب فيها أبدًا، وسَرْعان ما كانت تقاطعه أصوات كثيرة لكى تقوم بتصويب ما ينطقه، كانت أولى تلك الأصوات صوت أخته الصغرى يونيس، التى كانت تبلغ الحادية عشرة، وهى فى الصف الرابع الابتدائى.

تحلقت الأسرة بأكملها حول المائدة الضخمة الموجودة فى البهو، وتم وضع مصباح العواصف فى منتصف المائدة، وكان عددهم يبلغ تسعة؛ أباه وأخاه وأخواته الست وأوبى. عندما ذَكَر أبوه الجزء الذى سوف يتلونه من الإنجيل، شعر أوبى بسعادة وفخر عندما وجد هذا الجزء دون عَناء أو مشقة فى الإنجيل الذى تشاركه مع أخته يونيس، وتليت الصلوات بعد ذلك، وهم مغمضو العينين، ثم بعد أن فتحوا أعينهم تلا كل شخص آية بالتناوب مع الآخرين.

جلست أم أوبى على كرسى منخفض فى الخلف، بينما استلقى أطفالُ بناتِها الصغار الأربعة على بساط ملاصقٍ لكرسيها، كان بإمكانها القراءة، إلا أنها لم تشترك قط فى تلاوة الإنجيل الذى تقوم العائلة بترتيله. كانت تكتفى بالإنصات إلى زوجها والأطفال، كان

هذا هو الحال دومًا على قدر ما استطاع أن يتذكر الأطفال. كانت سيدة تقيّة مؤمنة للغاية، كان أوبى دائمًا ما يتساءل إذا كان الخيار لها هل كانت سوف تفضل أن تقصّ على أبنائها القصص الشعبى الذى كانت أمها قد قصتها عليها من قبل. فى الواقع فإنها كانت تروى لابنتها الكبرى هذه القصص، ولكن كان هذا فى ماضى الزمان قبل أن يولد أوبى، ولكنها توقفت؛ لأن زوجها منعها من أن تقوم بذلك.

وبّخها بقوله «نحن لسنا وثنيين، إن هذه قصص غير مناسبة لأناس يذهبون للكنيسة ويعتنقون المسيحية».

ولذلك؛ فإن حنا توقفت تمامًا عن رواية القصص الشعبى لأطفالها، كانت أمها قد انضمت للكنيسة مع أبنائها بعد أن مات زوجها، وكانت حنا قد كبرت سنًّا، لم يعودوا بعد ذلك «أناس لا يؤمنون بشىء» وانضموا إلى «شعب الكنيسة». كانت الثقة التى تمتع بها المسيحيون الأوائل تبلغ من القوة درجة أنهم أطلقوا على الآخرين «أناس لا يؤمنون بأى شىء»، أو فى بعض الأحيان عندما كان يعتريهم قدر أكبر من الطيبة، فإنهم كانوا يكتفون بأن يطلقوا عليهم لفظ «أهل الدنيا».

لم يكن إيزاك أوكنكو مجرد إنسان مسيحى، ولكنه كان من الإنجيليين. كان السؤال الأول الذى طرح فى حياتهم الزوجية جعل حنا ترى بوضوح المسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقها بصفتها زوجة إنجيلى، وبمجرد أن تفهمت ما هو المتوقع منها قامت بعمله، بل فى بعض الأحيان كان يعتريها حماس أكثر مما لدى زوجها. علّمت أطفالها ألا يتناولوا طعامًا لدى الجيران؛ معللة ذلك بأنهم كانوا يقدّمون قرابين من الطعام للأوثان. كان هذا كفيلاً بأن يبعد أطفالها عن بقية الأطفال من قبيلة الإيبو، حيث كان الأطفال لهم مطلق الحرية أن يتناولوا الطعام أينما أرادوا. فى أحد الأيام أعطى أحد الجيران بعض الطعام لأوبى الذى كان يبلغ حينئذ الرابعة من عمره. هزّ رأسه مثله مثل أخواته الأكبر سنًّا والأكثر حكمةً منه، ثم قال بعد ذلك «نحن لا نأكل أكل الكفار»، وحاولت أخته جانيت أن تغطى فمه بيدها، ولكن بعد فوات الأوان.

ولكن كانت هناك سقطات وانتكاسات فى هذه الحروب الصليبية، وبعد سنة أو اثنتين تقريبا وبعد أن انضم أوبى للمدرسة، حدثت إحدى تلك الانتكاسات، وكان هناك أحد الدروس التى يحبها ويخشاها فى آن واحد، كان هذا الدرس يسمى «الشفوى»؛ فى هذه الحصة كان الأستاذ ينادى على أى تلميذ ويطلب منه أن يقص على التلاميذ الآخرين فى الفصل إحدى القصص الشعبى، وكان أوبى يحب تلك القصص، إلا أنه لم يكن يعرف أيًّا منهم حتى يستطيع أن يرويها، وفى أحد الأيام نادى الأستاذ المعلم عليه ليقف بمواجهة الفصل ويقص عليه إحدى تلك القصص، وعندما خرج من مكانه ووقف فى مواجهتهم اعترتْه رجْفةٌ قوية.

قال وهو يرتجف مبتدئًا بالطريقة التقليدية لبدء أى قصة شعبية «كان يا ما كان، فى أحد الأيام» إلا أن ذلك كان مبلغَ معرفتِه وأقصى ما يعلمُه، ارتعشت شفتاه، ولكن لم يصدر منهما أى صوت، انفجر الفصل فى ضحك واستهزاء، وسَرْعان ما امتلأت عيناه بالدموع، وانهمرت على خداه، بينما كان يأخذ طريقه عائدًا إلى مكانه.

وبمجرد رجوعه للبيت، قصّ على أمه ما حدث، نصحته بالصبر إلى حين يذهب أبوه لاجتماع صلاة المساء.

بعد ذلك بأسابيع عدة نودى على أوبى مرة أخرى، وواجه الفصل بشجاعة وبجسارة، وقصّ إحدى القصص الجديدة التى قصتها أمه عليه، بل أضاف إليها بعض التفاصيل على النهاية، مما جعل الكل ينفجر فى الضحك، وكانت تلك قصة أنثى الفهد الماكرة الخبيثة، التى أرادت أن تلتهم الخراف الصغار أبناء صديقتها القديمة النعجة، وذهبت إلى كوخ النعجة؛ لأنها كانت تعلم أنها قد قصدت السوق، وبدأت فى البحث عن الخراف الصغار، ولم تكن تعلم أن النعجة قد قامت بإخفائهم داخل فروع النخيل الملقى، وفى نهاية المطاف يئست من البحث وأحضرت حجرين لكى تكسر بعض البندق وتأكل قبل أن تبرح المكان؛ لأنها كانت تتضور جوعًا، وبمجرد أن كسرت الثمرة الأولى، قفزت الثمرة تجاه الشجيرات، وانتابها ذهول عظيم، ثم قفزت الثانية ناحية الشجيرات، ثم الثالثة، وأكبرهن لم تقفز ناحية الشجيرات، ولكن، وطبقًا لرواية أوبى؛ فإنها صفعت أنثى النمر على عينيها قبل أن تقوم بالقفز.

«هل قلت إنك ستبقى معنا أربعة أيام فقط؟».

رد أوبى قائلاً «نعم، ولكنى سوف أبذل قصارى جهدى لأعود مرة أخرى خلال عام، يجب علىّ أن أوجد فى لاجوس للبحث عن وظيفة».

علق أبوه متمهلاً «نعم. الوظيفة أولا، فهى أهم شيء. إن الإنسان الذى لا يضمن مكانًا على الأرض لا يجب عليه أن يبحث عن بساط» وبعد برهة استطرد قائلاً «هناك أمور كثيرة يجب أن نتحدث فيها، ولكن ليس هذا المساء. فأنت متعب ومرهق وتحتاج إلى الراحة».

رد أوبى قائلاً «يا أبى أنا لست مرهقًا جدًا، ولكن من الأفضل أن نتحدث فى هذه الأمور غدًا، إلا أنه هناك أمر واحد سوف يبعث فى نفسك الراحة، ولن تكون هناك أى صعوبة أن يكمل جون تلقيه العلم فى هذا المنهج فى مدارس النحو».

«طِبت مساءً يا بنى. باركك الله».

«طبت مساءً يا أبى».

قام بأخذ مصباح العواصف العتيق لينير له الطريق لدى عودته لغرفته وليخلد إلى سريره، وكانت هناك ملاءة بيضاء جديدة للغاية موضوعة على السرير الخشبى القديم، وكانت عليه مرتبة صلبة محشوة بالحشائش، ومما لا شك فيه أن كسوة المخدات بتصميماتها الوردية التى تزيّنها كانت من صنع أستر. صاح أوبى قائلاً «آه يا أستر يا طيبة!» تذكر عندما كان طفلاً صغيرًا وكانت أستر قد أصبحت لتوها مدرّسة. قال الجميع إنها لا يجب أن تُنادى باسم أستر؛ لأنه كان أمرًا يدل على عدم الاحترام، ولكنها كانت لا بد أن تنادى «بالآنسة»، ومنذ هذا الحين أصبحت تُنادى بالآنسة. فى بعض الأحيان كان أوبى ينسى ويناديها أستر، وحينها قالت له تشاريتى «إنه طفل عديم الأدب».

فى هذه الأيام كانت علاقة أوبى بأخواته الثلاث الكبار أستر وچانيت وآجنس على خير وجه، ولكن كانت علاقته بأخته تشاريتى، أخته التى تكبره مباشرة، ليست كذلك، وكان اسم تشاريتى بلغة الإيبو «الفتاة ليست طيبة» واعتادت أن تضربه حتى يصل إلى حد البكاء، إلا إذا كانت أمه على مقربة منهما، ففى هذه الحالة تُرجئ تشاريتى ضربه، وكانت

قوية مثل الحديد تبعث الفزع والذعر فى نفوس الأطفال الآخرين فى ضاحيتهم ليس فقط فى نفوس البنات، ولكن فى نفوس الأولاد.

لم يَنَم أوبى لفترة طويلة بعد أن استلقى على السرير كان يفكر مليًّا فى مسئولياته، وكان من الواضح أن أهله لا يستطيعون أن يعتمدوا على أنفسهم أكثر من ذلك، ولم يعتمدوا قط على معاش أبيه الهزيل، وكان يقوم بزراعة اليام، أمّا زوجته فكانت تزرع نباتًا آخر اسمه كاسافا وجوز اليام، وكانت تقوم بعمل الصابون من مستخرجات النخيل والزيت ثم تبيعه للقرويين مقابل عائد بسيط، ولكنهما الآن أصبحَا طاعنيْن فى السن لا يمكنهما القيام بمثل تلك الأشياء.

«يجب علىّ أن أعطيهما مبلغًا شهريًا من مرتبى» ما مقداره؟ هل يستطيع أن يعطيهما عشرة جنيهات؟ آه لو أنه لم يكن عليه أن يسدد مبلغ العشرين جنيهًا لاتحاد أموفيا التقدمى، وهناك أيضًا مصاريف چون المدرسية.

قال بصوت عالٍ محدثًا نفسه «سوف نتدبر أمورنا بطريقة أو بأخرى. لا يمكن الحصول على كل شىء. هناك شباب كثيرون فى هذا البلد يتمنون لو أتيحت لهم الفرصة للحصول على الفرصة التى أتيحت لى، لكانوا قد ضحوا بالغالى والنفيس للحصول عليها».

عصفَت ريح عاتية بالخارج بصورة فجائية، مما جعل الأشجار الهائجة مصدر إزعاج شديد، وظهرتْ وَمَضات البرق من خلال الشيش، مما كان ينبئ أنها على وشك أن تمطر، وكان أوبى يحب المطر أثناء الليل. ونسى الآن مسئولياته، وركّز تفكيره على كلارا، كم كانت مصدر سعادة لا نهائية له أن يشعر فى تلك الليلة بوجودها معه.

لماذا قالت إنه لا يجب ألا يخبر أهله عنها حتى الآن؟ هل يمكن أن تكون الإجابة عن هذا السؤال أن تكون أنها لم تقرر بعدُ؟ كان يود أن يخبر أمه على الأقل، وكان يعلم أنها سوف تكون محلقة من السعادة؛ لأنها قالت له ذات مرة إنها سوف تكون مستعدة للرحيل عندما تشهد مولد ابنه الأول، وكان ذلك قبل سفره لإنجلترا، لا بد وأن ذلك كان عندما رُزقت أستر بأول أولادها، والآن أصبح لديها ثلاثة، أما جانيت فأصبح لديها اثنان، وآجنس لديها واحد؛ كانت آجنس سوف يكون لديها اثنان لو أن طفلها الأول قد عاش، إنه لأمر مفزع أن

يفقد المرء طفله الأول، خاصة بالنسبة لفتاة صغيرة مثل آجنس، فى الحقيقة لم تكن أكثر من فتاة صغيرة عندما تزوجت– على الأقل كانت فتاة صغيرة فى تصرفاتها. وحتى الآن، لم تكن قد نضجت تمامًا. كانت أمها دائمًا ما تقول لها ذلك. ابتسم أوبى وهو مستلقٍ فى الظلام عندما تذكر الواقعة الصغيرة التى حدثت بعد تلاوة الصلاة منذ ساعة أو اثنتين.

طُلب من آجنس أن تحمل الأطفال الصغار إلى أسِرّتهم، حيث كانوا بالفعل يغّطون فى النوم على الأرض.

قالت أستر «أيقظيهم حتى يتبولوا أولاً، وإلا فسوف يتبولون فى أسِّرتهم».

أمسكت آجنس أول طفل من رسغه وجذبته ليقف.

صرخت أمهم التى كانت تجلس على كرسى منخفض بجوار الأطفال النائمين «آجنس! آجنس! لقد قلت لك دومًا إن رأسك به خلل وعدم اتزان. كم مرة يجب علىّ أن أقول لك أن تنادى على الطفل باسمه قبل أن توقظيه».

استكمل أوبى كلام أمه وهو يمثل أنه فى حالة غضب شديد «ألا تعلمين أنك إذا جذبتيه بشدة وفجأة فإن روحه قد لا تستطيع أن تعود مرة ثانية إلى جسده قبل أن يستيقظ؟».

ضحكت الفتيات. لم يتغير أوبى البتة. كان يستمتع بإغاظتهن، بما فى ذلك أمه التى ابتسمت لهذه الطُرْفة.

قالت «يمكنك أن تضحك إذا كان الضحك سوف يمسك بك، فإنه لن يمسك بى».

قال أوبى «ولهذا، فإن أبانا القس يطلق عليهم اسم العذارى المغفلات».

كانت الأمطار قد بدأت فى الانهمار بمصاحبة الرعد والبرق. فى البداية كانت قطرات المطر الضخمة الكبيرة تنقر على السقف الحديدى، وبدا كما لو أنه قد قُذف من السماء بآلاف الزلط، كل واحدة ملفوفة فى قطعة قماش منفصلة لكى تقلل من وقع الصدمة، تمنى أوبى لو كان الآن وقت النهار حتى يستطيع أن يرى مطرًا مداريًا مرة أخرى، وكان المطر الآن يستجمع قواه ويتحد، فبعد الدقات المستمرة لحبات المطر الضخمة المنفردة أصبح المطر الآن ينهمر انهمارًا بصورة مستمرة.

«لقد نسيت تمامًا أنها من الممكن أن تمطر بهذه الغزارة فى شهر نوفمبر» خطر له هذا الخاطر بينما كان يعيد ضبط قطعة القماش التى تغطى جسده كاملاً، فى الحقيقة كان هذا المطر أمرًا غير معتاد، وبدَا الأمر كما لو أن الألم المهيمن على المياه فى السماء، بعد أن تأكد من مخزونه وبعد أن أحصى الشهور، وجد أنه كان لا يزال هناك مطر كثير لم يُستنفذ، وأنه كان يتعين عليه أن يفعل شيئًا جوهريًّا قبل حلول الموسم الجاف، الذى كان على وشك القدوم.

اعتدل أوبى فى نومه، وراح يغطُّ فى النوم.

الفصل السابع

كان أول يوم عمل لأوبى فى الجهاز الحكومى يومًا مشهودًا لا يُنسى بالقدر نفسه الذى اتسم به أولُ يوم له فى مدرسة الإرسالية فى أموفيا قبل ذلك بزهاء عشرين عامًا، كان الرجل الأبيض فى هذه الأيام نادرَ الوجود فى الواقع، فإن مستر جونز كان ثانىَ رجل أبيض رآه أوبى، وكان وقتئذ يبلغ السابعة. أما أول رجل أبيض فإنه كان رئيس الكنيسة فى النيجر.

كان مستر جونز المفتش على المدارس، وكان الجميع يخافونه فى جميع أرجاء المقاطعة، وكان يقال إنه قد حارب فى حروب القيصر، وإن هذا الأمر قد أثر على عقله، وكان رجلاً ضخمًا، يبلغ طوله أكثر من ستة أقدام، وكان يستخدم دراجة بخارية التى كان دائمًا ما يتركها على بعد نصف ميل تقريبا حتى يستطيع أن يدخل المدرسة دون أية مقدمات، أو إعلان عن قدومه، وكان متأكدًا أنه سوف يقبض على أى شخص وهو متلبس يرتكب مخالفة، كان يزور مدرسة مرة واحدة كل سنتين، وكان دائمًا ما يقوم بعمل شىء ما يظل الناس يذكرونه ويتندرون به حتى زيارته التالية. منذ عامين ماضيين قام بإلقاء صبى من النافذة. والآن أصبح ناظر المدرسة فى مأزق حقيقى، ولم يدرك أوبى قط ماهية هذا المأزق؛ لأن كان كل ما يقال باللغة الإنجليزية. التهب وجهُ مستر جونز غضبًا، بينما كان يذرع المكان جيئة وذهابًا بخطوات واسعة حتى إن فى لحظة ما خيل لأوبى أنه يتجه مباشرة نحوه، وكان ناظر المدرسة، مستر ندوكا، يحاول طوال الوقت أن يشرح شيئًا ما.

زمجر مستر جونز «اخرس!» وأتبعها بصفعة على وجهه. كان سيميون ندوكا أحد هؤلاء الناس الذين اكتسبوا أساليب الرجل الأبيض متأخرًا بعض الشىء فى الحياة، وكان

أحد الأشياء التى تعلمها فى شبابه هو فن المصارعة العظيم فى غمضة عين، كان مستر جونز مطروحًا أرضًا مُلقى على ظهره على الأرض، واضطربت المدرسة واجتاحتها خضم من الفوضى، ودون أن يدركوا السبب أسرع المدرسون والطلبة للفرار، فقد كان إلقاء رجل أبيض أمرًا جللاً مثله مثل الكشف عن أرواح الأسلاف.

كان ذلك منذ عشرين سنة ماضية، أما الآن فإنه لا يوجد إلا عدد قليل جدًّا من الرجال البيض الذين يحلمون مجرد حلم بأن يصفعوا ناظر مدرسة فى مدرسته، ولكن لا يوجد أحد على الإطلاق منهم يجرؤ على فعل ذلك على الإطلاق، وكانت هذه هى مأساة أشخاص مثل ويليام جرين، رئيس أوبى.

كان أوبى قد قابل مستر جرين بالفعل هذا الصباح، وبمجرد حضوره تم اصطحابه لكى يتم تقديمه له، ودون أن ينهض من مقعده أو حتى يمد يده ليسلم عليه غمغم مستر جرين شيئًا، بمعنى أن أوبى سوف يستمتع بالعمل هنا بشرط أولاً ألا يكون خمولاً وكسولاً، وثانيًا أن يكون مستعدًّا للحصول على رغيفه قائلاً «أعتقد أنه يوجد لديك واحد لكى تستخدمه».

بعد ذلك بساعات عدة ظهر فى مكتب مستر أومو؛ حيث كُلف أوبى بالعمل هناك فى هذا اليوم، وكان مستر أومو المساعد التنفيذى، كان قد وضع خبرة تقريبا ثلاثين سنة بين دفتى آلاف الملفات، وإنه سوف يُحال للمعاش، أو هكذا قال بعد أن ينتهى ابنه من دراسة القانون فى إنجلترا. أمضى أوبى يومه الأول فى مكتب مستر أومو، لكى يتعلم بعض الأشياء عن فنون الإدارة.

هبّ مستر أومو واقفًا بمجرد أن دخل مستر جرين إلى مكتبه، وفى اللحظة نفسها كان يضع النصف الآخر من حبات بندق الكولا التى كان يأكلها فى جيبه.

سأله مستر جرين «لماذا لم يقدم لى ملف الإجازات الدراسية؟».

«لقد اعتقدت...».

«أنت لا تحصل على مرتب لكى تعتقد، يا مستر أومو، ولكن لكى تقوم بتنفيذ ما يُقال لك. هل هذا مفهوم؟ والآن أرسل لى الملف فى التو».

«حاضر يا سيدى».

صفَقَ مستر جرين الباب من خلفه، وحمل مستر أومو بنفسه الملف لإعطائه له، وعندما عاد بدأ فى توبيخ موظف صغير كان فيما يبدو السبب فى هذه المشكلة.

قرر أوبى الآن بحزم أنه لا يحب مستر جرين، وأن مستر أومو كان أحد الأفريقيين القدامى، وكما لو أنه ليؤكد وجهة نظره، دق جرس الهاتف. تردد مستر أومو كما كان يفعل دائمًا عندما كان الهاتف يدق، ثم التقط السماعة بخوف كما لو أنها لديها القدرة على أن تعضه.

«آلو. نعم يا سيدى» ثم أعطى سماعة الهاتف لأوبى بينما ظهرت ملامح ارتياح واضح عليه.

«يا مستر أوكنكو، مكالمة لك».

التقط أوبى السماعة. كان مستر جرين يريد أن يعرف ما إذا كان قد وصله عرض رسمى للتعيين. رد أوبى بقوله لا، أنه لم يتلق شيئًا.

«عندما تتحدث إلى رؤسائك فى العمل فلابد أن تقول يا سيدى، يا مستر أوكنكو» ثم أغلق الهاتف محدِثًا ضجة تكاد تصم الآذان.

اشترى أوبى سيارة ماركة موريس أوكسفورد بعد أن استلم خطاب تعيينه بأسبوع. أعطاه مستر جرين خطابًا موجهًا للموزع، ذاكرًا أنه موظف حكومى فى مركز قيادى له الحق أن يحصل على سيارة بالتقسيط، ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من ذلك، ولذلك فإنه دخل المحل وحصل على سيارة جديدة تمامًا.

قبل ذلك فى اليوم نفسه كان مستر أومو قد أرسل إليه لكى يقوم بإمضاء بعض المستندات.

سأل أوبى بمجرد وصوله «أين الختم؟».سأله أوبى فى دهشة «أى ختم تقصد؟».

«أنت حصلت على الليسانس (الإجازة الدراسية) ولكنك لا تعرف أنه لابد من وضع الختم على الاتفاقية؟».

سأله أوبى وهو فى حَيرة بالغة «أية اتفاقية؟».

ضحك مستر أومو ضحكة تنم عن ازدراء شديد، عندما ضحك كشف عن أسنان قبيحة للغاية كساها السواد من أثر السجائر ونبات الكولا، وكانت أحد أسنانه الأمامية مفقودة، وعندما ضحك ظهرت الفجوة كأنها أرض خراب فى منطقة شعبية، وانضم إليه فى الضحك بعضُ الموظفين الصغار، الذين يترأسهم بدافع من إظهار الولاء له.

«هل تعتقد أن الحكومة ستعطيك ستين جنيهًا من غير إمضاء الاتفاقية؟».

حينئذ فقط فهم أوبى ماهية القصة، وكان سوف يحصل على ستين جنيهًا إعانة لشراء ملابس مناسبة.

عندما تحدث أوبى مع كلارا هاتفيًا قال لها «هذا يوم رائع. أنا بحوزتى ستين جنيهًا فى جيبى، وسوف أحصل على سيارتى فى الساعة الثانية».

صرخت كلارا فى سعادة بالغة «هل أطلب سام لأقول له ألا يكلف نفسه بإرسال السيارة هذا المساء؟».

كان سعادة السيد سام أوكولى، وزير الدولة قد دعاهم لاحتساء المشروبات وعرض أن يرسل سائقه لكى يُقلهم، وكانت كلارا تقيم فى ياما مع ابنة خالتها. كانت قد حصلت على وظيفة ممرضة مساعدة على وشك بدء العمل فى خلال زهاء الأسبوع. وبعدها سوف تحصل على مسكن أكثر ملاءمةً، وكان أوبى ما زال يشارك جوزيف فى مسكنه فى أوبالند، ولكنه كان على وشك الانتقال إلى شقة، خاصة بالموظفين الذين يشغلون مناصب حكومة عليا فى إيكوى بحلول نهاية الأسبوع.

كان أوبى مهيئًا نفسيًا لتقّبل سعادة سام أوكولى منذ اللحظة التى أيقن أنه لا يوجد له مطامع فى كلارا، وفى الواقع فإنه على وشك الزواج بعد فترة وجيزة من صديقته كلارا المقربة، وطُلب من كلارا أن تكون الوصيفة الرئيسية للعروس.

صاح سام «تعالى، ادخلى يا كلارا، ادخل يا أوبى». وبدَا كما لو أنه يعرفها طوال حياته «سيارة رائعة. كيف تسير. تعالوا بالداخل. شكلك رائع يا كلارا. لم نتقابل يا أوبى، ولكنى أعرف كل شىء عنك. أنا سعيد أنك سوف تتزوج من كلارا. اجلس. فى أى مكان تشاء. قل لى ماذا تحبون أن تشربوا؟ السيدة أولاً. هذا ما أتى به لنا السيد الأبيض. أنا أحترم السيد الأبيض على الرغم من أننا نريدهم أن يرحلوا. سكواش؟ أستغفر الله! لا يشرب أحد السكواش فى منزلى. يا سامسون، أحضر شراب التيرى للآنسة».

رد سامسون الذى كان يرتدى بدلة بيضاء ناصعة البياض بأزرار نحاسية «حاضر أمرك يا سيدى».

«بيرة؟ لماذا لا تجرب القليل؟ بعضًا من الويسكى؟».

رد أوبى بقوله «أنا لا أحتسى الكحوليات».

رد عليه سام أوكولى «هذا هو الحال مع الكثير من الشباب الآتين من وراء البحار من بلاد بعيدة، فهم يبدأون البداية نفسها. حسنًا يا سامسون، أحضر واحد بيرة، وويسكى وصودا لى».

نظر أوبى حوله متفحصًا غرفةَ المعيشة الفاخرة، وكان قد قرأ عن الجدل الدائر فى الصحف عن قرار الحكومة أن تبنى منازل للوزراء تكلفة الواحد منهم خمسة وثلاثون ألف جنيه.

قال «هذا منزل جميل جدًّا».

رد عليه الوزير قائلاً «ليس سيئًا».

«ويا له من راديو ضخم للغاية!» نهض أوبى من مقعده لكى يذهب ويلقى عليه نظرة فاحصة».

«وبه آلة تسجيل أيضًا» قام سام بهذا الشرح كما لو أنه يقرأ ما يدور بخَلد أوبى، ثم أضاف «لم يكن جزءًا من المنزل. لقد دفعت فيه ثلاثة جنيهات» ثم سار عبر الغرفة وقام بتشغيل المسجّل.

«كيف يروق لك العمل فى مجلس البعثات؟ إذا ضغطتَ على هذا الزر، فإن التسجيل يبدأ، وإذا أردت أن تتوقف فعليك أن تضغط ذلك. هذا الزر هو لتشغيل المسجّل، أما هذا فهو للراديو. إذا كانت لدىّ وظيفة شاغرة فى وزارتى لكنتُ قد وددت أن تعمل معنا». أوقف المسجّل، ثم قام بإعادته ثم ضغط على زر التشغيل العكسى «سوف تسمع الآن كل حوارنا بكل تفاصيله» ابتسم ابتسامةَ رضا بينما كان يستمع إلى صوته وهو يضيف تعليقاتٍ عابرةً بلغة إنجليزية ركيكة.

قال «رجل أبيض لا يذهب بعيدًا. نحن نزعق دون فايدة» ثم وفجأة كأنما تذكّر مذكرة قال «على أى حال، فإنهم لابد أن يرحلوا. هذا بلد لا يخصهم؛ لأنه غير مملوك لهم». قام ليتناول قدحًا آخر من الويسكى، ثم أدار الراديو وجلس. سأله أوبى «هل لديك مساعد سكرتير واحد فقط فى وزارتك؟».

«نعم، فى الوقت الحالى، ولكنى أتعشّم أن أحصل على واحد آخر فىأبريل، وكان لدىّ مساعد سكرتير نيجيرىفى السابق، ولكنه كان مغفلاً، كان رأسه متورمًا مثل قائد النمل؛ لأنه تلقى تعليمه فى جامعة عبدان، أما الآن فلدىّ رجل أبيض تلقى تعليمه فى أوكسفورد ويقول «يا سيدى» عندما يخاطبنى، شعبنا لا يزال لديه الكثير لتعلمه».

جلس أوبى مع كلارا فى المقعد الخلفى، بينما كان السائق الذى استوظفه هذا الصباح براتب شهرى أربعة جنيهات وعشرة شلنات يقلّهم إلى إيكايا التى تبعد تقريبا اثنى عشر ميلاً لكى يتناولا طعامًا خاصًّا على شرف السيارة الجديدة. ولكن لم تكن أى من الرحلة أو الغذاء موفقًا، وكان من الواضح للغاية أن كلارا لم تكن سعيدة، وحاول أوبى دون جدوى أن تتحدث أو يسترضيها.

«ما الأمر؟».

«لا شىء. أنا فقط أشعر بالإحباط، هذا كل ما فى الأمر».

كان الظلام يسود السيارة، وضَع ذراعه حول خصرها وجذبها ناحيته، إلا أنها قالت «أرجوك، ليس هنا».

شعر أوبى بالإهانة، خاصة أنه كان يعلم أن السائق كان قد سمع كل ما دار بينهما.

قالت كلارا وهى تضع يدها بين يديه «أنا آسفة يا حبيبى. سوف أشرح لك بعد ذلك».

«متى؟» سألها أوبى وهو مفزوع من نبرة صوتها.

«اليوم. بعد أن تتناول طعامك».

«ماذا تقصدين؟ ألن تتناولى الطعام معى؟».

قالت إنها ليست لديها شهية للأكل. قال لها أوبى إنه فى هذه الحال لن يتناول الطعام هو أيضًا، فلذلك قررا أنهما سيأكلان، ولكن عندما حضر الطعام، ظلا ينظران إليه على الرغم من أن أوبى عندما بدأ كانت شهيته مفتوحةً للغاية.

كان هناك فيلم يُعرض فى السينما التى اقترحت كلارا أن يشاهدوه، ولكن أوبى رفض معللاً ذلك بأنه يريد أن يعرف ماذا يشغل بالها، ثم ذهبا للتمشية فى اتجاه حمام السباحة.

قبلَ اللحظة التى قابل أوبى كلارا على ظهر سفينة البضائع ساسا، كان أوبى يعتقد أن الحب هو بمثابة اختراع أوروبى مُبالغ فيه. لم يكن الأمر يعنى أنه غير مكترث بالنساء. فعلى النقيض من ذلك تمامًا، فقد أقام علاقات حميمية مع بعضهن فى إنجلترا- فواحدة كانت نيجيرية، وأخرى من جزر الهند الغربية، وفتيات إنجليزيات وأخريات. ولكن هذه العلاقات الحميمية التى اعتقد أوبى أنها تعنى الحب لم تكن بالفعل علاقاتٍ صادقةً أو عميقةً، كان هناك جزء بداخله، وهو الجزء الذى يمثل العقل المفكر، يقف بمعزل عنه خارجَ كل ما يدور، يشاهد الأحداث بازدراء وتشكك. كانت النتيجة أن هذا الجزء عندما يقبل فتاة هامسًا لها «أنا أحبك» بينما نصفه الآخر يقول «لا تكن غبيًا» وكان هذا الجزء الثانى هو دومًا المنتصر فى نهاية الأمر عندما تنتهى العلاقة، مؤدية إلى إحساس سخيف.

أما علاقته بكلارا فكانت مختلفة تمامًا منذ البداية، ولم يكن هناك قط نزعة أسمى أو أعلى. تحثُّ أوبى مرتديةً قناع التوجيه والإرشاد.

«أنا لا أستطيع أن أتزوجك» قالتها فجأة، بينما كان يحاول أن يقبّلها تحت شجرة المانجو العالية على حافة حمام السباحة، ثم انفجرت فى البكاء.

«أنا لا أفهمك يا كلارا» وفى الحقيقة كان بالفعل لا يفهمها. هل كان ذلك من بين ألاعيب المرأة حتى تحكم قبضتها عليه؟ ولكن لم تكن كلارا من هذا الصنف، فلم تكن بها خَصلة التدلل، على الأقل لم يكن هناك قدر كبير من الدلال، وكانت هذه إحدى الخصائص التى يحبها فى كلارا، وكانت تبدو واثقة من نفسها حتى إنها (على عكس النساء الأخريات) لم تفكر فى الوسيلة التى بدأت بها العلاقة.

قال بصوت نجح فى ألا يبدو فيه أى توتر، وعلى سبيل الإجابة ألقت بنفسها عليه، وبدأت فى البكاء وهى تضع رأسها على كتفه.

«ماذا بك يا كلارا؟ قولى لى، صارحينى» لم يكن يعتريه الآن أى اضطراب، ولكن حلت بدلاً منه دموع مكتومة تُستشف من صوته.

قالت من خلال دموعها «أنا من الأسو» ثم أعقب ذلك فترة صمت، توقفت عن البكاء، ثم وبهدوء أطلقت يدها منه. وعلى الرغم من ذلك لم يقل شيئًا.

قالت بحزم بل بنبرة مرحة وإن كانت مفزعة «وهكذا ترى أننا لا يمكن أن نتزوج» كانت دموعها هى الشىء الوحيد الدال على بكائها.

رد أوبى عليها «كلام فارغ!» لم يكن أوبى يتكلم، بل يصيح بأعلى صوته كما لو أنه يودّ بصياحه هذا أن يمحو لحظاتِ الصمت التى سادت بينهما، حينما بدت الأمور أن كل شىء بينهما قد توقف فى انتظارٍ لا جدوى منه أن يتكلم.

كان جوزيف يغط فى النوم عندما عاد أوبى إلى المنزل، وقد جاوزت الساعة منتصف الليل، وكان الباب مغلقًا، ولكنه لم يكن موصدًا، فتسلل داخلاً إلى المنزل، إلا أن صوت الأزيز الصادر من الباب كان كفيلاً بأن يوقِظ جوزيف. قبل أن يخلع أوبى ثيابه بدأ فى قص ما حدث لجوزيف.

«كان هذا بالضبط ما أردت أن أسألك عنه. كنت أفكر كيف يتأتى أن تظل مثل تلك الفتاة الطيبة والرائعة دون أن تتزوج حتى الآن» كان أوبى الآن يخلع ملابسه وهو شارد الذهن.

«على أى حال، فأنت محظوظ؛ لأنك عرفت منذ البداية. لم يحدث أى مكروه حتى الآن».

قال جوزيف ذلك دون أن يكون لكلامه مغزى أو هدف واضح، ولاحظ عندئذ أن أوبى لم يكن ملتفتًا لكلامه.

قال أوبى له «سوف أتزوج كلارا».

«ماذا؟» صرخ جوزيف وهو يجلس فى سريره.

«سوف أتزوجها».

قال جوزيف وهو يقفز من سريره، بينما كان يلف غطاء السرير حول وسطه «انظر إلىّ!» كان الآن يتحدث بالإنجليزية «أنت تعرف ما هو فى الكتب، ولكن ليس هذا بالأمر الذى تجده مكتوبًا فى دفتى الكتب، هل تعلم ما الأوسو osu؟ ولكن كيف يتأتى لك أن تعرف؟» فى الواقع لخص هذا السؤال المختصر حقيقة أن نشأة أوبى فى مدارس الإرسالية، وكذلك تعليمه الأوروبى قد جعلا منه غريبًا داخل وطنه— وكان هذا أكثر الكلام إيلامًا ممكنًا توجيهه إلى أوبى.

رد عليه أوبى بقوله «أنا أعرف عنه أكثر منك أنت! وسوف أتزوج الفتاة. أنا لم أسع لآخذ موافقتك».

خطر لجوزيف أن أفضل سبيل هو أن يتوقف عن الكلام فى هذا الأمر فى الوقت الحالى، ثم خلد إلى نوم عميق مرة ثانية.

شعر أوبى أنه أحسن حالاً بعد أن أحس شعورًا بالارتياح، وأنه أكثر ثقة بنفسه للقرار الذى اتخذه، خاصة بعد أن واجه أول المعارضين لهذا القرار والذى سوف يتلوه المئات بلا

شك. ربما لم يكن قرارًا بالمعنى الصحيح حتى الآن، لأن بالنسبة له لم يكن هناك إلا اختيار واحد. كان أمرًا بمثابة الفضيحة ومريعًا أن فى منتصف القرن العشرين يُمنع رجل من الاقتران بفتاة لمجرد أن جد جد جد جد جدها (أو جدها الأكبر من أربعة أجيال) كان مكرسًا لخدمة آلهة، وبهذا يضع نفسه بمعزل من قبيلته، وبذلك تسبب فى أن يجعل أحفاده طائفة محرمة حتى نهاية الزمان. أمر لا يصدق! والآن يواجهه رجل متعلم يقول لأوبى إنه لا يفهم. غمغم وهو يستلقى بجوار جوزيف «ولا حتى أمى ممكن أن تثنينى عن قرارى».

فى منتصف الساعة الثانية فى اليوم التالى اتصل بكلارا تليفونيًا، قائلاً لها إنهما سوف يذهبان إلى كينجزواى لشراء خاتم الخطوبة.

لم تصدر منها إلا كلمة واحدة «متى؟».

«الآن. الآن».

«ولكنى لم أقل إننى...».

«لا تضيعى وقتى. فأنا لدىّ عمل كثير أقوم به، وأيضًا ليس لدىّ خادم حتى الآن، وكذلك أحتاج لشراء أدوات المطبخ».

«نعم بالطبع، ففى الغد سوف تنتقل للعيش فى شقتك الخاصة بك، ولقد كدت أنسى ذلك».

استقلا السيارة متجهين إلى محل الجواهرجى فى كنجزواى، واشتريا خاتمًا بعشرين جنيهًا، والآن انخفض المبلغ العظيم الذى كان يبلغ ستين جنيهًا انخفاضًا كبيرًا ليصل إلى قرابة الأربعين جنيهًا.

سألت كلارا «ماذا عن الإنجيل؟».

«أى إنجيل؟».

«لكى يتماشى مع الخاتم. ألا تعلم عن هذا الأمر؟».

لم يكن أوبى يعلم. ذهبًا إلى المكتبة وقاما بشراء إنجيل أنيق صغير موضوع فى كيس بـ«سوستة».

قال أوبى «كل شىء فى هذه الأيام يستخدم السوستة».

أمضيًا طوال العصر بشراء حاجاتهما، فى أول الأمر كان أوبى مهتمًا قدر اهتمام كلارا نفسه بشراء أدوات المطبخ، ولكن بعد مرور ساعة لم يتم شراء أى شىء إلا طاسة صغيرة، فقَد أوبى الشعور بالاهتمام وبالإجراءات، وظل يجرى وراء كلارا مثل الكلب المطيع، فهى قد تعترض على إناء من الألومنيوم فى المحل، وتمشى كل شارع برود ستريب الطويل لكى تشترى الإناء نفسه بالسعر نفسه، وكان دائمًا ما يسألها «ما الفرق بين هذا الإناء والآخر الذى رفضته سابقًا؟».

فكانت ترد عليه قائلة «الرجال عديمو الملاحظة».

عندما عاد أوبى مرة أخرى إلى غرفة جوزيف كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة، وكان جوزيف مازال مستيقظًا، فى الحقيقة كان منتظرًا طوال المساء لكى يكمل المناقشة التى تم تعليقها الليلة السابقة.

سأله جوزيف «كيف حال كلارا؟» نجح فى أن يجعل سؤاله يبدو كأنه عفوى، ولم يكن أوبى مستعدًا لكى ينغمس مباشرة فى هذه المناقشة. كان يريد أن يبدأ من الأطراف كما كان يفعل دومًا منذ سنوات عديدة عندما كان يواجه بحمام الصباح فى موسم الشتاء البارد، وكان أقل مكان فى جسده حبًا للمياه هو ظهره، وكان يقف أمام الوعاء المحتوى على المياه، مفكرًا عن الكيفية المثلى للتعامل معه، وكانت أمه تنادى عليه «أوبى، ألم تنته بعدُ؟ سوف تتأخر على المدرسة، وسيقوم المدرس بضربك» كان حينئذ يُقَلب المياه بأحد أصابعه، بعد ذلك كان يقوم بغسل رجليه ثم كل ساق حتى الركبة على حِدة، ثم الذراع حتى الكوع، ثم باقى الذراع والساق، ثم الوجه والرأس، والبطن، ثم فى نهاية المطاف يقوم بسكْب الماء على ظهره وهو يقفز فى الهواء. كان يريد أن يقوم بالأسلوب نفسه الآن.

رد على جوزيف قائلاً «هى بخير. إن الشرطة النيچيرية تتصرف بقدر كبير من البجاحة، كما تعلم».

رد عليه جوزيف قائلاً «إنهم عديمو الفائدة» وكان هذا الرد المقتضب؛ لأنه لم يشأ أن يناقش أمر الشرطة.

«طلبتُ من السائق أن يقلّنا إلى شارع فيكتوريا بيتش،وعندما وصلنا هناك كان الجو باردًا لدرجة أن كلارا رفضت أن تبرح مكانها، فلذلك ظللنا فى المقعد الخلفى لنتحدث».

سأله جوزيف «وأين كان السائق؟».

«ذهب للتمشية لمسافة قصيرة لكى يلقى نظرة على الفنار». وعلى أى حال، لم نمكث هناك أكثر من عشر دقائق عندما وقفت سيارة شرطة بمحاذاتنا، وقام أحدهم بإنارة كشاف النور المبهر، ثم قال «مساء الخير يا سيدى» فرددت عليه «مساء الخير»، ثم عاد فقال «هل هى زوجتك؟» ظللت متمالكًا نفسى وقلت «كلا» ثم عاد مرة أخرى ليقول «استلقطتها منين؟» لم أستطع تمالك نفسى، فانفجرت فيه. طلبت منى كلارا بلغة الإيبو أن أنادى السائق لكى نرحل عن هنا. اختلفت تصرفات رجل الشرطة فجأة، فقد كان هو أيضًا من الإيبو، قال إنه لم يكن يعلم أننا من الإيبو. قال أيضًا إن هناك رجالاً كثيرين هذه الأيام مغرمون بزوجات الرجال الآخرين لاصطحابهم إلى الشواطئ. تخيل أن هذا يحدث! «استلقطتها منين؟».

«وماذا فعلتَ بعد ذلك؟».

«ابتعدنا. لم يكن باستطاعتنا أن نبقى أكثر من ذلك، على فكرة، نحن الآن مخطوبان، لقد أعطيتها خاتم الخطبة هذا المساء».

قال جوزيف بنبرة تشوبها المرارة «حسنًا جدًا» استغرق فى التفكير لوهْلة ثم سأل أوبى «هل سوف تتزوج على الطريقة الإنجليزية أم هل ستطلب من أهلك أن يفاتحوا أهلها حسب التقاليد؟».

«حتى الآن لم أقرر بعد. هذا يعتمد على ما سوف يقوله أبى».

«هل تحدثتما بهذا الأمر خلال زيارتك لهم؟».

«كلا؛ لأنى حينئذ لم أكن قد قررت بعد».

قال جوزيف «إنه لن يوافق. قل لكل الناس إنى قد قلت ذلك، وإن هذا هو رأيى».

رد أوبى قائلاً «أنا يمكن أن أتعامل مع هذا الموضوع، خاصة مع أمى».

«انظر إلىّ يا أوبى» كان من عادة جوزيف دائمًا أن يطلب من الناس أن ينظروا إليه» ما سوف تفعله لا يعنيك أنت وحدك، ولكن يخص عائلتك بأكملها وكذلك الأجيال القادمة. إذا تلوث إصبع بالزيت فإنه يلوث الآخرين، وفى المستقبل عندما نصبح متحضّرين فإن أى شخص له مطلق الحرية أن يتزوج من أى امرأة يريدها، ولكن للأسف لم يأتِ هذا الوقت حتى الآن، فنحن الذين ننتمى إلى هذا الجيل مجرد رواد».

«مَن هم الرواد؟ الذين يمهّدون الطريق للآخرين. هذا ما أقوم به الآن، وعلى أى حال، فإن الوقت قد فات لتغيير أى شىء».

رد جوزيف قائلاً «كلا لم يفت الوقت. ماذا يعنى خاتم خطبة؟ لم يتزوج آباؤنا بخاتم خطبة. الوقت لم يفت لتغيير الوضع. تذكر أنك الشخص الوحيد فى أموفيا الذى تلقى تعليمه بالخارج. نحن لا نريد أن نكون مثل الطفل البائس الذى تنبت له أول سِنّة فى فمه وتكون هذه سنّة فاسدةً. ما نوع التشجيع الذى سوف تبعثه فِعلتك هذه فى نفوس أهل أموفيا الفقراء الذين قاموا بجمع النقود لك؟».

بدأ إحساس الغضب يجتاح أوبى «تذكر أنها كانت مجرد سلفة، وسوف أقوم بتسديدها بالكامل».

كان أوبى يعلم تمام العلم أن عائلته سوف تعترض بشدة على فكرة زواجه من فتاة من الأوسو. مَن عساه ألا يعترض؟ ولكن فكرة الزواج بالنسبة له كانت تعنى إما كلارا أو لا امرأة غيرها، وكان يحترم العلاقات الأسرية إلى أبعد مدى ما دام لا يتعلق الأمر بكلارا، وخطر بباله «لو استطعت فقط أن أُقنع أمى، فسوف يكون كل شىء على ما يرام».

كانت هناك رابطة ووشيجة خاصة بين أوبى وأمه دونًا عن أولادها الثمانية الآخرين، كان أوبى أقربَهم إلى قلبها، وكان جيرانها ينادونها باسم «أم چانيت» حتى وُلِدَ أوبى، ثم على التو أصبحت «أم أوبى». إن الجيران لديهم غريزة لا تخطئ فى هذه الأمور، وعندما كان أوبى طفلاً كان يعتبر هذه العلاقة أمرًا مفروغًا منه. ولكنه عندما قارب العاشرة فى العمر حدث شيء على هذه العلاقة أحدث شكلاً ملموسًا فى مخيلته الصغيرة، وكانت لديه شفرة موسى يعلوها الصدأ يستخدمها لسنّ أقلامه الرصاص، أو فى بعض الأحيان لكى يقوم بتشريح الصراصير، وفى أحد الأيام نسى هذه الشفرة داخل جيبه، مما أدى إلى قطع يد أمه بصورة فظيعة عندما كانت تقوم بغسيل ثيابه على قطعةِ حجرٍ فى النهر. رجعت والملابس ما زالت متسخة غيرَ مغسولة ويدها تقطر دمًا، لسبب ما عندما كان أوبى يفكر بحب وحنان فى أمه كان خياله وعقله دائمًا ما يسترجع مشهد يدها التى تقطر دمًا، وكان هذا كفيلاً بارتباطه الوثيق بها.

عندما حدّث نفسه بأنه «لو استطعت فقط أن أقنع أمى» كان فى حالة شبه يقين أنه سوف يستطيع ذلك.

الفصل الثامن

اعتاد اتحاد أموفيا التقدمي، فرع لاجوس، أن يعقد اجتماعه الشهري أول سبت من كل شهر، ولم يحضر أوبي اجتماع شهر نوفمبر؛ لأنه كان يقوم بزيارة أموفيا في هذا الوقت، فلذلك قام صديقه جوزيف بتقديم اعتذار أوبي.

انعقد الاجتماع الثاني يوم الأول من ديسمبر ١٩٥٦، وتذكر أوبي هذا التاريخ؛ لأنه كان يوما مشهودًا في حياته، وكان جوزيف قد اتصل به تليفونيًّا في مكتبه لتذكيره بأن الاجتماع سوف يبدأ الساعة الرابعة والنصف، ثم سأله «هل ستنسى أن تمرّ عليّ؟».

رد عليه أوبي «بالطبع لا، سوف أمر عليك في الرابعة».

«ممتاز! أراك لاحقًا» كان من عادة جوزيف أن يغلّف كلامه بنبرة تعطي انطباعًا بالأهمية عندما يتحدث تليفونيًّا، ولم يكن يتحدث بلغة الإيبو أو باللغة الإنجليزية الركيكة التي يتحدث بها في هذه الأحوال. ثم عندما يضع سماعة الهاتف كان يقول لزملائه بلغة إنجليزية ركيكة «ده مش أخويا. رجع من بلاد بره من قريب. ليسانس بمرتبة شرف في الأدب اليوناني». كان دائمًا يفضل أكذوبة «الأدب اليوناني» على حقيقة «الأدب الإنجليزي» فقد كانت ذات تأثير سحري على السامعين.

سأله أحد الحاضرين «هو بيشتغل في أي قسم؟».

«سكرتير المجلس الخاص بالبعثات».

«هو حيهّلب فلوس كتير هناك. كل تلميذ عاوز يروح إنجلترا لازم يفوت على بيته يعطيه حاجة».

رد عليهم جوزيف «هو مش كده خالص. هو واحد محترم. مش بتاع رشوة وحاجات من دى».

رد آخر غير مصدق ما سمعه «مش ممكن اللى بتقوله».

فى تمام الساعة الرابعة والربع وصل أوبى بسيارته الجديدة ماركة موريس أوكسفورد، وكانت هذه أحد الأسباب التى دعت جوزيف أن يتطلع لهذا الاجتماع تحديدًا؛ لأنه كان سوف يستمتع بإحساس الفخر والزهو وهو بداخل السيارة، ولَكَم تكون هذه مناسبة عظيمة لاتحاد أوموفيا التقدمى أن يصل أحد أبناء الاتحاد لحضور الاجتماع وهو يركب سيارة سبور، وكان جوزيف بصفته صديقًا مقربًا لأوبى سوف يعكس بعضًا من هذا الفخر والزهو، وكان مرتديًا أفضل ثيابه وأفخرها لهذه المناسبة: بنطلون رصاصى من قماش الفانلة، وقميص أبيض نايلون، ورابطة عنق سوداء ذات نقط وحذاء أسود. وعلى الرغم من أنه لم يعبر عن أفكاره بالكلمات، فإنه شعر بالإحباط عندما رأى أوبى يرتدى ثيابًا غير رسمية، وأراد فى الواقع أن يكون طرفًا فى الإحساس بالزهو الذى أحدثته السيارة، ولكنه لم يهتم عندما أطلق المثل الشعبى «الغريب الذى كان يبكى بحرقة أكثر من أهل المتوفى» كان أهلُ أوموفيا معتادين أن يطلقوا مثل تلك التعليقات الساخرة التى تثير الحرج.

كان رد الفعل الذى أثاره هذا الاجتماع أفضل بكثير مما توقعه جوزيف، وعلى الرغم من أن أوبى كان قد وصل إلى منزل جوزيف الساعة الرابعة والربع، فإن جوزيف قام بإرجاء خروجهم حتى الساعة الخامسة حتى يكون عدد الموجودين فى الاجتماع قد اكتمل، وكانت غرامة التأخر عن الحضور پنى (قرشًا) واحدًا، ولكن ما قيمة هذه الغرامة بالمقارنة مع إحساس الفخر الذى سوف يعتريه عندما يفتح الباب خارجًا من السيارة على مرأى ومسمع من أوموفيا؟

وكما اتضح بعد ذلك لم يهتم أحد بموضوع الغرامة، وصفقوا وهتفوا ورقصوا عندما رأوا السيارة وهى تتوقف أمامهم.

صاح أحد الرجال المسنين «تحيا أوموفيا».

رد الجميع فى صوت واحد «تحيا! تحيا!».

«تحيا أموفيا».

«تحيا! تحيا!».

«تحيا!».

«نعم! تحيا!».

أُعطى أوبى كرسيًا بجوار الرئيس، وكان يتعين عليه الردُّ على عدد لا يُحصى من الأسئلة متعلقة بوظيفته وسيارته قبل أن يستأنف الاجتماع جدول أعماله.

من إحدى تلك المهام النظر فى أمر جوشوا أودو، الساعى فى مكتب البريد، وقد تم طردُه؛ لأنه كان ينام أثناء تأدية عمله، وطبقًا لروايته فإنه لم يكن ينام ولكنه يفكر، ولكن رئيس الموظفين كان يبحث عن وسيلة للثأر منه، حيث إنه لم يكن قد أكمل دفع الرشوة المتفق عليها، والتى تبلغ عشرة جنيهات مقابل تعيينه فى الوظيفة، وكان جوشوا الآن يطلب من أهل بلدته أن «يستدين» منهم مبلغ عشرة جنيهات لكى يبحث عن وظيفة أخرى.

كان الحاضرون على وشك الموافقة على هذا القرار عندما حضر أوبى، ليتوقف الكلام، وكان الرئيس يقوم بتوبيخ جوشوا بشأن النوم أثناء تأدية العمل. مقدمة أو ديباجة ضرورية لإقراضه من الميزانية العامة.

وبّخه قائلاً «أنت لم تترك أموفيا على بعد أربعمائة ميل لكى تحضر إلى لاجوس لكى تغط فى النوم. هناك المئات من الأسرة التى يمكنك النوم عليها فى أموفيا، وإذا لم ترغب أن تعمل، فيمكنك الرجوع إلى أموفيا. أنتم يا سعاة البريد كلكم تتصرفون بالطريقة نفسها. لدىّ أحد السُّعاة يعمل فى مكتبى وهو دائمًا ما يطلب الإذن للذهاب إلى دورة المياه. على أى حال، نحن سوف نتخذ قرارًا بالموافقة على منح سلفة مقدارها عشرة جنيهات للسيد جوشوا أودو لكى... لكى.. لكى.. الغرض المحدد هو أنه يسعى لإعادة توظيفه». قال الرئيسُ آخرَ جملة باللغة الإنجليزية بسبب طبيعتها القانونية، وتمت الموافقة على القرار.

ثم، بعد ذلك وعلى سبيل التخفيف من وطأة هذا الكلام، داعب أحدهم الرئيس لقوله إن العمل فقط هو الذى دعاهم للحضور أربعمائة ميل إلى لاجوس.

قال الرجل «إنها النقود، وليس العمل، لقد تركنا خلفنا الكثير من العمل فى بلدتنا... يمكن لأى شخص يحب العمل أن يعود أدراجه إلى بلدته ويحمل معداته، ثم يذهب إلى تلك الأحراش الضارة التى تقع ما بين أوموفيا ومابينو. وهذا العمل سوف يستغرقه حتى آخر أيامه». اتفق المجتمعون أن النقود وليس العمل هو الذى أتى بهم إلى لاجوس.

قال الرجل العجوز الذى كان قد حيّاهم تحية عسكرية لأموفيا وأهلها «دعونا من هذا التهريج. جوشوا الآن بلا عمل. ونحن قد منحناه عشرة جنيهات، ولكن العشرة جنيهات هذه ليست لديها القدرة على الكلام. وإذا ما وضعنا مائة جنيه هنا حيث أقف، فإنها أيضًا لن تتكلم. ولهذا فنحن نقول إن الإنسان الذى لديه إحساس بالناس أغنى بكثير من الشخص الذى لديه مال. كل واحد هنا منا يجب أن يبحث عن وظائف شاغرة فى المكان الذى يعمل فيه»، ثم يتحدث بالحسنى، ويمتدح جوشوا، ووافق الحاضرون على هذا الكلام بالتصفيق.

استكمل الرجل حديثه قائلاً «شكرًا للإله فى السماوات العلا، فنحن الآن لدينا أحد أبنائنا يشغل أحد المناصب المهمة فى الحكومة، ولن نطلب منه أن نتشارك معه فى راتبه، ولكنه يستطيع مساعدتنا فى أمور بسيطة مثل هذه، وسوف نقترف خطأ إذا لم نطلب منه ذلك. هل نقتل ثعبانًا ونحمله بين أيدينا فى حين أننا نمتلك كيسًا لوضع الأشياء الطويلة به؟» وبعد أن قال هذه الحكمة جلس على كرسيه.

قال الرئيس «كلامك حكيم وحسن جدًا، نحن نفكر فى الأشياء نفسها ولدينا الأفكار نفسها، ولكننا يجب أن نمنح هذا الشاب وقتًا كافيًا لكى يكتشف طبيعة الأمور أولاً». ظهر دعم الحاضرين لرأى الرئيس عن طريق الهمسات والهمهمات، قائلين «امنحوا الشاب وقتًا كافيًا»، «دعوه يستقر أولاً» شعر أوبى بالحرج الشديد، ولكنه كان يعلم أنهم حسنو النية، إذن فقد لا يكون الأمر شديد الصعوبة أن يتعامل معهم.

كان البند التالى فى جدول الأعمال اتجاهًا لتوجيه اللوم للرئيس والمسئول التنفيذي؛ لسوء أدائهم بشأن حفل استقبال أوبى. أصيب أوبى بالذهول، فقد كان رأيه أن حفل الاستقبال موفقًا للغاية، ولكن لم يكن هذا رأى الشبان الثلاثة الذين تبنوا فكرة القرار، ولا حتى كان هذا رأى اثنى عشر شخصًا تقريبًا، كما تبين بعد ذلك. كان مصدر شكواهم أنهم لم يُعطوا أيًا من الاثنتى عشرة زجاجة التى تم شراؤها لهذه المناسبة. استولى واحتكر الرجال فى المناصب العليا والأشخاص المسنون على البيرة؛ تاركين للشباب قنينتين من نبيذ النخيل الحامض، كما يعلم الجميع فإن نبيذ النخيل فى لاجوس لم يكن فى الحقيقة نبيذ نخيل البتة، ولكنه كان ماءً أو عبارة عن شراب مخفف للغاية.

أحدث هذا الاتهام تراشقًا بالألفاظ الجارحة لقرابة الساعة، أطلق الرئيس على هؤلاء الشبان لفظ «الجاحدين العاقّين المتخصصين فى الاغتيال المعنوى». ذكر أحد الشباب أنه أمر غير أخلاقى أن تُستخدم الأموال العامة لشراء البيرة، لكى يطفئ شخص ما ظمأه. كانت هذه الكلمات قاسية، ولكن أوبى شعر بطريقة ما أنها لم يكن يشوبها أى نوع من المرارة، خاصة أنها كانت كلمات بالإنجليزية مقتبسة مباشرة من الصحف الصادرة فى هذا اليوم نفسه. عندما انتهى هذا الأمر تمامًا، أعلن الرئيس أن أوبى أوكنكو ابنهم الذى تم تكريمه كان يريد أن يوجّه إليهم بعض الكلمات، وأحدث هذا الإعلان صيحاتٍ تعبر عن فرحة غامرة بين الحاضرين.

نهض أوبى واقفًا، ثم شكرهم على عقدهم مثل هذا الاجتماع المفيد «فألم تقل المزامير إنه من المفيد للأخوة فى الدين أن يتقابلوا معًا وهم على وفاق؟ إن آباءنا يرددون حكمة مؤداها خطورة عيش الشخص بمفرده، وإنهم يقولون إنها لعبة الثعبان، فإذا ما عاشت كل الثعابين معًا فى مكان واحد، فمَن ذا الذى يستطيع أن يقترب منهم؟ ولكن كل واحد يعيش بمفرده، ولذلك فإنهم يكونون فريسة سهلة للإنسان» كان أوبى يعلم أنه ترك انطباعًا حسنًا لدى مستمعيه، فقد كان مستمعوه يهزون رأسهم؛ استحسانًا، ثم يقومون بتعليقات مناسبة، بالطبع؛ فإن هذه كانت خطبة مجهزة سلفًا، ولكنها لم تبدُ أنه تم التحضير لها والتدريب عليها بصورة فجّة.

تحدث أوبى عن الاستقبال الرائع الذى استقبلوه به عند عودته «إذا ما عاد الشخص من رحلة طويلة ثم لا يقول أى شخص «أهلا» له فإنه يشعر أنه لم يعد بعد». كان يحاول أن يرتجل نكتة عن البيرة ونبيذ النخيل، ولكنها لم تترك الأثر المرجو، فلذلك انتقل سريعًا للنقطة التالية، شكرهم على التضحيات التى قدموها لكى يرسلوه إلى إنجلترا، فلذلك سيبذل قصارى جهده لكى يؤكد لهم أن ثقتهم كانت فى محلها، وكان الحديث الذى بدأ بلغة الإيبو مائة بالمائة أصبح الآن نصفه فقط بالإيبو، ومع ذلك كان مستمعوه متأثرين غاية التأثر، فقد ترك انطباعًا حسنًا للغاية لدى مستمعيه، فقد كانوا يحبون التحدث بلغة الإيبو البليغة، إلا أنهم أيضًا كانوا منبهرين باللغة الإنجليزية. فى نهاية الأمر تطرق إلى موضوعه الأساسى «أنا لدىَّ طلب واحد أطلبه منكم. لما تعلمون جميعًا، فإن الأمر يتطلب بعض الوقت لكى يستقر المرء بعد فترة غياب أربع سنوات، تشغلنى أمور بسيطة ولكنها كثيرة، وأفكر فيها قبل أن أتخذ قرارى بشأنها، أما طلبى فهو أن تمنحونى فرصة أربعة أشهر قبل أن أبدأ فى تسديد القرض الذى منحتمونى إياه».

صاح أحد الحاضرين «هذا أمر هين. أربعة شهور فترة قصيرة. قد يعلو الصدأ فوق الديون، ولكنها لا تتحلل أبدًا».

نعم، كان أمرًا هينًا وبسيطًا. ولكنه كان من الواضح أن هذا لم يكن رأى الجميع، حتى أن أوبى قد سمع شخصًا ما يسأل ماذا عساه يفعل بالنقود الوفيرة التى سوف يحصل عليها من الحكومة؟

قال الرئيس بعد انقضاء فترة من الوقت «كلامك جيد جدًّا. لا أعتقد أن أى شخص هنا سوف يعترض على طلبك، وسوف نمنحك أربعة أشهر. هل أعبر عن رأى كل أموفيا؟».

أجابوه «نعم».

«ولكن هناك كِلْمتين أود أن أقولها لك. أنت ما زلتَ شابًّا جدًّا، ابن امبارح. أنت تعرف كلام الكتب. ولكن الكتب شيء والخبرة شيء آخر، ولذلك أنا مش خايف أتكلم معاك».

بدأ قلب أوبى يخفق بشدة وبعنف.

«أنت واحد منا ولذلك لازم نفتح عقلنا لك. أنا عشت فى لاجوس. مدة خمستاشر سنة. حضرت هنا يوم 6 أغسطس سنة 1941. لاجوس بلد مخيفة بالنسبة لشاب زيك. إذا مشيت وراء ملذاتها، حتضيع. يمكن تسألنى ليه بأقول كل ده. أنا عارف المبالغ الحكومة بتدفعها للمناصب العليا. المبلغ اللى بتحصل عليه أنت فى شهر إخوانك هنا بيحصلوا عليه فى سنة كاملة. أنا من قبل قلت إننا حنمنحك أربعة أشهر. ممكن كمان نعطيك سنة كاملة. ولكن فيه فايدة من كده؟».

تسببت غصة كبيرة بحشرجة فى حلق أوبى.

«اللى بتدفعه الحكومة لك أكثر بكثير من احتياجك، إلا إذا صرفتهم فى الهلس» عندها صاح كثير من الناس «بعد الشر!» استكمل الرئيس حديثه قائلاً «مفيش فلوس نصرفها على الهلس. احنا من الرواد بنبنى عائلاتنا ومدينتنا. مش لازم نقلد أى حد، يعنى مثلا مش لازم نشرب علشان شايفين إن جيراننا بيشربوا، أو نجرى ورا الستات. يمكن بتسأل نفسك ليه بأقول كل ده. أنا سمعت إنك على علاقة ببنت من أصول مشكوك فيها، وأظن إنك بتفكر تتجوزها».

هبّ أوبى واقفًا وهو يرتجف من شدة الغضب. فى مثل هذه الأحوال كانت الكلمات تخونه وتراوغه هاربةً منه.

قال الرئيس بنبرة هادئة «اقعد يا سيد أوكنكو».

صاح أوبى بالإنجليزية «اقعدى يا رجلاى. ده كلام فظيع! أنا ممكن أرفع عليك قضية بسبب الكلام ده... بسبب الكلام ال– ال...».

«ممكن ترفع علىّ قضية لما أنتهى من كلامى».

«أنا مش حاستمع لك أكثر من كده. أنا بتراجع عن طلبى. أنا حابدأ فى رد الديْن لكم آخر الشهر ده. لا، حادفع فى اللحظة دى! ولكن مش مسموح لكم بالتدخل فى شئونى أبدًا بعد كده». ثم استكمل كلامه بالإيبو «وإذا كنتم بتجتمعوا علشان تناقشوا أمور زى دى، ممكن تقطعوا رجليى الاثنين إذا وجدتوهما هنا مرة ثانية» اتجه مباشرة إلى الباب. فحاول

بعض الحاضرين أن يقفوا فى طريقه قائلين «أرجوك اقعد» «هدّى نفسك، طوّل بالك» «إحنا مش بنتعارك» كان كل الحاضرين يتكلمون فى الوقت نفسه. شق أوبى طريقه بصعوبة متوجهًا إلى سيارته، بينما كان هناك تقريبًا ستة أشخاص يجرون فى أثره، يتوسلون له أن يعود أدراجه.

صرخ فى السائق بمجرد أن ركب السيارة «سُوق!».

صاح جوزيف وهو مبتئس لما يحدث، بينما كان يتوكأ على نافذة السيارة «أوبى، أرجوك!».

«ابعد عن هنا».

انطلقت السيارة مسرعةً. وعندما كان فى منتصف الطريق إلى إيكوى أمر السائق أن يتوقف؛ لكى يعود إلى لاجوس، إلى حيث تسكن كلارا.

الفصل التاسع

لم تكن فكرة عمل أوبى مع مستر جرين ومستر أومو تروق له، ولكنه سرعان ما تبين له أنها لم تكن بالسوء الذى كان قد توقعه سابقًا. أحد تلك الأسباب أنه أُعطى غرفة مكتب مستقلة ليشغلها مع سكرتيرة مستر جرين الإنجليزية الحسناء، كان نادرًا ما يتقابل مع مستر أومو، أما مستر جرين فإنه لم يكن يراه إلا عندما يقتحم مكتبه ليعوى بأوامره، سواء الموجهة إليه أو للآنسة مارى توملينسون.

سألته الآنسة توملينسون فى إحدى تلك المرات «تصرفاته غريبة، أليس كذلك؟ ولكنه هو فى الحقيقة ليس رجلاً سيئًا».

رد أوبى «طبعًا لا!» كان أوبى يعلم جيدًا أن الكثيرات من هؤلاء السكرتيرات كن مزروعات، لكى يقمن بالتجسس على الأفارقة، وكانت أحد التكتيكات التى يستخدمنها هو الادعاء بأنهن يتصفن بالمودة وسعة الأفق، ولذلك كان يتعين على المرء أن يتوخّى الحذر فى كل ما يقوله ويفعله، لم يكن الأمر يتعلق بمستر جرين إذا ما كان يعلم ما هو رأيه فيه، فى الواقع كان يجب أن يعرف، ولكن أوبى لم يكن ليفعلها عن طريق عميلة تجنح إلى التحريض والإثارة.

ولكن، وبمرور الوقت، بدأ حرص أوبى فى التهاوى شيئًا فشيئًا أو «فتفوتة فتفوتة» كما يقول المثل. بدأ ذلك بزيارة كلارا لمكتبه ذات صباح لتخبره بأحد الأمور، وكانت الآنسة توملينسون قد سمعت صوت كلارا من خلال التليفون بضع مرات، وقامت بالتعليق على جاذبية صوتها. قام أوبى بتعريفهما ببعض، وأصابه ما يشبه الدهشة عندما ظهرت على الآنسة الإنجليزية مظاهر البهجة الحقيقية، عندما مشيت كلارا لم تتوقف الآنسة

توملينسون عن الحديث عنها لبقية اليوم. «يا لها من جميلة! إنك محظوظ حقا! متى سوف تتزوجان! لو كنت مكانك لّما كنت انتظرت» واستمر حديثها لا ينقطع على هذا المنوال فى أمور مشابهة.

شعر أوبى مثل التلميذ الخائب سيئ التصرف الذى يحصل على مديح من الآخرين لقيامه بعمل لأول مرة، وبدأ يرى الآنسة توملينسون بطريقة مختلفة تمامًا. إذا ما كانت تصرفاتها جزءًا من تكتيكاتها؛ فإن هذه التصرفات لا شك تتسم بالبراعة الشديدة التى تستحق الثناء، ولكن تصرفاتها لم تبدُ مدبّرة أو خبيثة؛ لأنها كانت تبدو تلقائية نابعة من قلبها.

دق جرس التليفون، فقامت الآنسة توملينسون بالرد عليه.

«مستر أوكنكو؟ تمامًا. رجاء الانتظار لحظة. مكالمة لك يا مستر أوكنكو».

كان تليفون أوبى يعمل على نفس الخط الخاص بها، وكان يظن أنها كلارا، ولكنه كان الرجل الذى يعمل فى مكتب الاستقبال فى الطابق السفلى.

«أستاذ؟ أرجوك قل له أن يحضر لى، لا يريد أن يتحدث معى هنا؟ حسنًا، سوف أنزل إليه، الآن، الآن».

كان هذا السيد يرتدى بذلة مكونة من ثلاث قطع، ويحمل معه شمسية مطوية، وكان من الواضح أنه حضر حديثًا من إنجلترا.

«صباح الخير. اسمى أوكنكو».

«أنا اسمى مارك. كيف حالك؟».

قاما بمصافحة الأيدى.

«جئت لأستشيرك فى أمر ما – شبه رسمى وشبه شخصى».

«تفضل نتحدث فى مكتبى».

«شكرًا جزيلاً».

تقدم أوبى الرجل.

سأل أوبى الرجل بينما كانا يصعدان الدرج «هل رجعتَ منذ فترة وجيزة إلى نيچيريا؟».

«رجعت منذ ستة أشهر».

«فهمت» ثم فتح الباب «تفضل بالدخول».

وصل السيد مارك إلى باب الغرفة ثم توقف فجأة، كما لو أنه قد رأى ثعبانًا يمر أمامه، ولكنه سَرعان ما تمالك نفسه ثم دخل الغرفة.

قال موجهًا كلامه للآنسة توملينسون ووجهه مبتسمًا «صباح الخير» شد أوبى كرسيًا آخر ووضعه ملاصقًا للمائدة، ثم جلس مستر مارك عليه.

«أوامرك، كيف أستطيع أن أساعدك؟».

وَلِدَهشته رد مستر مارك بلغة الإيبو.

«إذا لم يكن لديك مانع، هل لنا أن نتحدث بالإيبو؟ لم أكن أعلم أن لديك أوروبيين فى مكتبك».

«كما تود، فى الحقيقة لم أعتقد أنك من الإيبو. مامشكلتك بالضبط؟» قالها وهو يحاول أن يبدو عفويًا.

«حسنًا، الأمر هو أن أختى التى اجتازت حديثًا المرحلة الثانوية فى السنة الأولى تريد أن تحصل على منحة من المنح الفيدرالية؛ لكى تستكمل دراستها فى إنجلترا».

على الرغم من أنه كان يتحدث بالإيبو، فإنه كانت هناك بعض الكلمات التى كان عليه أن يقولها بالإنجليزية، مثلا كلمات مثل «المرحلة الثانوية» و«المنحة» كان يخفض صوته ليصل إلى حد الهمس عندما يصل إلى هاتين الكلمتين.

سأله أوبى «هل تريد استمارات الالتحاق؟».

«كلا، كلا، لدىّ استمارات بالفعل، ولكن الأمر وما فيه أنه قيل لى إنك سكرتير لجنة البعثات، فاعتقدت أنه من الأفضل أن أقابلك، ونحن الاثنان من الإيبو، ولا يمكننى أن أخفى عليك أى شيء. إنه لأمر حسن للغاية أن نرسل الاستمارات بعد ملئها، ولكنك تعلم علم اليقين كيف تجرى الأمور فى بلدنا، وإذا لم تلجأ إلى أحد بيده...».

«فى هذه الحالة؛ فإنه من غير الضرورى أن تلجأ لأى أحد، الشيء الوحيد هو...».

«كنت فى حقيقة الأمر أفكر فى الحضور إلى منزلك، ولكن الرجل الذى دلنى عليك لم يكن يعرف أين تقطن».

«أنا آسف يا مستر مارك، ولكنى لا أفهم فى الحقيقة ما الذى تقصده، وما الذى تريد أن تصل إليه» قالها بالإنجليزية، مما أثار فزع مستر مارك وجزعه. أصاخت الآنسة توملينسون السمع، وبدت أذنيها كأنها قد وقفت لتلقى أى معلومات، كأنها مثل الكلب عندما يسمع كلمة «عظم».

«أنا آسف يا مستر أوكنكو، ولكن أرجوك لا تُسىء فهمى وقصدى. أنا أعلم أن هذا ليس بالمكان الصحيح لـ...».

قال أوبى مرة أخرى بالإنجليزية «لا أظن أن هناك أى منطق أو سبب لاستكمال هذه المناقشة. إذا سمحت بعد إذنك. أنا مشغول للغاية» ثم هب واقفًا، وقف مستر مارك أيضًا ثم غمغم ببعض عبارات الاعتذار، ثم اتجه إلى الباب.

علقت الآنسة توملينسون بينما كان أوبى يعود إلى كرسيه «لقد نسى الشمسية الخاصة به».

«يا خبر!» ثم أخذ الشمسية واندفع خارجًا.

كانت الآنسة توملينسون تنتظر على أحر من الجمر؛ لكى تسمع ماذا عساه أن يقول عندما يعود، ولكنه ببساطة جلس كما لو أنه لم يحدث أى شيء، وبدأ فى دراسة أحد الملفات.

كان يعلم أنها تراقبه، فقطّب جبينه فى محاولة لإعطاء انطباع أنه فى حالة من التركيز الشديد.

قالت «ذهبتَ ورجعت سريعًا!»».

«نعم. إنه شخص مزعج» لم ينظر أوبى ناحيتها وبذلك انتهت المحادثة.

خلال ذلك الصباح اعترى أوبى شعور بالبهجة، كان الشعور نفسه الذى انتابه منذ سنوات عدة فى إنجلترا بعد لقائه العاطفى الأول. قالت له كلامًا كثيرًا للغاية مثل الغرض من زيارتها عندما وافقت على زيارة أوبى فى مسكنه. قال لها «سوف أعلمك كيف ترقصين رقصة الحياة الراقية عندما تحضرين إلىّ» ردت عليه بشغف شديد «كم سيكون هذا رائعًا! وربما علمتنى أيضًا بعضًا من رقصة الحياة المتدنية!» ثم ابتسمت ابتسامة ماكرة. عندما أتى هذا اليوم انتاب أوبى فزع وجزع. كان قد سمع أنه من الممكن أن يخيّب توقعاتها، إلا أن هذا لم يحدث، بل شعر أنه قد وفّق تمامًا، وشعر بهذا الشعور: بالبهجة العارمة.

بعد مقابلته مع مستر مارك شعر بالفعل أنه مثل النمر، وكان قد كسب أولى معاركه دون أن يحمل أو يستخدم أى سلاح، وقال الجميع «إن هذا النصر شىء مستحيل»، وكانوا يقولون «إن الشخص يتوقع منك أن تأخذ منه «الكولا» نظير خدمات قد أداها إليك». وحتى هذا الحين، فلن يهدأ له بال، ذلك لأنه يشعر كأنه مثل الحدأة عديمة الخبرة وهى تحمل فرخ البط ثم تأمره أم فرخ أن يعيده؛ لأن البطة لم تقل أى شىء ولم تفعل أى شىء سوى أنها مشت بعيدًا. «هناك خطر داهم فى هذا النوع من الصمت. اذهب وأحضر لك فرخ البط، أما نحن فنعرف الفرخة، فهى تصيح وتتوعد وينتهى الأمر عند هذا الحد.

إنك إذا أسديتَ معروفًا لشخص ما فإنه لن يفهم ذلك إذا لم تقل أى شىء أو إذا لم تُصدر أى صوت فقط امشِ بعيدًا. إنك سوف تتسبب فى مشاكل أكثر إذا ما رفضت رشوة بدلاً من أن تقبلها. ألم يتساءل وزير دولة، ولو بطريق غير حذر من فم يفوح منه رائحة الخمور، أن المشكلة لا تكمن فى تلقى الرشوة، ولكن فى الفشل فى القيام بالشىء الذى دُفعت الرشوة من أجله؟ إذا ما رفضت كيف يتأتى لك أن تعرف أن «الأخ» أو «الصديق» لا يتلقى هو الآخر الرشوة نيابة عنك، بما أنك قلت لكل الناس إنه وكيل عنك؟ هذا محض هراء

وتخريف! كان من اليسير أن تُبقى يديك نظيفةً غيرَ ملوثةٍ بالرشوة. لم يتطلب الأمر أكثر من القدرة على قول «أنا آسف يا أستاذ فلان الفلانى، فأنا لا يمكننى أن أستمر فى هذا النقاش. طاب صباحك» بالطبع لا يصح أن يتصف المرء بالغطرسة غير المرغوب فيها، فإن الإغراء لم يكن فى الحقيقة إغراء مذهلاً، ولكن بكل تواضع لا يمكن للمرء أن يدعى أن هذه الرشوة لم تكن موجودة. أدرك أوبى أن الأمور تتفاقم بشدة، وأصبح شبه مستحيل أن يعيش معتمدًا على ما تبقى من الجنيهات السبعة وأربعين بعد أن قام بدفع عشرين جنيهًا لاتحاد أموفيا التقدمى، وأرسل عشرة جنيهات لأهله، حتى الآن لم يكن لديه أدنى فكرة من أين سوف يحصل على المصاريف المدرسية الخاصة بأخيه جون، كلا، لم يكن المرء يستطيع أن يدعى أنه ليس بحاجة للنقود.

كان قد انتهى لتوه من تناول الغداء المكون من العصيدة وشوربة الإيجوس، وكان ممددًا على الكنبة، كانت الشوربة ذات مذاق طيب جدًا، وقد أُعدت بطريقة جيدة للغاية باستخدام اللحم والسمك الطازج، وقد تناولها حتى أصيب بالتخمة، عندما تناول الكثير جدًا من العصيدة كان يشعر كما لو أنه ثعبان قد ابتلع ماعزًا، كان ممددًا إلا أنه لم يشعر بالراحة، منتظرًا لبعض الوقت لكى يهضم قدرًا من الأكل يجعله يستطيع أن يتنفس.

توقفت سيارة بالخارج، أعتقد أن السيارة خاصة بأحد الأشخاص من بين الخمسة الذين يقطنون المبنى المكون من ست شقق. لم يكن يعرف أيا منهم بالاسم، وإن كان يعرف بعضًا منهم بالشبه. كانوا جميعًا من الأوروبيين، وكان يتحدث مع الواحد منهم مرة واحدة شهريًا، كان هذا هو الرجل الطويل الذى يقطن على الجانب الآخر من الطابق نفسه. كان هذا الرجل المختص برعاية الحديقة المشتركة، وكان يقوم بجمع عشرة جنيهات ونصف كل شهر من كل قاطنى المسكن؛ حتى يتمكنوا من دفع نقود لصبى البستانى، فلذلك كانت معرفة أوبى مجردًا بالشكل، وكان أيضًا يعرف أحد هؤلاء الذين يقطنون فى الطابق الأعلى الذى كان ما يجلب معه بطريقة منتظمة إحدى المومسات الأفريقيات فى أمسيات السبت من كل أسبوع.

دار موتور السيارة مرة أخرى، وكان من الواضح أنها سيارة أجرة، ذلك لأن سائقى سيارات الأجرة فقط هم الذين كانت لديهم القدرة على إدارة موتور سياراتهم بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة.

سمع أوبى طرقًا خفيفًا خافتًا على بابه، مَن عساه يكون الطارق؟ كانت كلارا فى نوبة عمل هذا المساء، ومن الممكن أن يكون جوزيف، ولمدة شهور كان جوزيف يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يستعيد مكانته المميزة فى عواطف أوبى، هذه المكانة التى كان قد فقدها فى اجتماع اتحاد أموفيا التقدمى التعس البائس، وكانت جريمته تكمن فى أنه قد همس فى أذن الرئيس بطريقة ودية بشأن خطبة أوبى لفتاة من طبقة المنبوذين، بعدها توسل إليه أن يغفر له، فعلى أى حال، كان قد أخبر الرئيس بطريقة خاصة على أمل أن يستخدم مركزه وسلطته بصفته أبًا لأهالى أموفيا فى لاجوس، حتى يتناقش فيما بينه وبين أوبى.

عندها رد عليه أوبى قائلاً «لا تكترث لهذا الأمر. دعنا ننسى الأمر برمته». إلا أنه لم يكن قد نسى قط هذا الأمر، فقد توقف عن زيارة أوبى فى مسكنه. أما بالنسبة لكلارا فإنها لم تشأ أن ترى وجه جوزيف بعد ذلك أبدًا، كان أوبى فى بعض الأحيان تعتريه الدهشة الشديدة والفزع بشأن شدة كرهها لجوزيف؛ حيث إنه كان يعلم مقدار حبها له من قبلُ، والآن أصبحت تراه مراوغًا للغاية وحقودًا، وأنه من الممكن أيضًا أن يكون قادرًا على تسميم أفكار أوبى. كان هذا الحدث بمثابة نبيذ النخيل، الذى ينساب على الحصبة الكامنة، فيبرز كلَّ التقيّحات القبيحة إلى السطح.

فتح أوبى الباب ونظرات الغضب والتجهم تكسو وجهه، وبدلاً من أن يرى جوزيف أمامه، وجد فتاة واقفة بالباب.

قال وقد تبدل الحال به تمامًا «مساء الخير».

ردت قائلة «أبحث عن السيد أوكنكو».

«أنا أوكنكو، تفضلى بالدخول» اندهش من حالة الابتهاج المفاجئ التى اعترته، ذلك لأن الفتاة كانت غريبة عنه تمامًا، وإن كانت أيضًا جذابة للغاية، ولذلك فإنه كبح جماح نفسه بمشقة.

«تفضلى اجلسى. على فكرة لا أظن أننا تقابلنا من قبل».

كلا، لم نتقابل. أنا السى مارك».

«تشرفنا يا آنسة مارك» ابتسمت ابتسامة أخّاذة للغاية، كاشفةً عن أسنان رائعة لا يشوبها أىُّ اعوجاج أو تشوّه، كانت هناك فجوة صغيرة بين السنتين الأماميتين، وفى هذا كانت تشبه أسنان كلارا، قال أحدهم إن الفتيات اللاتى لديهن هذه الأسنان يتمتعن بعواطف جياشة. جلس وهو لا يشعر بالخجل الذى عادة ما يعتريه عندما يقابل الفتيات، إلا أنه لم يعرف ماذا يقول بعد ذلك.

«لابد وأن تكون مندهشًا من زيارتى» كانت الآن تتحدث بالإيبو.

«لم أكن أعرف أنكِ من الإيبو» بمجرد أن قال هذه العبارة انقشع الظلام. اختفت كل مظاهر البهجة، لا بد وأن الفتاة قد لاحظت تحولاً فى تعبيراته أو ربما فى حركة صدرت من يديه. كانت تتحاشى نظراته أو النظر صوب عينيه وصدرت كلماتها بطريقة مترددة، كما لو كانت تتحسس أو تختبر الأرض المنزلقة برجل حذِرة بعد الأخرى قبل أن تلقى بنفسها بكل حواسها.

«أنا آسفة أن أخى قد جاء إليك فى مكتبك، لقد حذرته ألا يفعل ذلك».

وجد أوبى نفسه يرد عليها قائلاً «لا عليك. لقد قلت له... آه بما أنك حصلت على شهادة المرحلة الأولى؛ فإن لديك فرصة طيبة للغاية، والأمر فى الحقيقة فى يدك عندما تتركين انطباعًا حسنًا لدى أعضاء المجلس عندما يُجرون لك المقابلة الشخصية».

قالت «إن أهم أمر يعنينى أن أكون متأكدة أنى قد أخترت لكى يُجرى لى المجلسُ هذه المقابلةَ».

«نعم، ولكن كما ذكرت لك قبل ذلك؛ فإن فرصك تتساوَى مع الآخرين».

«ولكن فى بعض الأحيان يُستبعد الحاصلون على التقدير الأولى لصالح آخرين حصلوا على التقدير الثانى أو حتى الثالث».

«مما لا شك فيه أن فى بعض الأحيان يحدث هذا، ولكن عندما تتساوى كل الأمور الأخرى... آه أنا آسف إنى حتى لم أعرض عليك أن تشربى أى شىء. أنا مضيف سيئ للغاية. هل أحضر لك كوكا كولا؟» ابتسمت عيناها بطريقة خجولة «نعم؟» ثم أسرع إلى الثلاجة وأخرج منها زجاجة كوكا، واستغرق وقتًا طويلاً فى فتحها وسكْبها فى كوب، كان مستغرقًا فى تفكير يثير غيظه وحنقه.

أخذت منه الكوب وشكرته بابتسامة، لا بد وأنها فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، كان ما يدور بفكر أوبى أنها مجرد فتاة، ولكنها كانت ملمّة بأمور الحياة، جلسَا فى صمت لفترة طويلة.

قالت بطريقة مفاجئة «فى العام الماضى، كل الفتيات اللاتى حصلن على التقدير الأول لم يحصلن على المنحة».

«لا بد وأنهن لم يتركن انطباعًا حسنًا لدى المجلس».

«لم يكن الأمر كذلك، فالسبب أنهن لم يذهبن إلى أعضاء المجلس فى بيوتهم».

«ولذلك، فإنك قررت أن تذهبى إلى الأعضاء؟».

«نعم».

«هل المنحة بكل هذه الأهمية؟ لماذا لا يقوم أحد أقاربك بدفع مصاريف الجامعة لك؟».

«أنفق أبانا كل ما يمتلكه من مال على أخينا، وكان يدرس الطب ولكنه أخفق فى امتحاناته، ثم انصرف إلى دراسة الهندسة ولكنه أخفق مرة أخرى، لقد أقام فى إنجلترا لمدة اثنتى عشرة سنة».

سألها «هل كان هذا هو الرجل نفسه الذى أتى لزيارتى اليوم؟» وعندما أومأت برأسها عاد مرة أخرى ليسألها «ما مهنته التى يتعيّش منها؟».

«يقوم بالتدريس فى إحدى المدارس الثانوية الحكومية» كانت الآن مظاهر الحزن تكسو وجهها. «لقد عاد آخر العام الماضى، لأن أبانا توفى ولم يكن لدينا أى نقود».

شعر أوبى بالأسى لحالها، كان من الواضح أنها فتاة ذكية، كانت مثلها مثل شبان وشابات نيچيريين آخرين، عاقدة العزم على استكمال دراستها الجامعية. من عساه يلومهم؟ بالطبع لن يقوم أوبى بذلك. كان الأمر يعبر عن نفاق شديد وازدواجية ممجوجة عندما سألها إذا ما كانت المنحة بكل هذه الأهمية، أو إذا كان التعليم الجامعى يستحق كل هذا العناء، وكان كل نيچيرى يعرف الإجابة.

كانت الإجابة هى نعم.

كانت الشهادة الجامعية بمثابة العصا السحرية، فقد كانت لديها القدرة على نقل موظف درجة ثالثة يحصل على مائة وخمسين جنيهًا فى العام إلى موظف حكومى يحتل وظيفة عليا يحصل على خمسمائة وسبعين جنيهًا فى العام، بالإضافة إلى سيارة ومسكن مُجهز تجهيزًا فاخرًا بإيجار رمزى، ولم تكن الفجوة بين الراتب سوى جزء يسير من القصة، فقد كان شغل «منصب أوروبى» فقط بمثابة الخطوة التالية ليصبح الإنسان «أوروبيًا»، فهى ترفع الشخص من صفوف الشعب إلى مصافّ الصفوة، الذين كانوا يتبادلون الحديث العابر بعبارات مثل «كيف حال السيارة؟».

«أرجوك يا مستر أوكنكو يجب أن تساعدنى. سوف أقوم بأى شىء تطلبه منى». تحاشت النظر إلى عينيه، وكان يبدو من نبرة صوتها بعض الاضطراب حتى تخيل أوبى أنه قد رأى شبح دموع فى عينيها.

«أنا آسف. آسف للغاية، ولكنى لا أعتقد أنى بوسعى أن أعطيك أى وعد».

«توقفت سيارة أخرى بالخارج، تحدث فراملها صريرًا، اندفعت كلارا إلى الداخل، كما كانت عادتها وهى تتغنّى بنغمات أغنية شعبية، توقفت فجأة عندما رأت الفتاة.

«أهلاً يا كلارا، أقدم لك الآنسة مارك».

قالت بجفاء «أهلاً وسهلاً» وهى تومئ برأسها، لم تمد يدها للسلام على الآنسة مارك، وإنما وجهت سؤالها إلى أوبى «هل أعجبتك الشوربة؟ للأسف فقد أعددتها فى عجالة»، كانت بهاتين العبارتين الموجزتين تسعى أن تؤكد بعض الحقائق للفتاة الغريبة.

فأولى تلك الحقائق أنها بلهجتها المثقفة التى لا تدل على أنها نيچيرية كانت تدلل على أنها ذات أصل عريق، فيمكنك أن تتعرف على الناس من الأصول العريقة، ليس فقط من مخارج الألفاظ، ولكن بطريقة مشيتها وخطواتها السريعة وإن كانت خطوات قصيرة، بدلاً من المشية العادية فى حضور زميلاتها والفتيات الأخريات اللاتى كنّ أقل حظًا، وكانت دائمًا تختلق المناسبة لكى تقول «عندما كنت فى إنجلترا...» أما ثانى تلك الحقائق أن تصرُّفَها الذى يتسم باللياقة كان كفيلاً بنصح الفتاة «من الأجدر لك أن تحاولى فى مكان آخر».

قال أوبى «اعتقدت أن لديك عملاً مساء اليوم».

«كلا، فهمت خطأ. أنا لا أعمل اليوم».

«لماذا كان عليك إذن أن تذهبى بعد أن أعددتى الحساء؟».

«لأنى كان لدىّ القيام بغسل الكثير... ألن تعطينى شيئًا لأشربه – حسنًا! إذن! سوف أقوم بتقديمه لنفسى».

أنا آسف يا عزيزتى، تفضلى بالجلوس. سوف أحضره لك بنفسى».

«كلا. تأخرت كثيرًا» ثم ذهبت إلى الثلاجة وأخرجت منها بيرة من الزنجبيل ثم سألته «ماذا حدث لزجاجة بيرة الزنجبيل الأخرى؟ كانت هناك اثنتان».

«أظن أنك تناولت واحدة بالأمس».

«فعلاً؟ آه تذكرت الآن» رجعت مرة أخرى ثم غطست بجوار أوبى «يا إلهى، إنها ساخنة!».

قالت الآنسة مارك «أظن أنى يجب أن أذهب الآن».

قال أوبى وهو يهم بالنهوض «أنا آسف لن أستطيع أن أعد بشىء محدد».

لم ترد، ولكنها ابتسمت ابتسامة حزينة.

«كيف سترجعين إلى المدينة؟».

«ممكن أن أستقل سيارة أجرة».

«سوف أقلك إلى ميدان تينوبو، فسيارات الأجرة نادرة فى هذه المنطقة. هيا يا كلارا دعينا نُقلها إلى تدينوبو».

قالت كلارا بينما كانت هى وأوبى عائدين من ميدان تينوبو إلى إيكوى «أنا آسفة أنى جئت فى هذا الوقت غير الملائم».

«لا تكونى سخيفة! ماذا تعنين بالوقت غير الملائم؟».

قالت ضاحكة «أنت اعتقدت أنى كنت فى نوبتجية عمل. أنا آسفة لأنك اعتقدت ذلك. مَن هى على أى حال؟ لابد أن أعترف أنها جميلة للغاية. وأنا مضيت لسكب الرمال على وعائك لإفساد وإبطال متعتك. آسفة يا عزيزى».

نبهها أوبى ألا تتصرف بأسلوب فتاة غرّة بلهاء، قائلاً لها «لن أتفوه بأى كلمة أخرى إذا لم تصمتى».

«لا داعى أن تقول أى شىء إذا لم تكن تريد ذلك. هل تحب أن نزور سام؟».

لم يكن الوزير بالمنزل عندما حضر إلى منزله، وكان من الواضح أن هناك اجتماع مجلس الوزراء.

سألهم الخادم «إيه عاوز يشرب المدام والمستر؟».

«ما تاخدش فى بالك يا سامسون. قول للوزير إننا حضرنا لزيارته».

سألهم سامسون «أنتم ممكن ترجعوا تانى؟».

«مش النهارده».

«أنتم قولوا مش عاوز اشربوا أى حاجة صغيرة كده؟».

«لا، شكرا. إحنا فيه نشرب لما نرجع تانى. مع السلامة باى باى».

عندما عادا إلى شقة أوبى، قال لها «مررت بتجربة مثيرة اليوم» ثم قصّ عليها ما حدث من زيارة مستر مارك لمكتبه اليوم، ثم أعطاها بيانًا مطولاً عن كل ما تم بين الآنسة مارك وبينه قبل حضورها.

عندما انتهى من كلامه، لم تقل كلارا أى كلمة لفترة قصيرة.

سألها أوبى «هل أنت سعيدة؟».

قالت له «أعتقد أنك كنت عنيفًا للغاية مع الرجل».

«هل تظنين أنى كنت يجب أن أشجعه على التحدث باستفاضة والشرح عن إعطائى رشوة لى؟».

«على أية حال، إعطاء المال رشوة ليست بالسوء مثل إعطاء جسد الإنسان، ولقد أعطتيها مشروبا وأقللتها إلى المدينة» ثم ضحكت «إيه معنى كل ده؟».

وظل أوبى فى حالة حَيرة.

الفصل العاشر

لوَهْلة قصيرة فى العام الماضى، اهتم مستر جرين بشئون أوبى الخاصة- هذا إذا كان بمقدور المرء أن يطلق لفظ «اهتمام». كان أوبى قد تسلم لتوه سيارة جديدة.

قال له مستر جرين «يجدُر بك أن تتذكر أن فى هذا الوقت من كل عام سوف يزورك أناس لتحصيلِ أربعين جنيهًا نظير التأمين عليك» كان بمثابة صوت جويل ابن بيتول. أكمل كلامه قائلاً «بالطبع، فإن هذا ليس من شأنى فى حقيقة الأمر. ولكن فى بلد لا يكترث فيه حتى المتعلمين ولا يشغلون أنفسهم بالتفكير بما سيحدث لهم فى الغد؛ فإن المرء ملقى عليه واجبٌ واضح يجب عليه أن يؤديه» نطق كلمة «متعلمون» كأنه يُفرغ ما فى أحشائه. شكره أوبى على إسدائه هذه النصيحة.

وأخيرًا جاء اليوم الموعود. فرد خطاب تجديد التأمين أمامه على المائدة، اثنان وأربعون جنيهًا!

كان كل ما يملكه فى البنك مبلغًا أكثر بقليل من ثلاثة عشر جنيهًا، طوى الخطاب ثم وضعه فى أحد الأدراج التى كان يحتفظ فيها بأشيائه الخاصة البسيطة، مثل طوابع البريد والإيصالات والخطابات البنكية، التى يرسلها كل ثلاثة شهور. استرعى انتباهه خطاب مكتوبٌ بخط ينمُّ على أن كاتبه نصف متعلم. استخرجه ثم قرأه مرة ثانية.

سيدى العزيز:

أمورى سيئة للغاية، ولهذا فأنا أتوسل إليك بكل احترام أن تمدّ لى يد العون، من ناحية؛ فإنه أمر مخزٍ أن أطلب منك المساعدة، ولكن إذا كنت صريحًا مع نفسى وعالمًا

بالحقيقة أنى أريد المساعدة؛ بسبب العَوَز، فأنا أطلب منك أن تسامحنى. طلبى منك هو ثلاثون شلنًا، مؤكدًا لك على حقيقة أنى سوف أرد لك هذا المبلغ بسرعة، يوم تسلم راتبى يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٥٧. آملاً أن تنظروا إلىّ بعين الاعتبار والعطف..

خادمكم المطيع تشارلزايبى».

كان أوبى قد نسى هذا الأمر تمامًا. لا غرابة إذن أن تشارلز كان يتسلل داخلاً وخارجًا من مكتبه حاليًا دون أن يتوقف ليتبادل التحية بلغة الإيبو، كان تشارلز يعمل ساعيًا فى هذه الإدارة. سأله أوبى «ما الداعى لأخذ هذه السلفة؟» فرد بقوله إن زوجته قد رُزقت بطفلهما الخامس. كان أوبى الذى يحمل فى جيبه أربعة جنيهات فقط قد أعاره فى التو ثلاثين شلنًا، ولكنه نسى هذا الأمر تمامًا حتى هذه اللحظة. أرسل إلى تشارلز وسأله بلغة الإيبو (حتى لا تتمكن الآنسة توملينسون أن تفهم ما يقوله) «لماذا لم يفِ بوعده؟»، هرش تشارلز رأسه ثم جدّد وعده هذه المرة حتى آخر ديسمبر.

قال أوبى بالإنجليزية «سوف يكون من العسير علىّ أن أثق بك في المستقبل».

«أوه! لا! لا! يا سيدى. مش ممكن ثقة فيه مفيش، أبوس إيدك حادفع آخر الشهر». ثم تحول إلى الكلام بالإيبو «إن شعبنا له مقولة أو حكمة إن الدين ممكن أن يعلوه الصدأ، ولكنه لا يعفن. هناك أناس كثيرون فى هذا القِسم ولكنى لم ألجأ لهم، ولكنى لجأت لك».

قال أوبى بلهجة ساخرة كان يعرف قبلَ أن يتفوه بها أن تشارلز لن يفهمها «هذا كرم أخلاق ولطف منك» وقد غمُض المعنى على تشارلز بالفعل.

«نعم، هناك أناس كثيرون هنا. ولكنى لم ألجأ لهم، فأنا أعتبرك سيدى الخاص. إن شعبنا لديه مقولة أخرى، إنه إذا كانت هناك شجرة كبيرة فإن الأشجار الصغيرة تتسلق على ظهرها؛ لكى يصلوا إلى الشمس. أنت صغير السن من حيث العمر، ولكن...».

«حسنًا يا تشارلز. نهاية ديسمبر. إذا لم تفِ بالميعاد فسوف أبلغ الأمر إلى مستر جرين».

«آه! أنا مش أتأخر فى دفع الفلوس اللى علىّ لك أبدًا، لو اتأخرت علىّ سيدى – مين أقوله المرة التانية؟».

وعلى هذا السؤال البلاغى، أغلق الأمر حتى حين. نظر أوبى إلى رسالة تشارلز مرة أخرى، ولاحظ باهتمام مثير أن فى المخطوطة الأصلية كان قد كتب «طلبى لسيادتك هو ٣٠ شلنًا فقط» ثم قام بعد ذلك بشطب كلمة «فقط» مدفوعًا بدون شك بعد مداولات متأنية.

دفع بالخطاب مرة أخرى داخل الدرج، لكى يقضى الليلة مع إخطار التأمين. لم يكن هناك أى شىء يمكن عمله سوى أن يقصد مدير البنك صباح الغد ليطلب زيادة القرض خمسين جنيهًا. كان قد قيل له إن الأمر يسير إلى حد كبير بالنسبة لموظف حكومى يشغل منصبًا كبيرًا، يقبض الماهية الخاصة به من البنك ويمكن أن يحصل على سلفة إضافية بهذه الوسيلة. وفى هذه الأثناء، لم يكن هناك أى شىء يدعو للتفكير فيه مرة أخرى، كان تصرف تشارلز بلا شك هو أفضل تصرف فى هذه الظروف. إذا لم يستطع المرء أن يضحك فلابد أن يبكى، فيما يبدو كانت هذه هى الطريقة التى تأسست بها نيچيريا!

ولكن لم يستطع أى قدر من التفكير الفلسفى أن يبعد تفكيره عن هذه الملحوظة «لا يستطيع أحد أن يدّعى أننى كنت مُسرفًا أو مبذرًا، إذ لم أكن قد أرسلت خمسة وثلاثين جنيهًا نهاية الشهر الماضى لكى أدفع نفقات علاج أمى فى مستشفى خاص. لكانت أمورى على ما يرام الآن– أو إذا لم تكن بالضبط على ما يرام، فعلى الأقل فى الأمان. على أى حال، سوف أتجاوز المحنة» ثم طمأن نفسَه قائلاً «كان من البديهى أن تكون البداية عسيرة، ماذا يقول شعبنا؟ ما المثل الذى يردده بنو بلدنا؟ بداية البكاء دائمًا ما يكون صعبًا. لم يكن هذا مثلاً موفقًا، ولكنها على أى حال حقيقية».

إذا كان اتحاد أموفيا التقدمى قد منحه أربعة أشهر فترة سماح لكانت الأمور قد أخذت مسارًا آخر تمامًا، ولكن هذا الأمر أصبح أمرًا من الماضى. كان قد أثار خلافات بينه وبين اتحاد أموفيا، كان من الواضح أنهم لم يقصدوا أن يتسببوا فى أى ضرر له. وحتى لو كانوا يقصدون ذلك، ألم يكن حقيقيًا، كما ذكر الرئيس فى جلسة الصلح فإن الغضب الذى يشعر به المرء تجاه أحد أقربائه لا يتجاوز الجلد، ولكنه لا يخترق حتى يصل إلى

النخاع؟ كان الاتحاد قد أخذ صفّه، وناشده أن يقبل فترة السماح التى تبلغ أربعة أشهر منذ تلك اللحظة. ولكنه رفض بادعائه كذبًا أن أموره قد أصبحت الآن أسعد حالاً.

وإذا ما فكر المرء بطريقة موضوعية فهل يستطيع أن يلقى باللوم على هؤلاء الناس الفقراء البؤساء الذين ينتقدون موظفًا حكوميًّا يشغل منصبًا رفيعًا لأنه يمتعض من دفع عشرين جنيهًا شهريًّا؟ كانوا قد كلفوا أنفسهم عناء أن يجمعوا ثمانمائة جنيه لكى يستطيع أن يسافر لإنجلترا، فى حين كان بعضهم لا يحصل على أكثر من خمسة جنيهات شهريًّا، بينما كان هو يحصل على خمسين جنيهًا. وبينما كانوا متزوجين ويعولون زوجاتهم وأولادهم، لم يكن هو لديه أى من هذه المسئوليات.

بعد أن يدفع العشرين جنيهًا سوف يتبقى له ثلاثون جنيهًا. وفى القريب العاجل سوف يحصل على زيادة كانت هى وحدَها بنفس مقدار مرتبات بعض الأشخاص. اعترف أوبى أن قومه كانت لهم حُجة محترمة ما لم يكونوا يعرفونها، هى أنهم بعد أن عانوا من المشقة والمعاناة الشديدة وبعد أن بذلوا الجهد والعرق لكى يلتحق قريبُهم بالصفوة الباهرة المميزة، كان يتعين عليهم أن يُبقوه فى مصاف الصفوة. بعد أن جعلوه ينضم لنادٍ مخصوص وفيه يُحيى بعضهم البعض بعبارات مثل «كيف تسير السيارة؟» هل توقعوا منه مثلاً أن يستدير لكى يرد «أنا آسف، ولكن سيارتى لا تعمل، فلعلمك أنا لم أتمكن من دفع الأقساط». كان هذا كفيلاً بأن يسبب إحباطًا ووجومًا غير متوقع بالمرة بالطريقة نفسها التى ترتدى روح قناع فى المجتمعات الإيبو القديمة، وهى ترد على تحية روح شفافة أخرى «أنا آسفة يا صديقى، ولكنى لا أفهم لغتك الغريبة عنى، ولكننى إنسان يرتدى قناعًا» لا، هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث.

إن قوم الإيبو بدافع من إحساسهم بالموضوعية اخترعوا مثلاً مؤداه أنه ليس من الإنصاف أن تطلب من رجل مصاب بداء الفيل أن يصاب أيضًا بالجدرى، بينما آلاف الناس لم يصابوا حتى بأمراض بسيطة. لا شك أن هذا ليس أمرًا صائبًا، ولكنه يحدث وهم يرددون «مش لازم الدنيا تكون كده».

بعد أن تفاوض على قرض من البنك مقداره خمسون جنيهًا، ذهب رأسًا لكى يسلم النقود لشركة التأمين، رجع أوبى إلى مكتبه ليجد فاتورة الكهرباء لشهر نوفمبر، عندما فتحها كاد أن يبكى، فقد كانت المطالبة كبيرة، تبلغ خمسة جنيهات وثلاثة شلنات.

سألته الآنسة توملينسون «هل هناك ما يضايقك؟».

رد وهو يحاول أن يتماسك «أبدًا. أبدًا. كل ما فى الأمر هو فاتورة الكهرباء».

«كم تبلغ كل شهر؟».

«هذه الفاتورة وصلت إلى خمسة جنيهات وثلاثة شلنات».

هذه سرقة ممجوجة، ما يطالبون به هنا للكهرباء يكفى أن يُدفع أقل من ذلك للفاتورة ربع السنوية فى إنجلترا».

لم يكن أوبى فى حالة نفسية أو مزاجية تسمح له أن يعقد أى مقارنات تسبب التأثير المفاجئ لمطالبة التأمين فى تنبيه أوبى لطبيعة وضعه المالى الحقيقى. كان قد قام باستعراض الاحتمالات للشهور القليلة القادمة، ووجد أنهم مثيرون للفزع. فى نهاية الشهر، كان يتعين عليه أن يجدد رخصة القيادة الخاصة به. كانت السنة الكاملة أمرًا مُستبعدًا تمامًا، ولكن حتى الدفع ربع السنوى وحدَه يبلغ أربعة جنيهات. وكان هناك أيضًا أمر الإطارات، كان من المحتمل أن يؤجل تجديدهم لمدة شهر أو ما يقارب ذلك، وإن كانوا قد أصابهم بالفعل (نعومة الملمس)، ولذلك فإنهم مصدر خطر. قال الجميع إنه كان أمرًا مثيرًا للدهشة أن طاقم الإطارات الأول الخاص به لم يُستخدم أكثر من سنتين، أو بالأحرى وعلى وجه الدقة ثمانية عشر شهرًا، لم يكن يستطيع أن يشترى أربعة إطارات جديدة بمبلغ ثلاثين جنيهًا، فلذلك كان يتعين عليه أن يعيد إصلاح طاقم الإطارات الموجودة لديه بالفعل، واحدة تلو الأخرى مبتدئًا بالإطار الموجود فى شنطة السيارة. كان هذا من شأنه أن يخفّض المبلغ إلى نحو النصف. من المحتمل أن يستمروا فى الاستخدام ستة أشهر فقط، كما قالت له الآنسة توملينسون، ولكن ستة أشهر قد تكون مدة كافية لكى تتحسن الأمور ولو لبعض الشىء. لم يذكر له أحد شيئًا عن ضريبة الدخل. كان هذا الخبر سوف يصله، ولكن بعد شهرين اثنين آخرين.

بمجرد أن انتهى من تناول الغداء مباشرة شرع فى التفكير والإعداد لإجراءات تقشف مالى شامل فيما يخص شقته. وقف خادمه الجديد سباستيان جانبًا متحيرًا مما أصاب سيده. كان قد بدأ تناول غداءه بشكوى أنه كان هناك الكثير من اللحم بداخل الحساء.

قال موجهًا كلامه لخادمه «أنا لست مليونيرًا كما تعلم» ولكن يعلم الله أن كلارا كانت قد استخدمت ضعفَ هذا المقدار عندما أعَدتْ بنفسها هذا الحساءَ! كان هذا الخاطر يجول بعقل سباستيان.

أكمل أوبى كلامه «وفى المستقبل، سوف أعطيك نقودًا لكى تشترى احتياجاتك مرة واحدة أسبوعيًا».

كان كل مفتاح نور كهربائى فى الشقة يشعل لمبتين. بدأ أوبى فى تخفيض الكهرباء بهم. القاعدة التى سوف يؤخذ بها فى المستقبل هى لكل مفتاح نور مصباح واحد فقط. كثيرًا ما تعجب لماذا يجب أن يكون هناك مصباحان فى الحمام ودورة المياه. كان هذا تخطيطًا حكوميًا نموذجيًا لم يكن هناك مصباح واحد فقط على الطابق المكون من سلالم خرسانية الذى يمر بمنتصف العمارة، مما أدى إلى أن كثيرًا ما كان الناس يتصادمون بعضهم ببعض أو ينزلقون على السلالم. ومع ذلك كان هناك مصباحان فى دورة المياه، حيث لم يكن أحد يريد أن يستقصى أو ينظر مليًا فيما كان يقوم به!

بعد أن قام بالتغييرات الخاصة بالمصابيح، اتجه إلى سباستيان مرة أخرى «فى المستقبل لا تشغّل سخان المياه، سوف أستحم بماء بارد، ولازم توقف تشغل التلاجة الساعة السابعة مساءً، وبعدين تشغلها تانى الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم التالى، فهمت؟».

«حاضر يا سيدى. لكن اللحمة يقوم يفسد كده؟».

«مفيش داعى تشترى لحمة كتير مرة واحدة».

«حاضر يا سيدى».

«اشترِ قليل النهارده، لما يخلص اشترِ قليل تانى».

«حاضر يا سيدى. لكن أنت قلت أروحِ للسوق مرة واحدة كل أسبوع».

«ما قلتش أى حاجة من دى. أنا قلت حأعطيك فلوس مرة واحدة».

فهم سباستيان الآن «مش نفس الحاجة. بدل ما تعطينى فلوس مرتين، أنت قوم اعطينى فلوس مرة واحدة».

كان أوبى يعرف أنه لن يصل بعيدًا بمناقشة الأمر فى المطلق.

فى هذا المساء نشَب سوء تفاهم حاد بينه وبين كلارا. لم يكن يريد أن يقول لها عن أمر القرض الإضافى، ولكنها بمجرد أن رأته سألته ما الذى يشغل باله، حاول أن يراوغها بادعاء بعض الأعذار. ولكنه لم يكن مقنعًا، فلذلك ظهر كلامُه غيرَ متماسك. كان أسلوب كلارا فى استخلاص أى معلومة منه ليس عن طريق الجدل، ولكن بالامتناع عن الكلام، وبما أنها كانت تقوم بثلاثة أرباع الكلام عندما يكونا معًا؛ فإن الصمت يصبح لا يطاق. عندئذ يسألها ما هو الأمر، الذى عادة ما يكون تمهيدًا لعمل أى شىء تود أن تقوم به.

«لماذا لم تخبرنى؟» سألته كلارا عندما حدثها عن القرض الإضافى.

«لم يكن هناك داعٍ. سأرده ببساطة فى صورة أقساط شهرية لمدة خمسة شهور».

«ليس هذا مربط الفرس. أنت تظن أنك يجب ألا تخبرنى عندما تجابه المصاعب؟».

«ثم تواجهنى مشكلة. لم أكن قد أذكرها إذا لم تضغطى علىّ».

كان كل ما قالته ردًا على ذلك «فهمت» ثم ذهبت عبر الحجرة وأخذت مجلة نسائية تتناول شئون المرأة كانت ملقاة على الأرض، وبدأت فى القراءة.

بعد بضع دقائق، قال أوبى بنبرةِ مرحٍ مصطنعةٍ «من سوء الأدب أن تنشغلى بالقراءة عندما يكون لديك زوار».

«يجب أن تعرف أن نشأتى كانت سيئة للغاية، فلم تتم تنشأتى تنشئةً حسنةً» كانت أى إشارة إلى أهلها موضوعًا محفوفًا بالمخاطر، وعادة ما كان يفضى إلى البكاء وذرفِ الدموع. حتى الآن كانت عيناها قد بدأت تلمع.

قال وهو يضع يده حول كتفها «كلارا» كانت متوترة للغاية «كلارا». ولكنها لم تجب عليه. كانت تتصفح صفحات المجلة بطريقة آلية «أنا لا أفهم لماذا تريدين أن نتشاجر!» ولكن لم يصدر أى صوت.

«أظن أنه يجب علىّ أن أمشى».

«وأنا أيضًا أظن ذلك».

«كلارا، أنا فى غاية الأسف».

«عن ماذا؟ اتركنى أرجوك». ثم دفعت بيده بعيدًا عنها.

جلس أوبى لبضع دقائق، وهو يحملق فى الأرض.

«حسنًا» ثم نهض واقفًا، بينما ظلت كلارا فى مكانها وهى تتصفح المجلة.

«إلى اللقاء».

«وداعًا».

عندما رجع إلى الشقة أخبر سبساتيان ألا يقوم بطهى أى طعام للعشاء.

«أنا ابتديت أطبخ من شوية وقت».

صرخ فيه «ممكن توقف طبخ» ثم توجه إلى غرفة نومه، توقف لبرهة لكى يلقى نظره على صورة كلارا الموضوعة على التسريحة. أدار الصورة بحيث أصبح وجهها إلى أسفل، ثم ذهب لكى يخلع ثيابه.

ألقى بثيابه المكون من قطعة القماش على كتفه كأنه عباءة، ثم عاد مرة أخرى إلى غرفة المعيشة؛ لكى يأخذ كتابًا. تفحص الأرفف جيئةً وذهابًا مراتٍ عديدةً دون أن يقرر ماذا يقرأ، ثم استقر ناظراه على الأعمال الشعرية للشاعر «أ. إ. هاوسمان». أخرجه من على الرف ثم عاد إلى غرفة النوم. أخذ صورة كلارا مرة أخرى ثم أعادها إلى وضعها الطبيعى مرة أخرى، ثم ذهب واستلقى على السرير.

فتح الكتاب حيث وجد قطعة من الورق طرفها الأعلى متآكلٌ، ولونها بنى من كثرة تعرُّضِها للأتربة، كان مكتوبًا على الورقة قصيدة بعنوان «نيچيريا»:

«بارك الله فى موطن أجداد النيل البلاد العظيمة ذاتِ الشمس المشرقة، حيث اختار الشجعان طريقَ السلام لكى يحصلوا على حريتهم، وحاربوا ببسالة، ندعو الله أن يحفظ لنا طهارتنا وطهرنا وحماسنا للحياة الحرة، بارك الله فى بنى وطننا البواسل من ذكر وأنثى، فى كل الأماكن، وعلموهم أن يتماسكوا فى وحدة واتحاد لكى نبنى وننهض بأمتنا الغالية، متغاضين عن الإقليم أو القبيلة أو اللغة، ولكن دومًا وأبدًا قلوبنا واحدة».

كان مكتوبًا فى أسفل الورقة «لندن، يوليو ١٩٥٥». ابتسم ثم أعاد الورقة حيث وجدها، ثم بدأ فى قراءة قصيدته الأثيرة «ترنيمة عيد الفصح».

الفصل الحادى عشر

صارت علاقة أوبى بالآنسة توملينسون على خير ما يرام. بدأ فى خفض درجة الحذر تدريجيًا منذ اليوم الذى عبرت فيه عن انبهارها بكلارا، أصبح الآن يناديها باسمها «مارى» وكانت تناديه أوبى.

قالت له فى أحد الأيام «لفظ الآنسة توملينسون به تقعُّر أكثر من اللازم، لماذا لا تنادينى مجردًا بمارى؟»

«كنت أنا أيضًا سوف أقترح الشىء نفسه عليك، ولكنك لست مارى المجردة، أنت أبعد شىء عن المجردة».

قالت وهى تهز رأسها مرحًا «أوه! شكرًا» ثم وقفت وقامت بحركة تحية ساخرة.

تحدثا بقلب مفتوح عن أمور شتى. عندما لم يكن هناك عمل عاجل يجب عليها القيام به، كانت معتادة على طَىّ ذراعيها، وأن تستند بهما على الآلة الكاتبة، وتظل على هذا الوضع حتى يرفع أوبى نظره مما يقوم به لينظر إليها. كان مستر جرين هو محور أى نقاش، أو على الأقل كان السبب فى بداية هذا النقاش. وما إن يبدأ النقاش كان يأخذ أى اتجاه يعنّ له.

كان من المحتمل أن يقول «تناولت الشاى مع عائلة جرين اليوم. إنهما زوجان رائعان كما تعلم. مستر جرين يتصرف بطريقة مختلفة تمامًا فى بيته. هل تعلم أنه يقوم بدفع المصاريف المدرسية لأبناء خادمه؟ ولكنه يقول أفظع الألفاظ والمعلومات عن الأفريقيين المتعلمين».

رد عليها أوبى بقوله «أعلم ذلك. سوف يكون حالة تثير اهتمام المحلل النفسى. لقد قال لى شارلز الساعى كما تعلم إنه منذ فترة طويلة أن أ. أ. كان يسعى لطرده؛ لأنه ينام فى المكتب. ولكن عندما نمَا هذا إلى علم مستر جرين قام بنزع ورقة التحقيقات من ملف تشارلز الشخصى. قال إن هذا الإنسان البائس لا بد وأنه يعانى من الملاريا، وفى اليوم التالى اشترَى له دواء كوينا كرين لعلاج الملاريا».

كانت مارى على وشك وضع إضافة أخرى فى إعادة صياغة شخصية غريبة الأطوار عندما طلب منها مستر جرين أن تأتى لمقابلته، لكى يملى عليها بعض الأشياء. كانت على وشك أن تقول إنه مسيحى متدين للغاية يشغل منصبًا مهمًّا فى الكنيسة الاستعمارية.

كان أوبى قد اعترف بينه وبين نفسه منذ زمن ليس بقريب أنه على الرغم من كرهه الشديد لمستر جرين؛ فإن هذا الأخير كان يتحلى بصفات رائعة. خذ على سبيل المثال، تفانيه الشديد لعمله، وأيًّا ما تكون الأحوال الجوية، فإنه يكون أول الموجودين فى مكتبه بزهاء نصف الساعة قبل مواعيد العمل الرسمية، وفى أحوالٍ كثيرًا ما كان يعمل طويلاً بعد الساعة الثانية أو كان يعود للعمل لمكتبه فى المساء. لم يستطع أوبى أن يتفهم هذا. كان هذا الرجل لا يؤمن بهذا البلد الذى يعمل به، إلا أنه كان يعمل بكل ما أوتى من قوة من أجلها. هل كان ببساطة يؤمن بمبدأ الواجب بصفته ضرورة منطقية؟ كان يؤجّل الذهاب إلى طبيب الأسنان الخاص به بصفة دائمة؛ لأنه كما كان يردد دائمًا لديه أعمال ملحّة يجب عليه القيام بها. كان شأنه شأن رجل عليه أن يقوم بمهمة عظيمة وجليلة، ويجب أن يتمّها قبل أن تقع الطامة النهائية. ذكرت أوبى عما قرأه فى إحدى المرات عن محمد علىّ، والى مصر، الذى كان يعمل بكل نشاط محموم، وهو الذى بلغ مبلغ الشيخوخة لكى يقوم بتحديث بلاده قبل أن يتوفاه الله.

فى حالة مستر جرين، كان من الصعب أن يتبين المرء ما هو الفيصل، إلا إذا كان هذا الفيصل هو استقلال نيجيريا. قيل إنه كان قد قدم استقالته عندما ساد الاعتقاد أن نيجيريا قد تحصل على الاستقلال فى عام ١٩٥٦. ولكن لم يحدث هذا، وبذلك فإنه تم الضغط عليه حتى اقتنع وسحب استقالته.

جال بخاطر أوبى وهو يقوم برسم بعض الوجوه على منشفة الحبر أن مستر جرين شخصية مثيرة وغامضة. كان أحد الأشياء التى لا يتمكّن من رسمها هو ياقة القميص. نعم، كان بالفعل شخصية مثيرة للغاية. كان من الواضح أنه يحب أفريقيا، ولكن أفريقيا بشكل معين: أفريقيا التى تحتل مرتبة دونية تشغلها شخصيات مثل تشارلز الساعى، أفريقيا التى يسكنها البستانى الشاب وخادمه الشاب. لا بد وأنه عندما حضر لأول مرة كان يؤمن بمُثل عليا ومبادئ— وهو كيف يأتى بالضياء والنور إلى قلب ظلمات أفريقيا، إلى القبائل التى تطير بأعناق الرجال وهم يؤدون احتفالاتٍ غريبة وطقوسًا ما أنزل بها من سلطان. ولكن عندما حضر بالفعل إلى أفريقيا خدعته أفريقيا. أين تلك الأدغال الأثيرة لديه المليئة بالقرابين البشرية؟ كان هناك القديس جورج ممتطيًا جواده، ولكن أين كان التنين الذى سوف يقتله؟ فى عام ١٩٠٠ كان من الممكن أن يصنف مستر جرين ضمن العاملين بالإرساليات العظماء، أما فى عام ١٩٣٥ كان من الممكن أن يُقاضى عن صفع مديرى المدارس فى حضور طلبتهم، ولكن فى ١٩٥٧ كان ما يستطيع عمله فقط هو السباب وإلقاء اللعنات.

وبومضة بصيرة ثاقبة، تذكر أوبى رواية الكاتب العظيم كونراد الذى كان يتعين عليه أن يدرسها للحصول على الدرجة الجامعية. كان من أهم ما يتذكره من رواية «قلب الظلام» قول مستر كيرتز قبل أن يتمكن منه قلب الظلام «باستخدامنا لإرادتنا يمكننا أن نستحضر قوة من أجل عمل الخير الذى لا يحده أى حدود». أما بعد ذلك فى الرواية، فقد كانت تلك الكلمات تناقض سابقتها «اقضوا على كل المتوحشين». بالطبع لم تكن بالمقارنة الدقيقة فقد استسلم كيرتز للظلام، أما جرين فقد استسلم للفجر البازغ، إلا أن بدايتهما ونهايتهما كانتا متشابهتين. وجال بخاطره وهو سعيد مغتبط بهذا التحليل للرواية، يجب أن أؤلف رواية عن مأساة عائلة جرين فى هذا القرن.

فى وقت لاحق من هذا الصباح أحضر ساعٍ يعمل فى المستشفى العام لفافة له، كانت من كلارا. كان أحد أروع الأشياء عنها هو خط يدها الذى يتسم بالأنوثة الطاغية. ولكن لم يكن يشغل بال أوبى الآن التفكير فى خط اليد. كان قلبه يخفق بشدة وبعنف.

قال لساعى المستشفى الذى كان منتظرًا رده «تستطيع أن تذهب الآن». بدأ فى فتح اللفافة، ولكنه توقف مرة أخرى، يداه كانت ترتعشان. لم تكن مارى موجودة الآن فى الحجرة، ولكنها قد تحضر فى أى لحظة. خطر بباله أن يأخذ اللفافة إلى دورة المياه، وبعدها خطر له خاطر أفضل. فتح أحد الأدراج وبدأ فى فك اللفافة بداخلها، لسبب ما كان يعرف أنه على الرغم من حجم اللفافة الكبير؛ فإنها كانت بداخلها خاتمه. وبعض المال أيضًا! نعم أوراق نقدية فئة الخمسة جنيهات، ولكنه لم يرَ أى خواتم، زفَر زفرة تنم عن الراحة، ثم قرأ ما كتبته على الورقة الموجودة بالداخل.

«حبيبى:

أنا آسفة جدًا عما حدث بالأمس. اذهب إلى البنك مباشرة، وألغِ هذا القرض الإضافى. إلى اللقاء فى المساء.

مع حبى كلارا».

اغرورقت عيناه بالدموع. عندما نظر لأعلى شاهد مارى تراقبه. لم يكن حتى قد لاحظ أنها قد عادت إلى المكتب.

«ما الأمر يا أوبى؟».

قال وهو يصطنع ابتسامة «لا شىء. كنت مستغرقًا فى التفكير».

طوَى أوبى ورقة الخمسين جنيهًا بعناية، ثم وضعها فى جيبه. تساءل فى حيرة كيف تأتّى لكلارا الحصول على هذا القدر من المال؟ ولكن بالطبع؛ فإنها كانت تحصل على راتب معقول جدًا ولم تكن قد درست التمريض مُبتعثةً من أى اتحاد تقدمى. كان الحقيقى أنها تُرسل نقودًا لأهلها، ولكن كانت هذه هى كل مصروفاتها، وحتى مع الأخذ كل هذا فى الاعتبار، فإن مبلغ الخمسين جنيهًا كان مبلغًا كبيرًا.

كان طوال الطريق الذى قطعه من إيكوى إلى يابا يفكر فى الطريقة المثلى التى يستطيع أن يقنعها بها أن تأخذ المال مرة أخرى. كان يعلم أن الأمر لن يكون سهلاً. كان فى الواقع

مستحيلاً. ولكن أن يأخذ مبلغ خمسين جنيهًا منها كان هو المستحيل بعينه- من وجهة نظره. كانت المشكلة تكمن فى كيفية إقناعها أن تأخذ النقود دون أن يسبب لها أى جُرح. كان من الممكن أن يقول لها إنه قد يبدو غبيًا إذا ما أخذ قرضًا إضافيًا اليوم، ثم يقوم برده فى اليوم التالى، وأن المدير قد يعتقد أنه قد سرق المبلغ. أو قد يطلب منها أن تستبقى المبلغ حتى نهاية الشهر، عندما يحتاج إليه بالفعل. قد تسأله «لماذا لا تستبقيه أنت بنفسك؟» عندئذ سوف يرد بقوله «قد أبدد المبلغ قبل نهاية الشهر».

حينما كان أوبى يجابه بنقاش حاد مع كلارا كان يخطط لكل الحوار مسبقًا. ولكن عندما يحين الوقت للنقاش كان الأمر يأخذ مجرى ما مختلفًا تمامًا. وهذا بالضبط ما حدث فى هذه المناسبة. كانت كلارا تقوم بكىّ الملابس عندما وصل.

قالت «سوف أنتهى فى خلال لحظات. ماذا قال لك مدير البنك؟».

«كان سعيدًا للغاية».

«فى المستقبل لا تتصرف مثل صبى صغير غبى. هل تعرف المثل الشعبى عن حفر حفرة جديدة لكى نملأ واحدة قديمة؟».

«لماذا استأمنتَ هذا الشخص الماكر بهذا القدر من المال؟».

«هل تعنين جو؟ إنه صديق عزيز علىّ. إنه خادم فى عنبر».

«لم تعجبنى نظراته. ماذا عن أمر المَثل عن حفر حفرة جديدة لكى نملأ حفرة جديدة أخرى؟».

«لقد قلت دائمًا إنك يجب أن تتعلم الإيبو. المثل يعنى أنك تستدين من البنك لكى تدفع المبلغ للتأمين».

«فهمت. أنت تريدين أن تحفرى حفرتين لكى تملأى واحدة. أقترض من كلارا لكى أسدد للبنك لكى أدفع للتأمين».

لم ترد كلارا بأى كلمة.

«لم أذهب إلى البَنك؛ لأنى لا أعرف كيف أقوم بذلك، كيف أستطيع أن آخذ منك هذا القدر الكبير من المال؟».

«أرجوك يا أوبى لا تتصرف مثل صبى صغير. إنه مجرد قرض. إذا لا تريد أن تأخذه يمكنك أن ترده لى. فى الحقيقة، كنت أفكر فى هذا الأمر طوال المساء. يبدو أننى قد تدخلت فى أمورك الشخصية. كل ما أستطيع أن أقوله هو أنا آسفة جدًا. هل يوجد المال معك؟» ثم مدت يدها.

أخذ أوبى بيدها وجذبها ناحيته «لا تُسيئى فهمى يا عزيزتى».

فى هذا المساء قاما بزيارة كريستوفر، صديق أوبى المتخصص فى الاقتصاد، أصبحت كلارا الآن تتقبله وتحبه تدريجيًا. قد يكون متمتعًا بقدر كبير من الحيوية أكثر مما ينبغى، والتى لا تمثل على أى حال خطأ جسيما. ولكنها كانت تخشى أن يكون له تأثير سلبى على أوبى فى أمور العلاقات النسائية، فقد كان يستمتع بمصاحبة أربع أو خمس نساء فى وقت واحد. كان يقول إنه لا يوجد أى شىء يعادل الحب، على الأقل فى نيچيريا. ولكنه فى حقيقة الأمر كان شخصًا محبوبًا، على خلاف جوزيف، الذى كان شخصًا كئيبًا.

وكما هو متوقع فقد كان كريستوفر يصطحب معه فتاة عندما حضر كلارا وأوبى. لم تكن كلارا قد قابلت هذه الفتاة من قبلُ، ولكن كان من الواضح أن أوبى قد قابلها.

قال كريستوفر «كلارا، أقدم لك بيسى» تصافحت الفتاتان وقالتا «تشرفنا» «كلارا وأوبى...».

أكملت كلارا كلامه بقولها «اخرس»، ولكنها بدت كأنها محاولة إكمال جملة يقولها شخص يتلعثم. كان من الأفضل ألا يكلف المرء نفسه هذه المشقة.

أكمل كريستوفر الكلام «هى كما يمكنك أن تستنتجى حبيبة أوبى».

سألته كلارا وهى تستعرض كومة صغيرة من الأسطوانات الموسيقية الموضوعة على أحد الكراسى «هل اشتريت أسطوانات حديثة مؤخرًا؟».

«أنا؟ فى هذا التوقيت من الشهر؟ إنهم يخصون بيسى. ماذا تريدين أن تشربى؟».

«شمبانيا».

«آه! أوبى، روح اشترى الحاجة دى لك. أنا مش أوصل للدرجة دى لسه» ثم انفجروا فى الضحك.

«أوبى، هل تريد أن تشرب البيرة؟».

«إذا اقتسمت زجاجة معى».

«حسنًا. ماذا تفعلون يا جماعة هذا المساء؟ نذهب للرقص فى أى مكان؟».

حاول أوبى أن يجد أعذارًا، ولكن كلارا قامت بمقاطعته بموافقتها قائلة: «نعم سوف يذهبون».

إلا أن بيسى قالت «نفسى أتفرج على فيلم».

«بصى يا بيسى. احنا مش مهتمين أنت عايزه إيه. أنا وأوبى اللى حنحدد. احنا فى أفريقيا، أظن إنك فاهمة».

كان تحدث كريستوفر بلغة إنجليزية سليمة أو «مكسورة» يعتمد على ماذا سوف يقوله، وأين يقوله، وإلى مَن يوجه الكلام، وكيف يريد أن يقول الكلام. بالطبع: فإن هذا كان إلى حد كبير صحيحًا فيما يخص الكثير من الأشخاص المتعلمين، خاصة فى أمسيات يوم السبت. ولكن كريستوفر كان مميزًا بصفة خاصة فى عمل مواءمة المستويين الاثنين من اللغة، بحيث يحدِث تأثيرين مزدوجين.

استعار أوبى ربطة عنق من كريستوفر. ليس لأنه كان يعنيه ظهوره بمظهر محترم فى مرقص الإمبريال ، حيث اختاروا أن يذهبوا، ولكنه لم يشأ أن يظهر بمظهر الفتى الشحاذ.

«هل نذهب كلنا فى سيارتك يا أوبى؟ مضى وقت طويل منذ كان عندى سائق».

«نعم، فلنذهب جميعًا معًا. على الرغم أن الأمر سوف يكون عسيرًا بعد الرقص أن أوصل بيسى لبيتها، ثم كلارا، ثم أنت. ولكن لا يهم».

رد عليه كريستوفر قائلاً «لا. أفضل أن أحضر سيارتى». ثم قام بعد ذلك بهمس بعض الكلمات فى أُذن أوبى، مؤداه أنه لم يكن يفكر بالفعل فى توصيل بيسى إلى بيتها، وكان هذا الأمر واضحًا جليًا.

تساءلت كلارا «بماذا تهمس له؟».

رد كريستوفر «هذا أمر يخص الرجال فقط».

لم يكن هناك إلا مكان محدود للغاية خاص بوقوف السيارات عند ملهى الإمبريال، حيث كانت هناك سيارات كثيرة بالفعل. بعد مناورات عدة تمكن أوبى من حشر سيارته بين سيارتين، وكان الذين يقومون بتوجيه هذه المناورات بعض صبية الشوارع الذين كانوا موجودين فى المكان الذين لا يستر أجسادهم إلا أقل القليل.

تعالت أصوات ثلاثة منهم فيما يشبه الكورس أو النشيد الجماعى «عاوز أنا أخَلى بالى من عربيتك».

رد عليهم أوبى بدون تحديد أى منهم «طيب، طيب! خلّوا بالكم من العربية كويس قوى».

قال بصوت هادئ منخفض لكلارا «أحكمى إغلاق بابك».

«أنا أخَلى بالى كويس قوى» قالها أحد الصبية وهو يعبر أمام أوبى حتى يتمكن الأخير من مشاهدته ورؤيته جيدًا بصفته الشخص الصحيح الذى يستحق أن ينال «بقشيشًا» يبلغ ثلاثة بنسات عندما يخرجون من المرقص. وكمسألة مبدأ، لم يكن أوبى يعطى أى نقود لهؤلاء الأحداث المشردين. ولكنه لم يكن من الحكمة أن يصرح لهم بذلك الآن ثم تترك لهم سيارتك تحت رحمتهم.

كان كريستوفر وبيسى ينتظرانهما بالفعل عند البوابة. لم يكن المكان مزدحمًا كما كانوا يتوقعون. فى الواقع كانت حلبة الرقص خاوية بالفعل، ولكن كان السبب يرجع إلى أن الفرقة الموسيقية تعزف لحن الفالس الهادئ. وجد كريستوفر مائدة وكرسيين فجلست الفتاتان.

قالت كلارا «إنكما لن تقفا طوال المساء. قل لأحد الخدم أن يُحضر لكما كرسيين».

قال كريستوفر «لا عليك. سوف نحضر لأنفسنا كرسيين بعد قليل».

لم يكد يُكمل هذه الجملة حتى بدأت الفرقة الموسيقية فى عزف لحن مرح سريعًا. فى أقل من ثلاثين ثانية تم غزو حلبة الرقص. كان هؤلاء الناس الذين يحتسون البيرة والذين فوجئوا بهذا التغيير المفاجئ فى إيقاع الموسيقى إما تخلصوا من أكوابهم بوضعها جانبًا أو ابتلعوا البيرة فى عُجالة. أما بالنسبة للسجائر التى لم يُنتهوا من تدخينها، وحسب حالة المدخّن، فإنه إما أنه ألقى ببقايا السجائر على الأرض وقام بدهسها، أو أطفأها بعناية تامة لكى يُكمل تدخينها بعد ذلك.

تحرك كريستوفر عبر ثلاث أو أربع موائد ثم أمسك كرسيين بقوة كان قد تم إخلاؤهما فى التو.

قال أوبى بينما كان يُمسك بأحد الكراسى «إنك شخص دنيء وحقير». كانت بيسى تهتز وتتراقص، وهى جالسة على كرسيها، وهى تغنى مع المُغنّى

الفستان النايلون فستان جميل

الفستان النايلون فستان لبنات بلدى

لو عايز تخلى حبيبتك فرحانة

اشترى فستان نايلون لها.

قال أوبى «نحن نضيع على أنفسنا رقصة ممتعة».

«لماذا لا تذهب وترقص مع بيسى. سوف أظل أنا وكلارا نراقب الكراسى الفارغة».

قال أوبى وهو يقف «هيا بنا» كانت بيسى بالفعل قد وقفت وعيناها مصوبتان على المشهد من بعيد.

لو عايز تخلى حبيبتك فرحانة

روح للمحل واشترى لها دستة نايلون

مش حتروح لأى حد غيرك

النايلون كويس علشانها.

كانت الرقصة التالية أيضًا رقصة مرحة سريعة، فى الواقع؛ فإن معظم الرقصات كانت مرحة سريعة. على فترات كانت الفرقة تعزف لحن ڤالس هادئًا، أو لحن البلوز للأفارقة الأمريكيين من أصل أفريقى، والذى يتسم بالحزن حتى يعطوا فرصة للراقصين لالتقاط الأنفاس، ويشربوا البيرة أو يدخنوا. رقص كريستوفر وكلارا بعد ذلك بينما كانت بيسى وأوبى يرقبان الكراسى الخاصة بهم، إلا أن بعد فترة قصيرة كان أوبى فقط هو الذى يقوم بذلك، حيث طلب أحدهم من بيسى أن تراقصه.

كانت هناك أساليب كثيرة لأداء هذه الرقصات المفعمة بالحيوية بنفس عدد الأشخاص الذين يرقصون فى حلبة الرقص. ولكن بوجه عام، كانت هناك ثلاثة أنماط يمكن تبيّنهم. كان هناك أربعة أوروبيون أو خمسة يرقصون بطريقة تذكر المرء بالسينما الصامتة فى أيامها الأولى. كانوا يتحركون فى شكل مثلثات فى رقصة غريبة كانت فى الأصل مصممة للرقص فى دوائر، كان هناك آخرون لم يقوموا بحركات حقيقية إلا فى أضيق الحدود. كانوا يحتضنون رفيقاتهم فى الرقص متلاصقين أشد الالتصاق، حتى تسرى الحركات من الراقص للراقصة، ثم تسرى الحركات بدورها من الراقصة للراقص. كانت آخر مجموعة هو ما يمكن تسميتها «مجموعة المفعمين بالنشوة». كانوا يرقصون متباعدين عن بعضهم البعض، وهم يدورون حول أنفسهم، أو يتمايلون أو يقومون بحركات معقدة بأرجلهم وخصورهم. كان هؤلاء هم الخدم الجيدون الذين توصلوا إلى الحرية الحقيقية. أمسك المغنى بالميكرفون وقرّبه من شفتيه لكى يغنى «السيد المحترم بوبى»

كنت أداعب وألعب على الجيتار

عندما قبلتني سيدة

لم يعجب ذلك زوجها

فاضطر أن يجذب زوجته للخارج

يا سادة أرجوكم أمسكوا بزوجاتكم

يا كل أب يا كل أم، أرجوكم أمسكوا بناتكم

فالنشوة رائعة جدًا

إذا أخذتهم النشوة، لا تلقوا باللوم على بوبى.

تعالت الصيحات والتصفيق بعد هذه الأغنية، مما أوحى أنه يجب ألا يلقى أحد باللوم على السيد المحترم بوبى. ولماذا عساهم يفعلون ذلك؟ كان يلعب بأوتار الجيتار– بهدوء وباتزان وحتى بدون أن يلاحظه أحد وبأسلوب محترم للغاية عندما قررت سيدة أن تطبع قُبلة على وجهه. كانت بلوزتها النايلون فى الواقع شفافة للغاية، كاشفة عن ملابسها الداخلية. لم تكن قد رقصت الرقصة السابقة. ردت على الرجل الذى سألها «بدون وقود لا توجد نار» والذى كان من الواضح أنها تعنى أنه بدون بيرة لا يوجد رقص. اتجه الرجل إلى المائدة التى يجلس عليها أوبى، وطلب من بيسى أن تراقصه، ولكن لم يكن هناك أى إيحاء أنه قد تكون هذه علاقة دائمة. والآن وبما أنه لم يكن هناك أحد يرقص صاحت السيدة قائلة بصوت عالٍ حتى يسمعها الجميع «هذه المائدة جافة».

عندما دقت الساعة الثانية نهض أوبى ورفاقه لمغادرة المكان، على الرغم من عدم رغبة بيسى ذلك. قام كريستوفر بتذكيرها أنها قد اختارت سابقًا أن يذهبوا لمشاهدة أحد الأفلام التى ينتهى عرضها فى الساعة الحادية عشرة. أجابت إن هذا لم يكن بالسبب الذى يدعوهم أن يغادروا المكان الآن عندما أصبحت تلفها حمىَ الحماسة. كانت سيارة كريستوفر تقف على بعد مسافة كبيرة، فلذلك قالوا «تصبحون على خير» خارج البوابة، ثم افترقوا.

فتح أوبى ناحية السائق بالمفتاح ودخل ثم مال ناحية الباب الآخر حتى يتسنى أن يفتح الباب لكلارا، ولكن باب كلارا كان غير مغلق.

«كنت أظن أنك قمت بإغلاق الباب».

قالت «نعم، فعلت ذلك».

تملك أوبى الرعب وقال «يا إلهى! يا الله!».

«ماذا حدث؟» اعترت كلارا الآن حالة من الفزع.

«نقودك».

«أين هى؟ أين تركتهم؟»

أشار إلى صندوق القفازات الذى أصبح خاويًا الآن. حملقا صوْبَه وهما صامتان. فتح بابه بهدوء، ثم خرج ونظر بشرود إلى الأرض، ثم استند على السيارة. كان الشارع الآن مهجورًا تمامًا. فتحت كلارا الباب وخرجت هى أيضًا. اتجهت ناحيته، ثم أخذت يديه بين يديها، وقالت «هيا نذهب» كان يرتجف. قالت مرة أخرى «دعنا نذهب من هنا»، بينما كانت تفتح بابه لكى يدخل السيارة.

الفصل الثانى عشر

بعد عيد الميلاد تلقى أوبى رسالة من والده تخبره أن أمه قد عاودها المرضُ من جديد، وقد نقلوها إلى المستشفى، ويسأله فيها متى سيحضر إلى بلدته فى إجازة، كما وعدهم من قبلُ. كان يأمل أن يكون ذلك قريبًا جدًّا؛ لأنه لا بد أن يناقشه فى أمر طارئ.

كان من الواضح أن الأخبار عن كلارا قد وصلتهم، فقد كتب أوبى منذ شهور عدة أن هناك فتاة يهتم بها، وأنه سوف يخبرهم بأمرها عندما يأتى فى إجازة تمتد أسبوعين. لم يكن قد أخبرهم أنها من الأوسو. ولم يكن من الممكن له أن يخبرهم كتابةً عن أمور مثل تلك، فقد كان لا بد أن يتناولها المرء بمنتهى الحذر، ويخبرهم بها بالتدريج فى أثناء حديثهم مع بعضهم البعض. ولكن كان يبدو الآن أن شخصًا آخر قد أخبرهم بذلك.

طوى الخطاب بعناية ثم وضعه فى جيب قميصه، وحاول ألا يفكر فى هذا الأمر، خاصة فيما يتعلق بشأن مرض أمه. كان يبذل قصارى جهده أن يركز على الملف الذى يقرأه، ولكنه كان يقرأ كل سطر خمس مرات، وحتى بعد أن يفعل ذلك لم يكن يستوعب ما يقرأه. أمسك بسماعة التليفون ليتحدث مع كلارا فى المستشفى، ولكن عندما طلب منه عامل التليفون الرقم، أغلق الخط وأنهى المكالمة. كانت مارى تكتب على الآلة الكاتبة بطريقة منتظمة وبثبات، فقد كان لديها عمل كثير لكى تنجزه قبل انعقاد المجلس فى الأسبوع المقبل. كانت تتميز بالمهارة الفائقة فى الكتابة على الآلة الكاتبة، حتى إن مفاتيح الحروف بدت كأنها لا تدق منفردة.

كان مستر جرين فى بعض الأحيان يطلب مارى لكى يُملى عليها بعض الملحوظات، وفى أحيان أخرى كان يحضر بنفسه لكى يعطيها إياها لتقوم بكتابتها. كان الأمر يتوقف على مزاجه حينذاك. خرج من مكتبه الآن.

«من فضلك اكتبى ما أمليه عليك فى رد سريع على هذا الخطاب (سيدى العزيز، بالإشارة إلى خطابكم المؤرخ- وأيًا ما كان التاريخ- أود أن أخبركم أن الحكومة تقوم بدفع المخصصات المالية للتابعين من أمثال الزوجات الشرعيات للمبتعثين الحكوميين وليس لصديقاتهم...) من فضلك اقرئى علىّ ما أمليتُه عليكِ»، قامت مارى بذلك بينما كان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم قال «بدّلى كلمة الحكومة للمرة الثانية لكلمة تفيد الملكية». قامت مارى بالتغيير المطلوب ثم نظرت إلى أعلى.

«هذا كل ما فى الأمر خادمكم المطيع، أنا»، كان مستر جرين دائمًا ما يُنهى خطاباته بتلك الطريقة، ذاكرًا كلمة «خادمكم المطيع» بأسلوب استهزاء واحتقار. ثم التفت إلى أوبى قائلاً «هل تعلم يا أوكنكو، لقد عشت فى بلادكم قرابة الخمس عشرة سنة، ومع ذلك فأنا حتى لا أستطيع أن أبدأ فى فهم عقلية ما يسمى بالنيچيرى المتعلم. فعلى سبيل المثال، هذا الشاب المبتعث إلى يونيفرسيتى كولدج، الذى يتوقع من الحكومة أن تقوم بالإنفاق عليه من حيث المصاريف الجامعية والمخصصات المالية السخية، وأن توجد له وظيفةً سهلةً ومريحة بانقضاء فترة دراسته، ولكن أيضًا تقوم بالإنفاق على خطيبة أو زوجة المستقبل. شىء لا يصدق بتاتًا! أعتقد أن الحكومة ترتكب خطأً جسيمًا يجعل ما يسمى الدراسة الجامعية أمرًا سهلاً للغاية لأمثال هؤلاء الناس. التعليم من أجل أى هدف؟ لكى يأخذوا أقصى ما يستطيعون الحصول عليه هم وعائلاتهم غير مبالين بالمرة بأمر الملايين من بنى شعبهم، الذين يموتون كل يوم من الجوع والمرض».

صدرت من أوبى بعض الأصوات الغامضة.

قال مستر جرين «بالطبع لا أتوقع منك أن توافقنى على ما أقوله» ثم اختفى بعد ذلك.

قام أوبى بالاتصال بكريستوفر، ثم اتفقا على الذهاب للعب التنس عصر هذا اليوم مع مدرسين كانا قد وصلا لتوهما لدير رهبان من الكاثوليك الرومان فى أبابا. لم يكتشف قط كيف تأتّى لكريستوفر أن يتعرف عليهما. كل ما توصل إليه أنه منذ تقريبًا أسبوعين كان قد طُلب منه أن يحضر لرؤية شقة كريستوفر، ولمقابلة فتاتين من أيرلندا كانتا تبديان اهتمامًا غير عادى بنيچيريا. عندما وصل أوبى هناك تقريبًا الساعة السادسة كان كريستوفر يقوم

بالفعل بتعليمهما بالتناوب كيف يرقص رقصة الحياة المفعمة. كان من الواضح أنه شعر بارتياح لمجيء أوبى. فقد اختار بطريقة مباشرة أجمل الفتاتين، وترك الأخرى لأوبى. لم يكن هناك شيء يعيبها إلا عندما تبدأ فى الابتسام. ومن سوء الحظ أنها كانت تبتسم بصورة متكررة. ولكن فيما عدا ذلك فإنها لم تكن بهذا السوء، وعلى أى حال، كان الظلام سوف يحل بعد فترة وجيزة فلن يرى شيئًا.

كانت الفتاتان بالفعل مهتمتين بنيچيريا، وكانتا قد تعلمتا كلماتٍ قليلةً من لغة قبيلة اليوروبا، على الرغم أنهما كانتا قد وصلتا إلى نيچيريا منذ نحو ثلاثة أسابيع فقط. كانتا مناهضتين للإنجليز أكثر من أوبى نفسه، مما جعله يشعر بشعور عدم ارتياح.

ولكن كلما مرت ساعات المساء شعر بالإعجاب نحوهن أكثر فأكثر، خاصة الفتاة الموكلة إليه.

تناولوا العشاء المكون من طعام مقلى، بالإضافة إلى الخَضراوات واللحوم. قالت الفتاتان إنهما استمتعا بتناول هذا الطعام أيما استمتاع، على الرغم أنه كان من الواضح من السوائل المتدفقة من عينيهما وأنفسيهما أن مقدار الفلفل فى الأكل قد تجاوز كل الحدود المسموح بها.

استأنفوا الرقص بعد ذلك مباشرة فى حالة شبه إظلام، وفى صمت تام إلا عندما كانوا يغيظ أحدهما الآخر، بقولهم «لماذا تصمتان أنتما الاثنان؟» أو «تحركا، لا تلزما مكانًا واحدًا طوال الوقت».

بعد مناوشات تمهيدية قليلة حظى أوبى بما يشبه القُبلتين، ولكن عندما حاول القيام بتصرف أكثر جرأة همست نورا بحدة «كلا! الكاثوليك غير مسموح لهم بالقبل بمثل هذه الطريقة».

«ولماذا لا؟».

«إنها خطيئة».

«يا له من شيء غريب!».

استمرا في الرقص، وهما يتبادلان القبلات مثل ذي قبل.

قبل أن يقلاهما إلى بيتهما عند نحو الساعة الحادية عشرة وعَد أوبي وكريستوفر أن يأخذاهما ذات مساء للعب التنس. كانوا قد ذهبوا مرتين متتاليتين، ولكن بعد ذلك ظهرت أشياء أخرى استحوذت على اهتمامهم. تذكرهما مرة أخرى؛ لأنه كان يريد شيئًا، مثل مباراة تنس تشغل باله في الأمسيات، وربما تؤدي إلى إجهاده بطريقة تبعث النوم في عينيه في المساء.

بمجرد أن توقفت سيارة كريستوفر، ظهرت راهبة أم في زي الراهبات الأبيض المميز عند باب الكنيسة الملحقة بالدير. أشار أوبي لكريستوفر لتنبيهه إلى هذا الحدث. كانت الراهبة على بعد مسافة كبيرة منهما بحيث لم يستطيعا أن يتبينا التعبيرات على وجهها، ولكنه شعر أنها تنم عن عدوانية. كانت الفتيات ينلن فترة راحة الظهيرة، ولهذا كان السكون يلف الدير. صعدا السلم المؤدي إلى الشقة الخاصة بنورا وبات التي تقع فوق الفصول، بينما كانت الراهبة الأم تتابعهما بعينيها حتى اختفيا في غرفة المعيشة.

كانت الفتاتان تتناولان الشاي والكيك، ظهرت علامات السرور على وجهيهما لرؤية الزوار، وإن كانت هذه العلامات ليست بنفس القدر المعتاد. فقد كان تبدو عليهما بعض علامات الحرج.

قالتا في نَفَس واحد، كما لو أنهما قد قامتا بالتدريب على جملة واحدة «تفضلا، اشربا الشاي»، حتى قبل أن يستقر ضيفاهما تمامًا في مقعدهما. احتسيا الشاي فيما يشبه الصمت التام. على الرغم أن أوبي وكريستوفر كانا يرتديان الثياب الرياضية الخاصة بالتنس، وكانا يحملان مضارب التنس، فإن الفتاتين لم تذكرا شيئًا عن لعب التنس. بعد تناول الشاي ظلا في أماكنهما، محاولين باستماتة أن يظل الحوار دائرًا بأي صورة.

سأل كريستوفر عندما رأى أن الحوار قد وصل إلى النهاية «ما رأيكم في لعب التنس؟» كانت هناك فترة صمت، ثم شرحت نورا بطريقة مبسطة تمامًا وبدون أي مواربة

أو اعتذارات واهية، أن الراهبة الأم قد تحدثت معهما حديثًا جادًا عن لقائهما بشباب أفريقيين. كانت قد حذرتهما أنه لو نما إلى علم أى شخص عن هذا الأمر؛ فإنهما سوف يجدان أنفسهما قد أرسلتان عائدتين إلى أيرلندا.

قالت «بات أن الأمر برمته سخيف، ويدعو للسخرية»، واستخدمت كلمة محرّفة ككلمة «سخيف» مما دعا أوبى للابتسام بينه وبين نفسه.

«ولكننا لا نريد أن يرسلانا إلى أيرلندا».

تعهدت نورا بأن تقوم بزيارة دورية «للأولاد» فى إيكوى. ولكن أفضل شىء ممكن عمله الآن هو ألا يحضرا إلى الدير؛ لأن الراهبة الأم والراهبات الأخريات كن يراقبن الموقف عن كَثب.

سألهما كريستوفر «وماذا عنكما أنتما الاثنتان؟ هل أنتما بناتهم؟» إلا أن سؤاله لم يُقابل بالاستحسان أو بالقبول، وسَرْعان ما انتهت الزيارة بعد ذلك.

قال كريستوفر بمجرد أن وصلَا إلى السيارة «كما ترى! ويطلقون على أنفسهما عاملين بالإرسالية».

«وماذا تتوقع من الفتيات البائسات أن يفعلن؟».

«لم أكن أفكر فيهما. أنا أعنى الراهبة الأم والأخوات والآباء والأطفال».

وجد أوبى نفسه يؤدى دورًا غير معتاد فى الدفاع عن الكاثوليك الرومان.

فى طريق عودتهما للمنزل توقفا لكى يسلما على أحدث صديقاته، اسمها فلورنس. كان مأخوذًا مبهورًا بها لدرجة أنه كان يفكر جديًا فى الزواج منها. ولكن هذا الأمر كان مستحيلاً؛ لأن الفتاة كانت ستذهب إلى إنجلترا فى سبتمبر المقبل لتتعلم التمريض. كانت بالخارج عندما وصلا إلى بيتها، فترك كريستوفر لها رسالة قصيرة.

قال كريستوفر «لم أقابل بيسى لمدة طويلة» فلذلك ذهبا إليها، إلا أنها هى أيضًا كانت بالخارج.

قال أوبى «يا له من يوم للقيام بالزيارات! من الأجدر بنا أن نرجع إلى بيتنا».

تحدث كريستوفر عن فلورنس طوال الطريق. هل يجب عليه أن يحاول أن يثنيها عن الذهاب إلى إنجلترا؟

رد أوبى عليه بقوله «ما كنت لأفعل ذلك إذا كنت مكانك» حدثه عن رجل دين إنجيلى كان يعيش فى أموفيا منذ زمن طويل عندما كان أوبى لا يزال صبيًّا، كانت زوجة الرجل صديقة مقربة من أم أوبى، وكثيرًا ما قامت بزيارتهم. فى أحد الأيام سمعها تقول لأمه كيف توقف تعليمها عند المستوى الأول؛ لأن زوجها كان مشتاقًا لإتمام زواجه منها. كانت نبرات صوتها تقطر إحساسًا بالمرارة على الرغم من أن هذا الأمر كان قد حدث من أكثر من عشرين عامًا. تذكَّر أوبى تلك الزيارة تحديدًا بصورة واضحة للغاية؛ لأنها حدثت أحد أيام السبت. وفى صباح اليوم التالى، لم يتمكن الكاهن من إقامة القداس؛ لأن زوجته شجّت رأسه بيد الهاون الخشبى، الذى يُستخدم فى سحق بندق اليام، ولذلك طُلب من والد أوبى بصفته كاهنًا متقاعدًا أن يقيم القداس.

«الحديث عن السفر لإنجلترا يذكّرنى بفتاة قامت بعرض نفسها علىّ. هل قصصت عليك هذه القصة؟».

«كلا».

قص أوبى عليه قصة الآنسة مارك، بادئًا بزيارة أخيها لمكتبه.

«وماذا حدث لها فى نهاية الأمر؟».

«أوه، إنها الآن فى إنجلترا. لقد نالت المنحة على أى حال».

قال له كريستوفر «أنت أكبر مغفل فى نيجيريا» ثم انبرى فى مناقشة مطولة عن طبيعة الرشوة.

قال كريستوفر «إذا عرضت عليك فتاة أن تقيم علاقة معك، فإن هذا لا يعتبر رشوة».

رد أوبى قائلاً «لا تكن سخيفًا. هل تعنى أنك لا تستطيع بأمانة أن ترى أى خطأ فى استغلال فتاة صغيرة متخرجة لتوها من المدرسة، وتريد أن تلتحق بالجامعة؟».

«أنت شخص رومانسى، ففتاة تتصرف بهذا الأسلوب ليست فتاة صغيرة بريئة. هذه تشبه قصة الفتاة التى أُعطيت استمارة لتملأها، فكتبت اسمها وعمرها، ولكن عندما بدأت فى ملء خانة الجنس كتبت «مرتان أسبوعيًا» مما دعا أوبى للضحك ملء شِدقيه.

«لا تتخيل أن الفتيات ملائكة».

«لم أكن أتخيل ولم يخطر ببالى أى شىء من هذا القبيل. ولكنها فضيحة أن شخصًا قد نال ما نلت من التعليم لا يمكنه أن يرى أى غضاضة فى أن يقيم علاقة مع فتاة قبل أن يسمح لها أن تظهر أمام لجنة الامتحان».

«هذه الفتاة كانت ستظهر أمام اللجنة على أى حال. كان كل ما توقعته منك أن تفعله أن تتأكد أنها سوف تظهر أمام اللجنة. وكيف يمكنك أن تتأكد أنها لم تقم علاقات مع أعضاء اللجنة؟».

«قد تكون فعلت ذلك فعلاً».

«حسنًا، كيف أفدتها إذن؟»».

رد أوبى وهو يحاول أن يعيد ترتيب أفكاره «يجب أن أعترف أنى لم أفعل الكثير لها. ولكن ربما قد تتذكر أنه يوجد على الأقل رجل واحد لم يستغل منصبه».

«ولكنها على الأرجح تعتقد أنك عاجز».

تلا ذلك فترة صمت قصيرة.

«والآن قل لى يا كريستوفر، ما تعريفك للرشوة؟».

«حسنًا، دعنا نفكر: هو استخدام النفوذ والتأثير بصورة غير لائقة».

«حسنًا، أنا أظن كذلك».

«ولكن مربط الفرس هو أنه لم يكن هناك أى تأثير أبدًا. الفتاة كانت سوف يتم اختبارها على أى حال، لقد حضرت الفتاة من تلقاء نفسها لكى تستمتع بوقتها. أنا لا يمكننى أن أرى أن الأمر يتضمن أى رشوة على الإطلاق».

«بالطبع. أنا أعلم أنك لست جادًّا».

«أنا جاد جدًّا».

«ولكننى مندهش أنك لا تستطيع أن ترى أنه بنفس المنطق يمكنك الحصول على المال. إذا ما حدث أن المتقدم للوظيفة حصل على تلك الوظيفة فعلا على أى حال، فلا ضرر أو بأس منْ الحصول على مال منه».

«حسنًا...».

«حسنًا، ماذا؟».

«كما ترى، فإن الفارق هو هذا» ثم توقف بُرهة، واستكمل بعدها «دعنا نعبر عنها بالطريقة الآتية. لا يريد أى شخص أن يضحى بأمواله. إذا ما حصلت على المال من رجل، فإنك بذلك تجعله أشد فقرًا، ولكنك إذا ما أقمت علاقة مع فتاة ما وطلبتْ منك المالَ فى مقابل ذلك، فأنا لا أرى أى خير فى ذلك».

استكملا مناقشتهما خلال وجبة العشاء وبعدها حتى مضت ساعات طويلة من الليل. ولكن بمجرد أن خلد كريستوفر لفراشه، عاودت أوبى أفكاره الخاصة بالخطاب الذى تلقاه من والده.

الفصل الثالث عشر

تم منح أوبى إجازة أسبوعين من العاشر حتى الرابع والعشرين من فبراير. فقرر أن يسافر يوم الحادى عشر فى ساعات اليوم الباكرة إلى أموفيا، ثم يبيت ليلته فى بنين ثم يتم رحلته فى اليوم التالى. قامت كلارا بتغيير وردية العمل الخاصة بها مع ممرضة أخرى حتى تتمكن من مساعدته فى ترتيب حقيبة سفره. أمضت كلارا طوال اليوم– والليل – فى شقة أوبى.

عندما كانا على وشك الخلود للنوم قالت له إنها لديها شىء تود أن تخبره به ثم انخرطت فى البكاء. لم يتعلم قط أوبى كيف يتعامل مع الدموع، فقد كان دائمًا ما يعتريه الهلع كلما رأى دموعًا منسكبة، سألها «ما الأمر يا كلارا؟» ولكنه تلقى دموعًا ساخنة على ذراعه التى وضعها بين رأسها والوسادة. بكت كلارا فى صمت، ولكن أوبى استشعر من اهتزاز جسدها أنها كانت تبكى بعنف وبحرقة. ظل يسألها «ما الأمر؟ ما الأمر؟» ويتزايد إحساسه بالفزع كلما ازداد صمتها.

قالت «عن إذنك» ثم قامت إلى التسريحة حيث كانت حقيبة يدها، ثم أخرجت منها منديلاً ومسحت أنفها، ثم ذهبت مرة أخرى إلى السرير ومعها المنديل ثم جلست على حافة السرير.

قال لها أوبى وهو يجذبها برفق نحوه "هيا، تعالى وقولى ما الأمر؟» قبّلها ولكنها كانت قُبلة بطعم الملح. تساءل مرة أخرى «ما الأمر؟».

قالت كلارا إنها آسفة جدًا أن تخذله فى هذا الوقت المتأخر، ولكنها قالت إن الأمر سيكون لصالح الجميع إذا ما فسخا خطبتهما الآن، التاع أوبى بشدة، ولكنه لم ينبس ببنت شَفة لفترة طويلة، بعد ذلك كررت كلارا أنها آسفة جدًا ثم تلا ذلك فترة صمت طويلة أخرى.

ثم قال أوبى «أنا أتفهم ذلك... أنا لا ألومك بالمرة» كان يريد أن يضيف «لماذا تفسدين حياتك مع شخص لا يمكنه تدبير النفقات اللازمة لحياته؟» ولكنه لم يشأ أن يبدو عاطفيًا أكثر من اللازم، فلذا قال بدلاً من ذلك «شكرًا جزيلاً على كل شىء». انتصب جالسًا على السرير ثم نهض تمامًا ثم بدأ فى ذرع الحجرة جيئةً وذهابًا وهو مرتد البيجاما. كان الظلام يلف المكان بحيث لم تتمكن كلارا من رؤية وجهه، مما زاد من توتر الموقف. ولكنه سرعان ما أيقن أنه لو كان أى شخص آخر قد قام بهذا الفعل لكان قد اعتبرها حركة مسرحية رخيصة، ولذلك توقف وعاد مرة أخرى إلى السرير، وأن يبقى بعيدًا عن كلارا. ولكن بعد فترة قصيرة اقتنع بأن يدنو بالقرب منها وأن يتحدث إليها.

توسلت إليه كلارا ألا يسىء فَهم مقصدها. قالت إنها تقوم بهذه الخطوة الآن لأنها لم تشأ أن تدمر حياته، قائلة «لقد تمعنت فى التفكير فى هذا الأمر. هناك سببان يدعوان لعدم إتمام زواجنا».

«وما هذه الأسباب؟».

«حسنًا، أول تلك الأسباب هى أن عائلتك سوف تعارض هذا الزواج. وأنا لا أرغب أن أتسبب فى أى شقاق بينك وبين عائلتك».

«هراء! على أى حال، وما السبب الثانى؟» لم تستطع أن تتذكر ما هو السبب الثانى. لا يهم، فقد كان السبب الأول يكفى.

قال لها أوبى «سوف أقول لك ما السبب الثانى».

«وما هو؟».

«أنت لا تريدين أن ترتبطى بشخص يتعين عليه أن يستدين نقودًا لكى يسدد أقساط التأمين». كان يعلم أنه اتهام كاذب وظالم ظلمًا صارخًا، ولكنه كان يريد أن تكون فى موقف دفاعى. كانت على وشك البكاء مرة أخرى، جذبها ناحيته ثم بدأ يقبلها بعنف. وسرعان ما تجاوبت معه بطريقة مماثلة «كلا، كلا، كلا!... يجب أن تعتذر أولاً عما قلته».

«أنا آسف جدًا عزيزتى».

«حسنًا، لقد غفرت لك. كلا! انتظر فقط لحظة».

خرج أوبى قبل السادسة صباحًا بقليل جدًا، لو لم تكن كلارا موجودة لمّا كان استطاع أن يستيقظ فى هذه الساعة المبكرة من الصباح، أى فى الخامسة والنصف. كان يشعر بخواء قليل فى رأسه بينما كانت عيناه مثقلتين بالنعاس. أخذ حمامًا باردًا، بادئًا بغسل ذراعيه ورجليه، ثم رأسه ثم بطنه ثم ظهره بهذا الترتيب. كان يكره الحمامات الباردة، ولكنه لم يستطع دفع تكاليف الكهرباء فلذلك لم يفتح السخان الكهربائى، وخطر له خاطر بينما كان يجفف نفسه أنه ليس هناك أدنى شك أن الحمام البارد له تأثير السحر فى إضفاء الانتعاش على الشخص الذى يستحم، ومثله مثل البكاء، فإن البداية فقط هى التى تمثل الصعوبة.

وعلى الرغم من أنه كان لديه أسبوعان إجازة، فإنه كان يعتزم أن يمضى أسبوعًا واحدًا فقط فى بلدته لأسباب مادية بحتة. بالنسبة لأهل بلدته، فإن الإجازة تعنى عودة ابن القرية الذى نجح فى شق طريقه فى المدينة، وكان الجميع يتوقعون أن يصيبوا بعضًا من هذا الحظ الوفير. كان منطقهم يترجم كالآتى «على أى حال: فإن دعاءنا والقرابين التى قدمناها هى التى جعلتك تحظى بكل هذا». كان يطلقون لفظ «ليفو» على الإجازة، التى تعنى «أن يبذر».

كان أوبى يمتلك فقط أربعة وثلاثين جنيهًا، وبعض «الفكة» البسيطة عندما بدأ رحلة العودة إلى بلدته. كانت بدل مصاريف الانتقال التى يحصل عليها هى خمسة وعشرون جنيهًا، وهو مبلغ كان يتم صرفه لكبار العاملين بالحكومة لا لسبب، إلا أنهم كانوا يمضون إجازاتهم داخل البلاد. أما باقى المبلغ فهو ما تبقّى من ماهية شهر يناير. بمبلغ أربعة وثلاثين جنيهًا كان كفيلاً بتغطية النفقات لأسبوعين إذا ما أمضى المرء إجازته فى قريته، على الرغم من أنه ليس بالنسبة لشخص مثل أوبى يمتلك سيارة ويشغل «وظيفة أوروبية»»، فقط من الطبيعى أن يتوقع المرء أن شئونه المادية لابد وأن تكون أفضل من ذلك بكثير. ولكنْ مبلغ ستة عشر جنيهًا ونصف سوف يكون مكرسًا لدفع المصاريف المدرسية لأخيه جون للفصل الدراسى الثانى، الذى سوف يبدأ فى أبريل. كان أوبى يعلم أنه إذا لم يدفع

المصاريف المدرسية الآن فإن الفرصة قد لا تواتيه مستقبلاً لعمل ذلك.

كان يبدو على أوبى أنه يشرئِبّ بعنقه فوق أكتاف كل من أتى لاستقباله.

ظلت عيناه تتساءل «أين أمى؟» لم يكن يعلم إذا ما كانت لا تزال فى المستشفى أو بالمنزل، وكان يخشى من السؤال.

قال له أبوه بمجرد دخولهم المنزل «أمك رجعت من المستشفى الأسبوع الماضى».

«ولكن أين هى؟».

ردت أخته الصغرى يونيس «فى غرفتها».

كانت غرفة الأم أكثر الغرف تميزًا فى المنزل، فيما عدا غرفة الأب. كانت الصعوبة فى تحديد أيهما أميز تكمن من حقيقة أنه لا يمكن مقارنة أشياء لا تخضع للمقارنة. كان مستر أوكنكو يؤمن بشدة وبإيمان مطلق فى الأشياء التى يمتلكها ويستخدمها الرجل الأبيض. وكان رمز قوة الرجل الأبيض يكمن فى الكلمة المكتوبة، أو بالأحرى الكلمة المطبوعة، ففى إحدى المرات قبل أن يسافر لإنجلترا، سمع أوبى أباه يتحدث بإيمان عميق عن سحر وغموض الكلمة المطبوعة، كان يتحدث إلى أحد أقاربه الذين لم ينالوا أى حظ من التعليم.

«كانت نساؤنا يقمن بعمل أشكال من اللون الأسود على أجسادهن بواسطة العصير المستخرج من شجر «أولى» كانت تلك الرسومات جميلة، إلا أنها بمرور الوقت مُحيت وتوارت. وإذا بقيت أسبوعين فإنها بذلك تكون قد بقيت طويلاً جدًا. ولكن كبار قومنا كانوا يحدثوننا نحن «أولى» الذى لا يمكن محوه أبدًا، على الرغم من أنه لم يشاهده أحد البتة. نحن نراه اليوم فى كتابات الرجل الأبيض. إذا ما ذهبت إلى محاكمنا المحلية ورأيت السجلات التى قامت بكتابتها الكتبة من تقريبًا عشرين سنة أو أكثر، فإنها لا تزال على حالتها كيَوْم تمت كتابتها. إنهم يقولون شيئًا اليوم ثم يعدلون بقولهم شيئًا آخر اليوم التالى، أو يقولون شيئًا هذه السنة ثم شيئًا آخر السنة التالية. فاسم أكويو فى سجل اليوم لا يمكن أن يصبح أوكنكو اليوم التالى. فى الكتاب المقدس يرد هذا القول «المكتوب مكتوب».

كان قريب أوبى يهز رأسه موافقًا على كلام أبى أوبى، ثم قام بطرقعة أصابعه.

كان من نتائج رؤية أوكنكو الخاصة بالكلمة المكتوبة المغلفة بالسحر أن أصبحت غرفته مكتظة بالكتب والأوراق القديمة- بدءًا بكتاب الحساب الذى قام بتأليفه بلاكى، الذى استخدمه فى عام ١٩٠٨ انتهاء بنسخة أوبى لرواية لورنس داريل، ومن ترجمات عتيقة للإنجيل التهمتها جماعات من الصراصير إلى كروت عضوية اتحاد الأناجيل وقد اصطبغت باللون الأصفر، حيث يرجع تاريخها إلى عام ١٩٢٠ أو ما قبل ذلك. لم يتخلص أوكنكو قط من أى قصاصة ورق، فقد كانت لديه علبتان كبيرتان مليئتان بهذه القصاصات، أما الباقى فقد تم حفظهم فوق ظهر الدولاب الضخم، أو على الموائد أو على العلب وفى أحد أركان الغرفة.

فعلى النقيض من ذلك، كانت غرفة الأم مليئة بالأشياء العادية للغاية، كانت علبة ملابسها موضوعة على كرسى بلا ظهر. أما على الجانب الآخر، كانت هناك أوانٍ مليئة بزيت النخيل المجمد الذى تستخدمه لعمل الصابون الأسود. كان يفصل زيت النخيل عن الملابس مسافة واسعة من الغرفة؛ لأنها كما كانت تردد دائمًا لا يصح وضع الزيت والملابس فى المكان نفسه، أى إنهما ليسوا بأقارب، ولذلك فإنه كان واجب الملابس أن تحاول دائمًا أن تبقى بعيدًا وتتحشى الزيت، فإنه كان واجب الزيت أن يعمل كل ما بوسعه لكى يتحاشى الملابس.

وفضلاً عن تلك الأشياء، كانت غرفة الأم بها ثمار نبات الكاكاو من محصول العام الماضى، وثمار الكولا المحفوظة مع ورق شجر الموز فى أوعية زيت فارغة ووعاء ذى شكل أسطوانى كان يحتوى، كما أخبره الأولاد الأكبر سنًا، يومًا ما على بسكويت. فى المرحلة الثانية فى عمر هذا الوعاء، كان يستخدم لحفظ الماء حتى ظهرت به خمسة ثقوب، فتمت معالجتُه حتى أصبح الآن يستخدم لوضع رماد النخيل.

تحجّرتَ الدموع فى عينيه بينما كان ينظر إلى أمه المسجاة على السرير، مدت يدها إليه، فأخذها بين يديه كانت يدها «جلدًا على عظم» كما لو أنها جناح الخفاش.

قالت له «لم ترنى وأنا مريضة، الآن أنا فى كامل صحتى كما لو أنى فتاة صغيرة» ضحكت، ولكن بدون أى إحساس بالسعادة «كان أجدر بك أن ترانى منذ ثلاثة أسابيع. كيف حال عملك؟ هل كل أهل أموفيا فى لاجوس فى حال طيبة؟ كيف حال جوزيف؟ جاءت أمه لزيارتى بالأمس، وقلت لها إننا نتوقع قدومك...».

رد أوبى عليها بقوله «كلهم بخير، نعم، نعم، نعم» ولكن طوال الوقت كان قلبه ينفطِرُ حزنًا وكمدًا.

بعد ذلك فى هذا المساء نفسه، كانت مجموعة من الشابات اللاتى كنّ يعزفن الموسيقى فى الجنازات يمررن أمام منزل أوكنكو عندما سمعن بعودة أوبى، فقررن أن يذهبن لتحيته والسلام عليه.

استشاط والد أوبى غضبا، فقد كان يريد أن يبعدهن بعيدًا، إلا أن أوبى أقنعه أنه لن يصيبه أى ضرر منهن. كان استسلامه دون أى جدل مثيرًا للريبة، فلقد انسحب فى هدوء وأغلق غرفته على نفسه. خرجت أم أوبى للصالة وجلست على كرسى عالٍ بجوار النافذة. كانت تحب الإصغاء إلى الموسيقى، حتى لو كانت موسيقى وثنية. وقف أوبى لدى الباب الرئيسى وهو يبتسم للمنشدات اللاتى وقفن فى تنسيق وتشكيل منظم على الأرض النظيفة خارج المنزل. وكما لو أن الطيور ذات الألوان الزاهية، التى تُصدر أصواتًا مزعجة، والتى كانت تربض على شجر النخيل العالى، قد تلقت إشارات بأن ترحل، فقامت بالطير بعيدًا على شكل سرب منظم، وهم يهجرون مؤقتًا أعشاشهم البنّية الضخمة.

كان أوبى يعرف بعض المنشدات معرفةً جيدةً، ولكن كان هناك بعض آخر منهن كن من خارج القرية، ولكنهن تزوجن واستقررن بالقرية، كان ذلك بعد سفره لإنجلترا. كانت رئيسة فريق المنشدات إحدى تلك الفتيات تتميز بصوت قوى حاد كأنه يشق الهواء بسكين حادة، قامت بغناء فردى لأغنية وصفية قبل أن تنضم إليها بقية الفرقة، كن يطلقن الأغنية «أغنية القلب»:

«جاءنى خطاب منذ أيام قليلة قلت لسيدى اقرأ لى الخطاب سيدى، قال لى أنا لا أعرف القراءة ذهبت بعدها للبرىء وطلبت منه أن يقرأ الخطاب.

البرىء قال لى لا أعرف القراءة، طلبت من سيمونو أن يقرأ لى، ولكن سيمونو قال هذا ما طلبه الخطاب أن أقوله لك.

من لديه أخ يجب أن يشمله بكل عطفه ويتشبث به؛ لأن الأهل والأقارب لا يمكن شراؤهم من السوق. ولا يمكن أيضًا أن تشترى أخًا من السوق. هل الكل موجود هنا؟ هل أنتم كلكم هنا؟ الخطاب قال لا يمكن أن تشترى قريبًا. وإن لديه أخوة. لديه أكثر مما يستطيع المالُ شراءَه».

الفصل الرابع عشر

بدأت مناقشات أوبى الجادّة مع أبيه بعد أن أدت العائلة الصلاة، وخلّد الجميعُ للنوم فيما عداهما. كانت الصلاة قد أقيمت فى غرفة الأم؛ لأن الشعور بالإعياء الشديد عاودها مرة أخرى، وكلما كانت غير قادرة على الانضمام للآخرين فى الصالة أقام زوجها الصلاة فى غرفتها.

تمثل الشيطان وأفعاله بقوة وبشدة فى صلوات هذا المساء. اعترت أوبى ظنون ومخاوف أن علاقته العاطفية بكلارا كانت إحدى تلك الأفعال، إلا أن ذلك لم يعدُ أن يكون من باب الظنون، فلم يكن هناك أى دليل أو علاقة على أن أهله على علم بهذا الأمر.

كان التعليق البسيط الذى أبداه السيد أوكنكو عصر ذلك اليوم بشأن الغناء الوثنى، لا يعدو أن يكون حركة تكتيكية من جانبه. ترك العدو يكسب أرضًا ومغانم فى مناوشة صغيرة، بينما كان يعُد العدة للهجوم الكبير.

قال لأوبى بعد أداء الصلاة «لابد أن تكون مرهقًا بعد المسافة البعيدة التى قطعتها، هناك أمر مهم لابد أن نتكلم فيه، ولكنه من الممكن أن ينتظر حتى الغد، حتى يتسنّى لك أن تأخذ قسطًا من الراحة».

رد أوبى بقوله «يمكننا أن نتحدث الآن، أنا لست مرهقًا لهذا الحد، فنحن معتادون على السفر لمسافات طويلة».

قال له الأب «إذن تعالَ نتحدث فى غرفتى»، بينما كان يمشى فى المقدمة حاملاً معه مصباح العواصف العتيق. كانت هناك مائدة صغيرة فى منتصف الحجرة. تذكر أوبى

عندما تم شراؤها. كان النجار موزس (موسى) قد صنعها ومنحها للكنيسة أيام الحصاد. ثم عرضها في مزاد بعد أداء قداس الحصاد وتم بيعها. لم يتذكر الآن المبلغ الذى قام أبوه بدفعه ثمنًا للمائدة، قد يكون أحد عشر شلنًا وثلاثة بنسات؟

قال أبوه بينما كان يهز المصباح ويضعه قريبًا من أُذنه «لا أعتقد أن هناك جازًا بالمصباح». كان صوته خاويًا لا ينمُّ عن أى شعور تمامًا. قام بإحضار نصف زجاجة جاز من دولابه ثم سكب قليلاً منها بداخل المصباح. لم تعد يداه ثابتتين، فقد سكب بعض القطرات من الجاز خارج المصباح. لم يعرض أوبى أن يقوم بعمل ذلك بدلاً منه لأنه كان يعلم أن أباه لم يكن ليسمح «للأطفال» أن يسكبوا الجاز بداخل المصباح، فلم يكن بوسعهم أن يقوموا بعمل ذلك بطريقة صحيحة.

سأله «كيف حال كل معارفنا وأهلنا فى لاجوس عندما تركتهم؟»، جلس على سريره الخشبى، بينما جلس أوبى على كرسى منخفض فى مواجهة أبيه وهو يرسم ويخطُّ خطوطًا بإصبعه على سطح المائدة المغطاة بالتراب.

«لاجوس مكان كبير جدًا. تستطيع أن تقطع المسافة من هنا إلى آبام وتظل فى لاجوس».

«هكذا قيل لى. ولكنك سوف تحضر اجتماعًا لأهل أوموفيا؟» كانت كلماته تبدو كما لو أنها خليط من سؤال وجملة.

«نعم، لدينا اجتماع، ولكنه مرة واحدة شهريًا» ثم أضاف بقوله «لا يتسنّى لى الحضور دائمًا، فأنا لا أجد الوقت دائمًا لكى أحضر» فى الواقع إنه لم يكن قد حضر أى اجتماع منذ شهر نوفمبر.

قال الأب «هذا حقيقى، ولكن فى المناطق الغريبة يجب أن يكون المرء دائمًا قريبًا من أقاربه» ظل أوبى صامتًا، وهو يكتب اسمه على التراب الذى يغطى المائدة «كتبْت لى منذ مدة عن فتاة كنت تواعدها، كيف تسير الأمور الآن؟».

«هذه أحد الأسباب لحضورى. أنا أريد أن نذهب لمقابلة أهلها والتعرف عليهم ونبدأ فى المفاوضات. أنا ليس لدىّ نقود الآن، ولكن على الأقل يمكننا أن نبدأ فى الحديث» كان أوبى قد قرر أن الأمر سوف يكون خاطئًا للغاية أن يبدو فى نبرات صوته أى نوع من الاعتذار أو التردد.

رد عليه أبوه بقوله «نعم، هذه أفضل السبل» استغرق فى التفكير لبرهة، ثم قال مرة أخرى «نعم، أفضل السبل». ثم بدَا كما لو أن فكرة جديدة قد خطرت بباله «هل تعلم من تكون هذه الفتاة؟ وما أصولها؟» تردد أوبى لفترة تكفى لكى يسأله أبوه السؤال مرة أخرى، ولكن بطريقة مختلفة «ما اسمها؟».

«هى ابنة أوكيكى، من أهل مابينو».

«أى أوكيكى تقصد؟ أنا أعرف ثلاثة بهذا الاسم، واحد منهم مدرس على المعاش، ولكنك بالطبع لا تعنى هذا الشخص».

قال أوبى «بلى، هو الشخص بعينه».

«جوزيه أوكيكى؟».

قال أوبى «نعم، فقد كان هذا هو اسمه».

ضحِك الأب ضحكة كتلك الضحكات التى يسمعها المرء الصادرة من روح الأسلاف الذين يرتدون الأقنعة. فقد يحييك منادياً عليك باسمك، سائلاً إياك إذا ما كنت تعرف مَن هو. قد تقوم بالرد عليه وأنت تلمس الأرض بخشوع وتواضع أنك لا تعرف من هو، لأن هذا الأمر يتجاوز حدود المعرفة الإنسانية. ثم قد يضحك وتبدو الضحكة كما لو أنها تصدر من خلال حَلْق مصنوع من معدن. كان مغزى هذه الضحكة واضحًا «لم أعتقد حقيقةً أنك تعرف، أيتها الحشرة الدودة الإنسانية التعيسة».

اختفتْ ضحكة والد أوبى كما جاءت فجأة- بدون أى إنذار- بدون أن تترك أى آثار وراءها.

قال بهدوء وببساطة متناهية «لا يمكنكَ أن تتزوج تلك الفتاة».

«ماذا؟».

«قلتُ إنك لا يمكن أن تتزوج تلك الفتاة».

«ولكن لماذا يا أبى؟».

«لماذا؟ سوف أقول لك لماذا. ولكن قل لى أولاً. هل اكتشفت أو حاولت أن تكتشف أى شىء خاص بتلك الفتاة؟».

«نعم».

«وماذا اكتشفتَ؟».

«إنها من طائفة الأوسو».

«هل تعنى أنك تريد أن تخبرنى أنك كنت تعلم ومع ذلك تسألنى لماذا؟».

«لا أظن أن هذا الأمر يهم، فنحن جميعًا مسيحيون» تركت تلك الجملة أثرها، وإن كان أثرًا غير ذى أهمية، كان ذلك الأثر يتمثل فى فترة صمت قصيرة ونبرة صوت أرق قليلاً.

قال «نحن فعلا مسيحيون، ولكن هذا لا يعنى أن تتزوج فتاة من الأوسو osu».

«يقول الإنجيل إن المسيحية لا تؤمن بالفارق بين الحر والعبد».

قال أوكنكو «يا بنى، أنا متفهم لما تقوله، ولكن هذا الأمر أشد خطورة وأعمق مما تظن».

«وما هذا الأمر؟ كان أسلافنا فى فترة الجهل والظلام الذى عاشوا فيه يطلقون لفظ أوسو osu على الإنسان البرىء البسيط، أو القربان الذى يتم التضحية به للأوثان، ومَن بعدها يصبح منبوذًا، ومن بعده أولاده ونسله يصبحون منبوذين إلى الأبد. ولكننا ألم نرَ نور الإيمان فى الأناجيل؟» استخدم أوبى الكلمات نفسها بحذافيرها التى قد يستخدمها الأب فى حديثه مع أقاربه الوثنيين.

سادت فترة صمت طويلة، كان المصباح الآن يضىء بتوهج شديد، أخفض والد أوبى الفتيلَ قليلاً، ثم استأنف صمته مرة أخرى. وبعد انقضاء ما بدَا أنه دهر كامل، قال «أنا أعرف جوزيه أوكيكى معرفة جيدة فعلاً» كان ينظر أمامه بثبات إلا أن الإرهاق والتعب ظهرًا فى صوته «أنا أعرفه وأعرف زوجته. إنه رجل محترم ومسيحى محترم، ولكنه أيضًا من الأوسو osu. نعمان الذى كان رئيسًا لمجموعة أو وفد سوريا كان أيضًا رجلاً عظيمًا وإنسانًا فاضلاً وشجاعًا صنديدًا، ولكنه كان مصابًا بداء البرص». توقف حتى يستوعب أوبى هذه المقارنة العظيمة والموفقة من وجهة نظره بما تحمله من معانٍ عظيمة.

«إن الأوسو مثله مثل داء البرص فى ذهن العامة من شعبنا. أتوسل إليك يا بُنى ألا تجلب علامة العار والبرص إلى عائلتنا. إذا فعلت ذلك فنسلك حتى الجيل الرابع أو حتى الخامس سوف يلعنون اسمَك وذكراك. أنا لا أتحدث من منطلق شخصى، فأيامى معدودة فى هذه الحياة، ولكنى أحذرك أنك سوف تجلب التعاسة والحزنَ على نفسك وعلى أولادك من بعدك. من عساه يتقدم للزواج من بناتك؟ ومن عساهن يتزوجن من أولادك؟ فكر مليًّا فى الأمر يا بنى. نحن مسيحيون نعتنق المسيحية، ولذلك لا نستطيع ولا يحل لنا أن نتزوج من بناتنا».

«ولكن سوف تتغير كل هذه الأمور فى غضون عشر سنوات، سوف تتغير كل هذه الأمور تمامًا عما هى الآن».

هز الرجل العجوز رأسه فى حزن واضح، إلا أنه لم يقل شيئًا آخر، كرر أوبى وجهة نظره مرة أخرى. «ما الأمور التى تفرّق بين الأوسو والرجال والنساء الآخرين؟ لا شىء سوء جهل أسلافهم. ولماذا يستمر هؤلاء فى غَيهم وجهلهم بعد أن أضاء نور الإيمان قلوبهم؟».

نام أوبى مدة قصيرة تلك الليلة. اكتشف أن أباه لم يكن صَعْب المِراس كما كان يتخيل قبل ذلك. وعلى الرغم أنه لم يكن قد تم إقناعه بالكامل حتى هذه اللحظة، فعزيمته ومقاومته لانت. شعر أوبى شِعورًا غامضًا بمزيج من السعادة. فلم يكن قد شعر بأى شعور مماثل مشابه قبل ذلك. كان معتادًا على التحدث مع أمه كندٍّ لها على قدم المساواة، حتى منذ

الطفولة، ولكن الأمر مع أبيه كان دائمًا مختلفًا تمامًا. لم يكن بالضبط متباعدًا عن عائلته، ولكن كان هناك شيء متعلق به جعله يفكر مليًا في رأس العائلة، الذين كانوا يَبدون كما لو أنهم عمالقة تم نحتُهم من الجرانيت. نبعت سعادة أوبي الغريبة ليس فقط بفضل القدر القليل من النصر الذى حققه أوبى فى مناقشته مع أبيه، بل مع التواصل الإنسانى المباشر مع أبيه لأول مرة خلال ست وعشرين سنة.

بمجرد استيقاظه فى الصباح ذهب لرؤية أمه. كانت ساعته تشير إلى السادسة صباحًا، ولكن الظلام كان يلف المكان. تحسس الطريق إلى غرفتها. كانت مستيقظة؛ لأنها سألت عمن دخل غرفتها بمجرد دخوله. ذهب وجلس على سريرها وتحسس حرارتها بكف يده. لم تكن قد نامت بالقدر الكافى، وذلك من جرّاء الألم الذى يعتصر أحشاءها. قالت إنها الآن قد فقدت ثقتها فى العلاج الأوروبى، وإنها ترغب أن يفحصها طبيب محلى.

فى هذه اللحظة، دق والد أوبى الجرس الصغير الخاص به مناديًا على أفراد عائلته لإقامة صلاة الصبح. أصابته الدهشة عندما دخل الغرفة حاملاً مصباحه ليجد أن أوبى قد سبقه إلى هناك. دخلت أخته يونيس وهى متشحة بقماش يغطى أطرافها. كانت أصغر الأبناء والوحيدة الموجودة بالمنزل. كان هذا هو حال الدنيا. يترك الأبناء أهلهم الطاعنين فى السن فى المنزل وينتشرون فى كل الاتجاهات؛ بحثًا عن المال. كان الأمر صعبًا للغاية بالنسبة لسيدة عجوز لديها ثمانية أبناء. كان الأمر يبدو أن هناك شخصًا أمامه نهر، ومع ذلك يكتفى بغسل يديه برذاذ الماء.

بعد أن دخلت يونيس دخلت چوى ومرسى، وهما من الأقارب البعيدين اللتين أرسلهما أهلهما، لكى تقوم مسز أوكنكو بتدريبهما على الأعمال المنزلية وإدارة المنازل.

بعد ذلك، عندما كانا بمفردهما مرة أخرى، استمعت إليه وهى صامتة متذرعة بالصبر حتى النهاية، ثم تحاملت على نفسها ونهضت، وقالت «حلمت حلمًا مزعجًا ذات ليلة. كنت مستلقية على ملاءة سرير بيضاء عندما شعرت بشيء يزحف على جسدى. نظرت إلى السرير، فرأيت أن جحافل النمل الأبيض قد قامت بأكله، بالإضافة إلى السجادة والملاءة، نعم بالفعل، فقد قام النمل الأبيض بأكل السرير من تحتى».

هبط على رأس أوبى إحساس غريب كأنه ندى بارد.

«لم أبح لأى شخص بهذا الحلم، فقد حفظته فى صدرى متعجبة عما يعنيه هذا الحلم، أخذت نسخة الإنجيل الخاصة بى، وقرأت الجزء الذى يتعين علىّ قراءته. أمدتنى قراءته ببعض القوة، إلا أن قلبى ما زال يموج بالقلق، فى المساء حضر أبوك حاملاً معه خطابًا من جوزيف، وفيه يخبرنا أنك سوف تتزوج فتاة من الأوسو. رأيت مغزى موتى الذى رأيته فى الحلم. ثم بعدها أخبرت أباك عن الحلم» توقفت برهة لتلتقط نفَسًا عميقًا «ليس لدى شىء أخبرك به بهذا الشأن سوى شىء واحد. إذا أردت أن تتزوج من هذه الفتاة، يتعين عليك أن تفعل هذا بعد أن أكون قد متُّ. إذا ما لبى الله دعواتى فلن يطول بك الانتظار». توقفت مرة أخرى، فأصاب أوبى الذعر من جرّاء التغيير الذى طرأ عليها. كانت تبدو غريبة كما لو أنها قد أصيبت بخبَل مفاجئ.

صاح كما لو أنها يراها على وشك الوفاة «أمى!» بينما كان يمسك بيدها فى صمت.

قالت «ولكن إذا قمت بعمل هذا وأنا على قيد الحياة، فإنك ستكون مذنبًا فى حقى ودمى على يديك؛ لأننى سوف أقتل نفسى» انزلقت فى جلستها، حيث كانت تشعر بالإجهاد الشديد.

ظل أوبى ملازمًا حجرته طوال اليوم. كان يغفو لبضع لحظات على فترات متقطعة، ثم يستيقظ على أصوات الأقارب والمعارف الذين أتوا لرؤيته، ولكنه رفض أن يقابل أيًا منهم. وقال ليونيس أن يبلّغهم أنه متوعك من جرّاء السفر لمسافة بعيدة. كان يعلم أنه عذر أقبح من ذنب وغير مقبول بالمرة. فإذا كان متوعكًا فإن هذا بالتأكيد سبب وجيه يدعوه أن يراه الجميع. على أى حال، فإنه رفض رفضًا قاطعًا أن يراه أحدٌ؛ مما دفع الأقارب والمعارف للإحساس بالشعور بالاستياء والإهانة، فعبّر بعضهم عن هذا الاستياء فى حينها وفى المكان الذى شهد الإهانة، بينما لم يظهر على الآخرين أى رد فعل كما لو أن شيئًا لم يقع، حتى أن إحدى السيدات الطاعنات فى السن قامت بإعطاء وصفة لعلاج للمرض الذى قيل إنَ أوبى يعانى منه، بينما هى لم ترَ المريض، قالت «إن السفر لمسافات بعيدة يؤدى إلى الإنهاك والإعياء. وأفضل ما يفعله المرء فى هذه الأحوال أن يتعاطى دواءً مطهرًا قوىّ المفعول، لكى يكتسح كل الشوائب فى جوف المرء».

لم يظهر أوبى لكى يؤدى صلاة المساء، تطرق إلى سمعه صوت أبيه، كما لو أنه صادر من مسافة بعيدة، مستطردًا لفترة طويلة. وكلما بدا أن الصلاة على وشك الانتهاء، جلجل صوته مرة أخرى بالصلاة. أخيرًا سمع أوبى أصواتًا عديدة يؤدون صلاة «أبانا الذى فى السموات» (الصلاة الختامية) ولكن بدا كل شىء كأنه يحدث على مسافة بعيدة مثلما تبدو أصوات الحشرات وأنينها لشخص يعانى من الحمى.

دخل والده حاملاً مصباح العواصف ليسأله عن حال صحته الآن، ثم جلس على الكرسى الوحيد الموجود بالحجرة، ثم أخذ مصباحه مرة أخرى وقام بهزه ليتأكد من كمية الكيروسين الموجود به. بدا أن هناك قدرًا كافيًا من الكيروسين، ثم قام بخفض الشريط المبلل بالكيروسين حتى ظهر أن باطن المصباح قد ابتلعته الشعلة، استلقى أوبى على ظهره وهو فى حال من الثبات التام، وهو يحملق فى السقف المصنوع من الخيرزان، بالطريقة نفسها التى كان معتادًا عليها عندما كان طفلاً، لكى يتحاشى النوم؛ لأنه قيل له إنه لو نام على ظهره، بينما كان عنكبوت يعبر السقف من فوقه فإنه سيُصاب بالكوابيس.

كان مندهشًا من الأفكار الغريبة التى خطرت بباله فى أشد الكوارث وطأة فى حياته. انتظر طويلاً حتى يتكلم أبوه لكى تتاح له الفرصة أن يشن معركة للدفاع، وتبرير وجهة نظره. كان ذهنه مضطربًا ومشوشًا ليس فقط من جراء ما حدث، ولكن من اكتشاف أنه لا يوجد بحوزته أى شىء يمكّنه من تقبل التحدى بصورة شريفة. حاول طوال اليوم أن يستثير غضبه وقناعاته، ولكنه كان صادقًا مع نفسه بما يكفى لكى يدرك أن رد الفعل الذى تلقاه، على الرغم من العنف الذى كان يبدو عليه فى بعض الأحيان، لم يكن فى حقيقة الأمر كذلك. كان هذا العنف يأتى من الأطراف وليس من المركز، مثله مثل الرعشة فى رِجل ضفدعة ميتة عندما يتم توصيل تيار كهربائى بها. ولكنه لم يستطع تقبل حالته النفسية الحالية على أنها الحالة النهائية التى سوف يستقر عليها، فلذلك استغرق جاهدًا أن يتحاشى أى شىء قد يشعل فتيل رد الفعل المحتوم. قد يكون ذلك فى شكل مناقشة حامية مع أبيه أكثر عنفًا من سابقتها؛ لأن ما كان تؤمن به وتردده قبيلة الإيبو حقيقةً أنه عندما يشاهد جبان رجلاً يمكنه أن يقوم بضربة. فإنه يصبح متشوقًا للقتال، اكتشف حينذاك أنه قادر على ضرب أبيه!

ولكن والد أوبى جلس صامتًا تمامًا وعازفًا عن العراك. اعتدل أوبى ثم نام على جانبه، ثم تنهد تنهيدة عميقة. ولكن مع ذلك لم ينبس أبوه بأى كلمة.

قال أوبى أخيرًا «سوف أعود إلى لاجوس بعد غد».

«ألم تقل إنك سوف تمضى أسبوعًا معنا؟».

«نعم، ولكنى أظن أنه من الأفضل لى أن أرجع قبل ذلك».

سادت فترة صمت طويلة بعد هذا الحوار، ثم تكلم أبوه مرة أخرى، ولكن لم يتطرق الحديث إلى الموضوع الذى كان يشغل بالهما معًا. بدأ حديثه هادئًا وبطيئًا، كان حديثه خافتًا لدرجة أنه لم يكد يسمعه. بدا كما لو أنه لم يكن يوجه حديثه لأوبى، فقد كان وجهه فى الاتجاه الآخر، بحيث رأى أوبى وجه أبيه من زاوية جانبية.

«لم أكن أعدو أن أكون طفلاً عندما تركت منزل أبى لأذهب مع المبشرين. كان أبى قد ألقى لعنة على رأسى، لم أكن هناك عندما فعل ذلك، ولكن إخوانى أبلغونى بذلك الأمر، عندما يلعن رجل ابنه من لحمه ودمه؛ فإن ذلك شىء فظيع، خاصة أننى كنت ابنه البكرى».

لم يسمع أوبى قط عن تلك اللعنة. إذا ما كان سمع عن هذا الأمر فى أثناء النهار أو فى ظروف أسعد من تلك التى يعيشها الآن؛ فإنه لم يكن ليعطيها أى أهمية، ولكن فى تلك الليلة شعر بشعور غريب راوده الأمس تجاه أبيه.

«عندما أبلغونى أنه قام بشنق نفسه، قلت لهم إن الشخص الذى يعيش بالسيف فإنه ولابد أن يموت بالسيف أيضًا. قال مستر برادلى، الرجل الأبيض الذى كان يقوم بتعليمنا، إنه لم يكن من اللائق أن أقول ذلك، ثم قال لى أن أعود لمنزلى لكى أحضر عملية الدفن. ومع ذلك رفضت أن أذهب. كان فى اعتقاد مستر برادلى، أننى كنت أعنى رسول الرجل الأبيض الذى قتله أبى. لم يكن يعلم أننى أتحدث عن أيكوموفنا، الذى نشأت معه فى كوخ أمى حتى جاء هذا اليوم الذى قتله أبى بيديه». صمت برهة حتى يجمع شتات أفكاره، ثم استدار على الكرسى حتى يواجه السرير الذى كان يستلقى عليه أوبى «أنا أقصّ عليك كل هذا حتى تستطيع أن تدرك الصعوبات التى تكتنف المرء عندما يقرر اعتناق المسيحية.

لقـد هجـرت منزل أبى مما دعاه أن يلقى بلعنة على رأسـى. لقد واجهت الأهوال لكى أعتنق المسـيحية، ولأننى عانيت الكثير، فأنا أفهم ما تعنيه المسـيحية أكثر بكثير مما يمكنك أنت أن تفهمه فى أى يوم من الأيام». توقف بصورة فجائية، مما جعل أوبى يظن أنه توقف لبرهة، ولكنه فى الحقيقة كان قد انتهى من كلامه.

كان أوبى يعلم بقصة أيكوموفنا الحزينة، الذى تم تسليمه لأموفيا من قِبل جيرانهم، لكى يخمدوا نار الفتنة. أصبح والد أوبى وأيكوموفنا متلازمين طوال الوقت. ولكن ذات يوم صدر قرار من العرافين القاطنين فى الجبال يأمر بقتل هذا الفتى. كان أوبى يحب هذا الفتى، ولكن فى اللحظة الحاسمة كان نصل سلاحه هو الذى قام بقتله، وحتى فى تلك الأيام؛ فإنه كان هناك الكثير من كبار القوم الذين رأوا أن ما حدث من قيام رجل بقتل طفلٍ فى مكانة ابنه كان خطأً فاحشًا.

الفصل الخامس عشر

قطع أوبى مسافة ٥٠٠ ميل بين أموفيا ولاجوس وهو فى حالة شرود بالٍ. لم يتوقف حتى لتناول الغداء عند بلده آكوروبها (استراحة تقع فى منتصف المسافة فى الطريق للمسافرين من شرق نيجيريا المتجهين إلى لاجوس)، ولكنه ظل يقود سيارته كأنه مخدر، يطوى المسافة من الصباح حتى المساء. المرة الوحيدة التى دبّت فى الرحلة بعض الروح والحركة كانت قبل أن يصل إلى عبدان. كان يقود بأقصى سرعة عند منحنى (ناحية) عندما فوجئ بظهور شاحنتين، وكل منهما تحاول تخطى الأخرى. كان جزءٌ من الثانية هو الذى فصّل بين أوبى وتصادم مروع. وفى أقل من نصف الثانية انحرف بعربته ناحية شجيرات على اليسار.

توقفت إحدى الشاحنتين، بينما واصلت الأخرى طريقها، اندفع سائق الشاحنة التى توقفت وكذلك المسافرون على متنها لمشاهدة ما حدث له. لم يكن يدرى هو نفسه حتى هذه اللحظة ماذا ألمّ به. قاموا بمساعدته فى دفع سيارته خارجًا، بينما كانت السيدات المسافرات تبكينه ويضعن أيديهن فوق صدورهن فرحًا بنجاته. لم تتملك الرعشة أوبى إلا بعد أن أُزيحت سيارته جانبًا.

قال السائق وبعض المسافرين، بعضهم باللغة الإنجليزية والآخرون بلغة اليوروبا «أنت شخص محظوظ جدًّا» ثم أضاف بعض السواقين «متهورين صحيح!» وهو يهز رأسه حزنًا «اشكر ربنا» ترك الأمر برمته فى أيدى الله «ولكن أنت حقيقى محظوظ علشان مفيش شجرة كبيرة ناحية الطريق ده. بعدما توصل بيتك لازم تصلى صلاة شكر للرب اللى بتعبده».

تفحص أوبى سيارته ولم يجد خسائر تُذكر فيما عدا بعض الخدوشات الطفيفة.

سأله السائق «رايح لاجوس، مش كده؟» هز أوبى رأسه، حيث لم يكن فى حالة تسمح له بالكلام.

«فتَّح عينيك كويس؛ لأن الشيطان بيرقص طول الطريق. إذا شفت حادثة واحدة على الطريق زى ما بنشوف – يا الله!» كانت النسوة يتحدثن بانفعال وهن يضعن أيديهن فوق قلوبهن، ويحملقن فىأوبى كأنهن يشاهدن معجزة. كررت إحداهن بإنجليزية ركيكة أنه يتعين على أوبى أن يشكر الله، وافقها رجل من الحاضرين على كلامها «بقدرة ربنا بس هو اللى خلاك تعيش وتتكلم من تانى».فى الواقع لم يكن أوبى يتكلم، إلا أنه على أى حال كانت وجهة نظرها وجيهة.

«سواقين متهورين حقيقى! مفيش أمان عندهم».

قال السائق مدافعًا عن نفسه «مش كل السواقين متهورين. الجدع ده متهور حقيقى. أنا عطيته إشارة أنه ما يخطينيش، لكنه ساق العربية زى المجنون» وأشار بيده إشارة تدل على أن السائق كان يسير بأقصى سرعة.

انقضت المدة الباقية من الرحلة بدون أحداث تذكر. كان الظلام يُسدل خيوطَه عندما وصل أوبى إلى لاجوس. أثارت اللافتة الضخمة التى ترحب بقدوم السائقين إلى المنطقة الفيدرالية للاجوس شعورًا بالذعر. طوال الليلة الماضية التى أمضاها فى منزل أهله استغرق فى التفكير فى كيفية إبلاغ كلارا بهذا الخبر. لم يشأ أن يتجه إلى منزله أولاً ثم يذهب ليخبرها. كان من الأفضل أن يتوقف فى طريقه ويصطحبها معه، ولكنه عندما وصل إلى منطقة يابا، حيث تقطن، قرر أنه من الأفضل أن يتجه إلى بيته أولاً ثم يعود مرة أخرى، فلذلك ابتعد عن منزلها.

قام بالاغتسال، ثم قام بتغيير ملابسه ثم جلس على الأريكة، ولأول مرة يداهمه إحساسٌ حقيقى بالإنهاك. خطرت فى باله فكرة أخرى، قد يستطيع كريستوفر أن يُسدى له نصيحة مفيدة. ركب سيارته وقادها وهو لا يعرف على وجه التأكيد ما إذا كان متجهًا إلى منزل كريستوفر أو منزل كلارا. ولكنه فى نهاية الأمر اتجه إلى منزل كلارا.

في طريقه قابل بالمصادفة مسيرة طويلة من الرجال والنساء والأطفال يرتدون أثوابًا بيضاء فضفاضة مربوطة عند الوسط بأحزمة حمراء وصفراء. كانت النساء اللاتى يمثلن الأغلبية يرتدين أغطية رءوس بيضاء تتدلى حتى منتصف ظهورهن. كنّ ينشدن ويصفقن بأيديهن ويرقصن. كان أحد الرجال يحافظ على الإيقاع بواسطة جرس يحمله فى يده. تسببت مسيرتهم تلك فى تعطيل المرور، وهو أمر جعل أوبى يراوده شعور داخلى بالامتنان. ولكن كان سائقو سيارات الأجرة متذمرين، فظلوا يطلقون أصواتًا طويلة متصلة حتى كادت تصيب الواقفين بالصمم، حدث ذلك عندما كانوا يشقون طريقهم ببطء وبصعوبة من خلال المسيرة. فى مقدمة المسيرة، كان فتيان يرتديان زيًا أبيض يحملان علمًا خاصًا بالطبقة المقدسة الأبدية للملائكة والساروفيم (أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين عرش الله).

بذل أوبى كل ما فى وسعه لكى يبدو أن الأمر برمته غير ذى بال، مجرد انتكاسة ليس إلا؛ وأن كل شىء سوف يسير على خير ما يرام فى نهاية الأمر. وكانت مقدرة أمه الذهنية قد تأثرت من جرّاء فترة مرضها الطويل، ولكنها فى النهاية سوف تتغلب على ذلك. أما بالنسبة لأبيه، فإنه يكاد يكون قد كسبه إلى صفه. وقال لها «كل ما علينا الآن أن نفعله أن نركن إلى الهدوء حتى تمر العاصفة».

كانت كلارا تصغى فى صمت وهى تفرك خاتم الخطوبة بأصابع يدها اليمنى. عندما توقف عن الحديث، نظرت إليه وسألته ما إذا كان قد انتهى من حديثه، ولكنه لم يجب.

سألته مرة ثانية «هل انتهيتَ من كلامك؟».

«انتهيت من ماذا؟».

«قصتك».

أخذ أوبى نفسًا عميقًا كأنه يقوم بالرد عليها.

«ألا تعتقد... على أى حال لا يهم. هناك أمر واحد أندم عليه الآن، لابد أن أكون قد تفهمت الوضع بصورة أفضل من ذلك. لا يهم أبدًا».

«عما تتحدثين، ماذا تقصدين، يا كلارا؟... لا تتصرفى بهذا الغباء» قالها وهى تخلع خاتم الخطوبة وهى تمد يدها لتعطيه إياه.

«إذا لم تأخذه فسوف أُلقى به خارج النافذة»؟

«أرجوكِ افعلى ذلك».

لم تلقه خارجًا، ولكنها خرجت من السيارة وألقت به داخل كيس لوضع القفازات بداخل السيارة. ثم رجعت مرة أخرى، وفردت يديها بصورة تمثيلية مفتعلة قائلة «أشكرك شكرًا جزيلاً على كل شيء».

«تعالى يا كلارا واجلسى. لا تتصرفى بحماقة الأطفال، وأرجوك لا تجعلى الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لى».

«أنت الذى تجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لنفسك. قلت لك مرارًا وتَكرارًا إننا نخدع أنفسنا، ولكنك دائمًا ما كنت تقول لى إننى أتصرف بحماقة الأطفال. على أى حال، لا يهم. لا مبرر أبدًا أن نتحدث طويلاً فى هذا الأمر».

جلس أوبى، بينما ذهبت كلارا لتستند على نافذة السيارة وتنظر للخارج. هَم أوبى أن يقول شيئًا ما، إلا أنه فى هذه اللحظة ذاتها تخلى عن هذه الفكرة بعد أن قال ثلاث كلمات فقط. بعد نحو عشر دقائق من الصمت سألته كلارا ما إذا كان يتعين عليه أن يرحل؟

قال وهو يقف «نعم».

عندما قال «مع السلامة» لم تتحرك من جلستها، كانت تجلس وظهرها فى مواجهته.

كرر مرة ثانية «مع السلامة».

«كان هناك شيء أود أن أخبرك به، ولكن الأمر لا يهم الآن. كان الأجدر بى أن أكون قادرة على حماية نفسى».

قفز قلبه بين ضلوعه حتى كاد يختنق به. سألها بنبرة فزع واضحة «وما الأمر؟».

«لا شيء. انسَ الأمر برمته. سوف أجد مخرجًا مناسبًا».

أُصيب أوبى بالصدمة من الفظاظة التى اكتنفت رد فعل كريستوفر عندما قصّ عليه ما حدث له. وجّه له عبارات غير لائقة بالمرة، وكان طوال الوقت يقوم بمقاطعته. بمجرد أن ذكر أوبى معارضة أهله لزواجه من كلارا، أكمل هو أيضًا ما بدأوه من هجوم ومعارضة.

قال كريستوفر له «لقد كنت أريد أن أناقش هذا الأمر معك، ولكننى تعلمت ألا أتدخل فى شئون تخص رجلاً وامرأة، خاصة مع شبان أمثالكم يؤمنون ويتمسكون بأفكار رائعة عن الحب. حضر إلىّ أحد الأصدقاء فى العام الماضى ليسألنى عن رأيى فى فتاة يريد أن يتزوجها، كنت أعرف هذه الفتاة معرفةجيدة حقًّا، فهى من الممكن إطلاق لفظ «متحررة» عليها، فأبلغت صديقى برأيى، قلت له «يجب ألا تتزوج من هذه الفتاة» هل تعلم ماذا فعل هذا المغفل الأبله؟ ذهب وأبلغ الفتاة ما قلتُه، ولهذا السبب لم أقل لك أى شىء عن كلارا، قد تكون فكرتك عنى أنى ضيّق الأفق، ولكننى لا أعتقد أننا قد وصلنا إلى مرحلة نتجاهل فيها كل تقاليدنا. ممكن أن نتحدث عن التعليم وأشياء من هذا القبيل، ولكن بالنسبة لى؛ فإننى لا يمكن أبدًا أن أتزوج من فتاة من الأوسو».

«نحن لا نتحدث الآن عن الزواج».

«أنا آسف، ماذا قالت لك أمك بالظبط».

«لقد أفزعنى كلامها، قالت إنى يتعين على أن أنتظر حتى تموت، وإلا فسوف تقتل نفسها».

استغرق كريستوفر فى الضحك «كانت هناك امرأة تقطن فى المنطقة نفسها التى أقطن بها، وذات يوم عادت من السوق لتجد أن طفليها قد وقعَا فى بئر وغرقا. استمرت فى البكاء والنحيب ذلك اليوم، قائلة إنها تريد أن تقفز إلى البئر وتغرق فيها أيضًا. ولكن بالطبع؛ فإن جيرانها منعوها من فعل ذلك كلما همت بالقيام من مكانها. ولكن بعد ثلاثة أيام أصيب زوجها بالملل، وأمرهم بأن يتركوها لتفعل ما تشاء. أسرعت إلى البئر، ولكنها عندما وصلت إلى هناك، نظرت مليًا إلى البئر، ثم دلّت برجلها اليمنى ثم أخرجتها، ثم وضعت اليسرى ثم...».

قال أوبى وهو يقاطعه «يا لها من قصة لطيفة! ولكنى أؤكد لك أن أمى كانت تعنى كل كلمة تفوّهت بها. على أى حال، ما جئت من أجله هو لسؤالك عن أمر آخر تمامًا. أنا أعتقد أنها حامل».

«مَن؟».

«لا تكن أبله، كلارا بالطبع».

«حسنًا، حسنًا. هذا أمر سيتسبب فى مشاكل كثيرة».

«هل تعرف أى...».

«طبيب؟ كلا. ولكننى أعرف أن جيمس ذهب لزيارة أحد الأطباء عندما واجهته مشاكل مؤخرًا. عندى فكرة، سوف أتصل به صباح الغد وأبلغك تليفونيًا بما توصلت إليه».

«لا تفعل ذلك عن طريق تليفونى».

«ولم لا؟ سوف أقرأ عليك فقط العناوين، سوف يكلفك الأمر دفع بعض النقود، بالطبع سوف تقول إنى عديم الإحساس، ولكنى أتعامل مع هذه الأمور بطريقة مختلفة تمامًا. عندما كنت فى الشرق جاءت إلىّ فتاة وقالت لى «أنا حامل» فقلت لها «لا شأن لى بذلك» أنا أعرف أنك ستقول إن ذلك يدل على عدم الإحساس... ولكنى لا أعرف. أنا رأيى بهذا الشأن هو الآتى: كيف يتأتى لى أن أعرف أننى أنا المسئول؟ أنا حريص على أن آخذ كل الاحتياطات اللازمة. هذا كل ما فى الأمر. أنا أعرف أن حالتك مختلفة تمامًا. فكلارا لم يكن لديها أى وقت متاح لأى شخص آخر. ولكنى حتى...».

لابد أنه كان هناك شىء ما يتعلق بأوبى جعل الطبيب العجوز يشعر بالتوتر، كان يبدو عليه فى بادئ الأمر أنه يرحب بهذا الأمر تمامًا، وقام بطرح سؤالٍ أو اثنين ينم عن تعاطفه، ثم بعد ذلك دلف إلى حجرة داخلية، وعندما خرج منها كان رجلاً مختلفًا تمامًا.

قال لأوبى «أنا آسف يا عزيزى الشاب، ولكنى لن أستطيع أن أساعدك، فما تطلبه منى يمثل جنحة يعاقب عليها القانون، وقد يزجون بى فى السجن وأفقد رخصتى بمزاولة

المهنة. ولكن فضلاً عن ذلك، فأنا حريص على حماية سُمعتى المهنية التى لم تشوّهها أىُّ مخالفة لعشرين سنة مارست فيها المهنة. كم عمرك؟».

«ست وعشرون».

«ست وعشرون. إذن كنت أنت تبلغ السادسة عندما بدأت فى ممارسة مهنة الطب، وطوال كل تلك السنوات لم تشُب سمعتى أى من هذه المخالفات المشبوهة. لماذا لا تتزوج الفتاة على أية حال؟ إنها جذابة وحسناء».

ردت كلارا بوجوم «أنا لا أريد أن أتزوجه» كانت تلك العبارة هى أول ما نطقت به منذ دخلَا عيادة الطبيب.

«وما الذى يسيئه؟ يبدو لى أنه شاب لطيف للغاية».

قالت فى نبرة تشبه الصراخ «قلت لك لا أريد أن أتزوجه، ألا يكفيك هذا السبب؟» ثم أسرعت خارجَ الغرفة. تبعها أوبى فى صمت ثم تحركا بالسيارة، لم يتبادلا أى كلمة طوال الطريق الذى قطعاه إلى بيت الطبيب التالى الذى اقترحه صديق لأوبى.

كان طبيبًا شابًا، ويبدو عليه أسلوب رجال الأعمال. قال لهما إنه لا يستسيغ للأمر الذى طلباه منه «هذا ليس بممارسة الطب، لم أمضِ سبع سنوات فى الدراسة فى إنجلترا لكى أدرس هذا. لكنى سوف أقوم به؛ إرضاءً لكمَا إذا كنتما على استعداد لدفع الأتعاب، وهى ثلاثون جنيهًا، ويجب أن تُدفع قبل أن أقوم بأى إجراء، وأنا لا أقبل التعامل بالشيكات، فقط مال، ما رأيكما؟».

سأله أوبى إذا ما لم يكن ممكنًا أن يخفض المبلغ لأقل من ذلك.

«أنا آسف. أسعارى محددة. إنها عملية صغرى للغاية، ولكنها جريمة أنت تعلم أننا جميعًا مجرمون، ما أفعله الآن هو أننى أقوم بمجازفة كبرى، اذهبَا وفكرا مليًّا فيما قلته، وارجعا الساعة الثانية فى الغد ومعكما النقود».

فرَك يديه بطريقة أعطت أوبى إحساسًا غير مريح ينبئ بالشؤم، قال الطبيب موجهًا كلامه لكلارا «إذا حضرت فى الغد فلا يجب أن تتناولى أى طعام».

بينما كانا على وشك مغادرة العيادة، قال الطبيب لأوبى «لماذا لا تتزوجها؟» إلا أنه لم يتلقّ أى رد على سؤاله.

الفصل السادس عشر

كانت المشكلة الملحّة التى تواجه أوبى هى كيفية جمع مبلغ الثلاثين جنيهًا قبل حلول الساعة الثانية من ظهيرة اليوم التالى، بالإضافة إلى مبلغ الخمسين جنيهًا التى كان يتعين عليه أن يردها لكلارا، ولكن كان يستطيع إرجاء هذا المبلغ. كان أبسط الحلول هو أن يذهب إلى مُرابٍ يقرض النقود مقابل نسبة فائدة عالية للغاية، فعلى سبيل المثال: فإنه عندما يقترض منه مبلغ ثلاثين جنيهًا فإنه يتعين عليه أن يكتب إيصالاً بستين جنيهًا. ولكنه لن يفعل ذلك، فلقد كان من الأفضل له أن يقتل نفسه قبل أن يقترض من هذا المرابى.

كان قد قام بالفعل بإحصاء المبلغ المتبقى الذى أحضره معه عندما عاد للمنزل. ذهب إلى الصندوق الذى يحتفظ بداخله بالنقود وتأكد مرة أخرى. كان المبلغ اثنى عشر جنيهًا، بالإضافة لبعض العملات المعدنية الصغيرة التى كان يحملها فى جيبه. كان قد أعطى خمسة جنيهات فقط لأمه، ولم يُعط أى نقود لأبيه؛ لأنه كان قد اتخذ قرارًا أنه حيث إن الأمور تجرى بهذا الشكل، فإنه كان يتعين أن يحصل على مبلغ الخمسين جنيهًا لدفعها لكلارا فى القريب العاجل.

لم يكن بالأمر المجدى أن يطلب المبلغ من كريستوفر، لأن راتبه لم يكن يكفيه أو يغطى نفقاته قط لأكثر من اليوم العاشر من كل شهر. كان الأمر الوحيد الذى أنقذه من الموت جوعًا هو النظام العبقرى الذى ابتكره بالاتفاق مع الطاهى الخاص به، وبموجب هذا النظام كان كريستوفر يعطى للطاهى كل «فضلات النقود» قائلاً له «حتى أتسلم راتبى الشهر القادم. حياتى أمانة بين يديك».

فى إحدى المرات سأله أوبى «ما الموقف إذا ما تخلف الشخص أو تعذر عليه دفع المال فى منتصف الشهر؟». رد عليه كريستوفر أنه لا يخطر بباله أن يقوم بذلك، فقد كان أمرًا

غير مألوف بالمرة أن يثق «السيد» هذه الثقة العمياء بـ«خادمة»، حتى فى مثل هذه الأحوال، مثل حالته تلك عندما يبلغ عمر «الخادم» ضعف عمر السيد ويعامله كابن له.

بلغ بأوبى الشطط واليأس حتى إنه فكر فى رئيس اتحاد أموفيا التقدمى، ولكنه كان من الأفضل له أن يلجأ لمرابٍ على هذا الحل. وفضلاً عن فكرة أن الرئيس سوف يود أن يستعلم لماذا يريد شاب فى مركز مرموق أن يستدين من رب عائلة مبلغًا من المال يبلغ راتبه أقل قليلاً من نصف راتب أوبى؟

كان الأمر سيبدو أن أوبى قد قبل مبدأ أن أهل بلدته سوف يفرضون عليه مَن التى يتعين ألا يتزوجها. صاح بصوتٍ عالٍ «أنا لم أنحدر لهذا الدرك الأسفل حتى الآن».

فى نهاية الأمر، خطر له خاطر ممتاز. ربما لم يكن هذا بالخاطر الممتاز عندما تتمعن فيه كثيرًا، ولكنه كان أفضل بكثير من كل الأفكار الأخرى. لسوف يطلب من سعادة سام أوكلى. سوف يصرح له بصدق مطلق ما هو السبب الحقيقى لاستدانته النقود، وأنه سوف يرد المبلغ خلال ثلاثة أشهر. أو ربما لم يكن يتعين عليه أن يصرح له ما سبب احتياجه للنقود. لم يكن هذا بالأمر الأخلاقى، فلم يكن من الإنصاف فى حق كلارا أن يعرف أى شخص، إلا إذا كان هذا الأمر ضروريًا للغاية.

كان قد أبلغ كريستوفر فقط؛ لأنه كان يعتقد أنه يعرف مَن مِن الأطباء يمكنه اللجوء إليه. بمجرد عودته لشقته هذا المساء خطر بباله أنه لم يؤكد على كريستوفر ضرورة كتمان الأمر، وتوخى السرية التامة، فأسرع لتوه إلى التليفون. كان هناك تليفون واحد فقط لاستخدام عمارة مكونة من ست شقق، ولكن التليفون كان ملاصقًا للباب الخاص به.

«أهلاً يا كريس. نعم، لقد نسيت أن أذكر ذلك. عندما تصلك العناوين من هذا الشخص لا تذكر له مَن سوف يستخدمها... ليس من أجلى، ولكن... أنت تفهم بالطبع».

قال له كريستوفر بلغة الإيبو «لحسن الحظ، إنه لا يمكن أن نحجب أو نغطى الجمل بوضع اليد عليه».

رد عليه أوبى ألا يتصرف مثل المتهور الغبى قائلاً «نعم. باكرا صباحًا. ليس فى المكتبة، بل هنا. أنا لن أبدأ فى العمل إلا الأسبوع القادم. الأربعاء. نعم، نعم. شكرًا جزيلاً. مع السلامة».

بعد أن قام الطبيب بإحصاء النقود الورقية بغاية الحرص، قام بطيّهم ووضعهم فى جيبه، ثم قال لأوبى «ارجع الساعة الخامسة» وبدا كأنه يطرده. ولكن عندما وصل أوبى لسيارته لم يستطع أن يمضى بها. تقاطرت عليه كل أنواع الأفكار المرعبة وغزت باله، لم يكن يعتقد فى التشاؤم وكل ذلك الهراء، ولكن بطريقة أو بأخرى شعر أنه لن يرى كلارا مرة أخرى.

وبينما كان جالسًا فى مقعد القيادة وقد سيطر على أفكاره نوع من الشلل، ظهر الطبيب وكلارا ثم دلفَا إلى سيارة كانت متوقفة على جانب الطريق، لا بد أن الطبيب قد قال شيئًا خاصًا بأوبى؛ لأن كلارا نظرت ناحيته مرة أخرى، ثم اتجهت بنظرتها مباشرة إلى اتجاه آخر.

ودّ أوبى لو أنه أسرع خارجًا من السيارة وصرخ قائلاً «قفى! هيا نتزوج الآن وفورًا» ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك.

لم يستمر الوضع أكثر من دقيقة، أو على الأكثر دقيقتين، كان أوبى قد عقد العزم، فأدار السيارة فى الاتجاه المعاكس ليطارد سيارة الطبيب ويوقفها. ولكنهم لم يعودا فى مجال الرؤية، حاول بأن دخل أول منعطف فى الطريق ثم الآخر، أسرع عابرًا طريقًا عموميًا، مما كان من الممكن أن يتسبب فى اصطدام حافلة ضخمة حمراء، لولا أنه تحاشاها بأعجوبة، رجع للخلف ثم للأمام، ثم اتجه يمينًا ثم يسارًا مثله مثل ذبابة مذعورة وقعت فى فخ. انهال راكبو الدراجات والمشاة يمطرونه باللعنات. وفى إحدى المراحل قامت كل لاجوس عن بكرة أبيهم صائحين فى اعتراض عالى اللهجة: «طريق اتجاه واحد. اتجاه واحد!!» توقف، ثم دخل فى شارع جانبى، ثم اتجه إلى الاتجاه المعاكس.

بعد زُهاء نصف ساعة من هذا التدريب المجنون دون جدوى أوقف أوبى سيارته على أحد جوانب الطريق. تحسس جيبه الأيمن بيده، ثم فى جيبه الأيسر باحثًا عن منديل، عندما

لم يجده مسح عينيه بظَهر يده، ثم وضع ذراعيه على عجلة القيادة ووضع رأسه فوقهما. ورويدًا رويدًا أصبحت ذراعاه ووجهه غارقين فى العرق، فتساقط العرق منهم. كان ذلك أسوأ وقت فى النهارَ وأسوأ وقت فى السنة. آخر شهرين قبل موسم هطول المطر. كان كل ما يحيط بالمكان يبدو ميتًا وثقيلاً وخانقًا بالحرارة، ويلقى بنفسه على الأرض كأنه حُلة من حديد. وكان الحال بداخل سيارة أوبى أسوأ بكثير، لم يلاحظ أنه لم يكن قد ترك الزجاج مفتوحًا بعض الشىء، مما أدى لتخزين الحرارة داخل السيارة، ولكنه حتى لو كان قد لاحظ ذلك لم يكن ليفعل أى شىء بشأنه.

عندما حلّت الساعة الخامسة ذهب إلى العيادة. قالت له الممرضة فى العيادة «إن الطبيب بالخارج». سألها إذا ما كانت تعرف أين ذهب الطبيب، إلا أن الفتاة أجابته باقتضاب «لا».

«هناك شىء مهم للغاية يجب أن أخبره به. ألا يمكنك أن تبحثى عنه من أجلى... أو...».

ردت عليه قائلة «أنا لا أعرف أين ذهب». كانت نبرات صوتها «الناعمة» مثل «الرقة المنبعثة» من شطر فأس لخشب جامد.

انتظر أوبى لساعة ونصف قبل أن يرجع الطبيب بدون كلارا. انهمر العرق الغزير ليغطى كل أجزاء جسمه.

صاح الطبيب «أوه! هل أنت هنا؟ تعال باكرًا صباحًا».

«أين هى؟».

«لا تقلق ولا تشغل بالك، وسوف تكون فى أحسن حال. ولكنى أريد أن تكون تحت ملاحظتى الليلة؛ تخوفًا من أى مشاكل طارئة».

«ألا يمكننى أن أراها؟».

«كلا. باكرا صباحًا، هذا إذا كانت تريد أن تراك، فالنساء كما تعرف مخلوقات غريبة الشأن».

عندما رجع للمنزل قال لخادمه سباستيان ألا يطهو العشاء.

«سيدى مش كويس؟».

«لا».

«آسف يا سيدى».

«شكرًا، والآن اذهب. سوف أكون فى حال أحسن فى الصباح».

كان يريد أن يقرأ كتابًا فاتجه إلى الرفوف الموضوعة عليها الكُتبُ. ثبت التشاؤم الكامن فى كتابات هاوسمان مرة أخرى أنه يُستعصى على المقاومة. أنزل الكتاب من الرف واتجه إلى غرفة نومه. انفتح الكتاب على الموضع نفسه الذى وضعت فيه الورقة التى كتبت عليها قصيدة « نيچيريا» فى لندن منذ نحو السنتين:

ربنا بارك لنا بلادنا النبيلة

البلاد العظيمة التى تكسوها الشمس الساطعة

حيث يختار الرجال الشجعان طريق السلام

لينالوا الحرية ويكافحوا على الدوام

أدعو الله أن نحافظ على طهارتنا

وحبنا للحياة ومرحنا وحبورنا

ربنا بارك لنا أبناء وطننا النبلاء

بارك لنا فى نسائنا فى كل الأنحاء

أرشدهم أن يعملوا فى وحدة

لبناء وطننا بعزة

متجاوزين المناطق، واللغات والقبائل

ولكن ملتفين حول بعضنا البعض

لندن، يوليو ١٩٥٥

أمسك بالورقة، وبهدوء ضغط عليها بشدة فى قبضة يده اليسرى حتى أصبحت مثل الكرة الصغيرة، وألقاها على الأرض، وبدأ فى تصفح صفحات الكتاب من الأمام إلى الخلف وبالعكس. فى نهاية الأمر، لم يقم بقراءة أى قصيدة، ولكنه وضع الكتاب على المائدة الصغيرة بجوار سريره.

وعندما ذهب فى الصباح وجد الطبيب يفحص مرضى آخرين، كانوا يجلسون على أريكتين طويلتين فى الممر، وكان واحد تلو الآخر يدخل خلف ستارة الباب الأخضر الخاص بغرفة الكشف. أخبر أوبى الممرضة فى العيادة أنه لم يكن مريضًا، وأنه كان على موعد طارئ مع الطبيب. لم تكن هى الفتاة نفسها القائمة على العيادة التى قابلها فى اليوم السابق.

سألته «إيه هو الميعاد مع دكتور وأنت مش عيان؟» ضحك بعض المرضى المنتظرين، وحيوها على ذكائها.

«ليه ناس مش عيانين يشوفوا دكتور؟».

أعادت الفتاة تلك الأفكار لصالح هؤلاء الذين غمضت عليهم التلميحات فيما ذكرته سابقًا.

ذرع أوبى الردهة جيئةً وذهابًا حتى دق جرس الطبيب مرة أخرى. حاولت الممرضة فى العيادة أن تقف فى طريقه، إلا أنه أزاحها جانبًا ودخل غرفة الكشف. أسرعت خلفه معترضةً على ما فعله، وأنه قد تجاوز دوره فى الطابور، ولكن لم يُعرها الطبيب أى انتباه.

قال الطبيب بعد فترة تردد دامت لمدة ثانية أو اثنتين كما لو أنه يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الوجه من قبل «نعم، نعم. إنها موجودة فى مستشفى خاص. أنت تذكر أن بعض النساء يعانين من مشاكل، ولكن لا يوجد أى أمر يدعو للقلق. هناك صديق لى يرعاها فى المستشفى الخاص به». ثم أعطاه اسم المستشفى.

عندما خرج أوبى، كان أحد المرضى ينتظره لكي يقول له كلمة.

«انت فاكر علشان أخذت عربية من حكومة تقدر تعمل اللى عايزه؟ انت شايف كلنا ننتظر هنا. وانت تدخل. انت فاكر إننا جايين نلعب هنا؟».

إلا أن أوبى مشى فى طريقه دون أن ينبس بحرف واحد.

«يا مغفل! فاكر إنه علشان عنده عربية يعمل ما بدا له. يا حيوان ما نعرفش له أصل!».

فى المستشفى قالت له الممرضة «إن كلارا كانت مريضة للغاية، وإنه غير مسموح لها بالزيارة».

الفصل السابع عشر

سأل مستر جرين أوبى بمجرد أن رآه «هل استمتعتَ بإجازتك؟» كان سؤالاً مباغتًا وغيرَ متوقع، حتى إن أوبى أصابته الحيرة، مما جعله غيرَ قادر على الرد، ولكنه فى نهاية الأمر، قال إنَه فعلاً استمتع بإجازته، وشكره على السؤال.

«أنا عادة ما أندهش كيف يتأتَى لكم أيها الناس أن تكون لكم وقاحة أن تطلبوا إجازة داخل البلاد. الفكرة من الإجازة داخل البلاد هى إعطاء الأوروبيين فترة راحة لكى ينطلقوا للذهاب إلى مناطق بها جو ألطف مثل جوس أوبوا. ولكن تبدو هذه الفكرة فكرة عتيقة للغاية. إلا أنه بالنسبة لأفريقى مثلك يتمتع بمزايا كثيرة على ما يبدو، فإن طلب إجازة أسبوعين للاستمتاع فقط، أمر يدفعنى دفعًا للبكاء».

قال له أوبى إنه لن يُصاب بأى قلق إذا ما تم إلغاء الإجازات المحلية، ولكن هذا الأمر كان متروكًا للحكومة للبتّ فيه.

«ناس مثلك هم الذين يجب عليهم أن يجعلوا الحكومة تقرر. هذا ما كنت دائمًا أردده. لا يوجد أى نيچيرى لديه استعداد أو رغبة أن يتنازل عن إحدى المزايا الصغيرة فى سبيل بلاده، بدءًا من وزرائكم حتى أصغر موظف حكومى، ثم بعد ذلك تدعون بقولكم «إنكم تريدون أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم!»».

تسببت مكالمة هاتفية لمستر جرين فى توقف الكلام، ذهب مستر جرين لغرفته للرد عليها.

قالت مارى بعد فترة صمت كافيْة «هناك قدر كبير من الحقيقة فيما قاله».

«أنا واثق من ذلك».

«أنا لا أعنيك، أو أى شىء من هذا القبيل، ولكن بصراحة تامة فإن هناك الكثير من الإجازات هنا. على فكرة، أنا لا مانع لدىّ بالمرة، ولكن فى إنجلترا لم أحصل قط على أكثر من إجازة أسبوعين سنويًا. ولكن كم تبلغ مدة الإجازات هنا؟ أربعة أشهر؟» وعند هذه الكلمة رجع مستر جرين.

قال أوبى «إنها ليست جريمة النيچيريين. فأنتم الذين اخترعتم هذه الأحوال الناعمة لأنفسكم عندما كان كل أوروبى يشغل المناصب العليا بصورة آلية، بينما يشغل كل أفريقى وبصورة أوتوماتيكية أيضًا المناصب الصغرى أو الدُّنيا، والآن عندما سُمح لعدد قليل منا بتبوأ المناصب العليا فإنكم تنظرون تجاهنا وتلقون باللوم علينا»،اتجه مستر جرين إلى غرفة مستر أومو، التى تقع بجانبه مباشرة.

قالت مارى «أظن ذلك، ولكن آن الأوان أن يوقِف شخص ما كلّ الإجازات الإسلامية».

«بالطبع، أنت تعرفين أن نيچيريا بلد مسلم».

«كلا، ليست كذلك. أنت تعنى الشمال».

ظلا يتجادلان لمدة بسيطة بعد ذلك عندما حوّلت مارى مجرى النقاش إلى اتجاه آخر.

«أوبى، أنت تبدو منهكًا ومحطمًا للغاية».

«أشعر بأننى لست على ما يرام لفترة».

«أوه! أنا فعلاً آسفة.. مم تشكو؟ هل تشكو من الحمى؟».

«نعم، عندى إحساس بسيط أنها ملاريا».

«لماذا لم تتعاطَ دواء بولدرين؟».

«فى بعض الأحيان أنسى».

«هذا هراء! يجب أن تخجل من نفسك. وما رأى خطيبتك فى هذا الشأن؟ إنها تعمل ممرضةً، أليس كذلك؟».

أومأ أوبى موافقًا.

«إذا كنت مكانك لكنت استشرت طبيبًا يبدو عليك أنك مريض حقًا».

بعد هذا بساعات عدة من الصباح نفسه، ذهب أوبى للقاء مستر أومو للتفاوض معه بشأن قرض بضمان الراتب. كان مستر أومو الجهةَ المنوطَ بها القرارات العامة والإجراءات المالية، ومفترض فيه أن يرشدَه إذا ما كان هذا الأمر ممكنًا، وماالشروطُ التى تحكمه؟

كان قد اتخذ قرارًا حاسمًا بشأن مبلغ الخمسين جنيهًا الخاص بكلارا. يجب عليه أن يتحصّل عليه فى الشهرين القادمين، ثم يدفعه فى الحساب الخاص به بالبنك. قد يستطيعان أن يتغلبا على الأزمة الراهنة وقد لا يستطيعان ذلك. ولكن على كل الأحوال يجب عليه أن يعيد المال لها.

نجح أخيرًا أن يراها فى المستشفى، ولكن بمجرد أن رأته استدارت فى سريرها وواجهت الحائط. كان هناك مرضى آخرون فى العنبر شاهد معظمُهم ما قد حدث. لم يشعر أوبى طوال حياته بمثل هذا الحرج، فغادر المكان على التو.

قال مستر أومو «إنه بالإمكان إعطاءُ موظفٍ قرضًا بضمان راتبه بشروط معينة». كان يبدو من الطريقة التى نطق بها هذه العبارة أن هذه «الشروط المعينة» كانت متعلقة بمزاجه الشخصى.

قال (وهو يطرح الأمر بطريقة استباقية) «وعلى فكرة، عليك أن تقدم بيانًا بالمصروفات الخاصة بالخمسة والعشرين جنيهًا، ثم تعيد الباقى للخزانة».

لم يدرك أوبى أن المنحة لم تكن هَدية مجانية بلا مقابل لكى يصرفها المرء كما يشاء، أدرك الآن أمرًا تسبب فى إصابته بالهلع، أنه كان مسموحًا له أن يطالب بمبلغ معين لكل ميل يقطعه فى رحلة العودة. أطلق مستر أومو عليها مطالبه «على أساس واقعى».

عاد أوبى إلى مكتبه ليقوم ببعض الحسابات مستعينًا بجدول الأميال. اكتشف أن رحلة العودة من لاجوس إلى أموفيا تبلغ فقط خمسة عشر جنيهًا، خطر خاطر بباله «هذا أمر سيئ للغاية، كان من الأجدر بمستر أومو أن يسدى له النصح ويحذره عندما أعطاه مبلغ الخمسة والعشرين جنيهًا، على أى حال كان السيف قد سبق العزل. بشأن هذا الأمر لم يكن من الممكن الآن له أن يعيد العشرة جنيهات. كان يجب عليه أن يدعى كذبًا أنه أمضى إجازته فى الكاميرون. يا للأسف، إنه لم يفعل ذلك حقًّا.

كانت النتيجة الكبرى التى تمخَّضت عنها أزمة أوبى الحياتية أنها جعلته يتفحّص الأمورَ بنظرة ناقدة، ولأول مرة فى حياته يُمعن فى أصل كل أفعاله، وبسبب قيامه بذلك كشف النقاب عن كمّ كبير مما اعتبره بحقٍّ زيفًا محضًا، فعلى سبيل المثال، فإن إعطاء عشرين جنيهًا كل شهر للاتحاد المحلى، هو فى واقع الأمر المتسبب الرئيسى لكل مشاكله، لماذا لم يُزِح كرامته جانبًا ويَقبل مدة الإعفاء لمدة أربعة أشهر الذى تم السماح بها له، وإن كانت فترة سماح بشروط مجحفة؟ هل يمكن لأى شخص فى وضْعه هذا أن تكون له رفاهية هذا النوع من الكرامة؟ ألم يكن هناك مَثل مأثور يردده أهل بلدته أنه غير مفترض، ولا يحل لأى شخص بدافع من الكرامة أو مراعاة الأصول أن يبتلع البَلغم الصادر منه؟

وبعد أن تبين لأوبى الوضع على حقيقته الجلية الناصعة، قرر أوبى أن يتوقف عن دفع المبلغ من الآن فصاعدًا حتى تتاح له فرصة الدفع دون أن يتجشّم أى عناء. كان السؤال الذى يتردد فى ذهنه: هل يتعين عليه أن يذهب إلى الاتحاد فى بلدته ويخبرهم؟ قرر أيضًا ألا يفعل ذلك، لن يعطيهم فرصة أخرى أن يتدخلوا أو يزجّوا بأنوفهم فى أموره. سوف يتوقف عن دفع المبلغ، وإذا ما عنّ لهم أن يسألوه عن السبب، فسوف يجيبهم أنه عليه التزامات عائلية يجب أن يقوم بها أولاً، كان الجميع يعلم معنى الالتزامات العائلية، وسوف يتعاطفون معه. وإذا لم يتعاطفوا؛ فإن الأمر سوف يكون سيئًا حقًّا. لم يكن ليقاضوا أحد أقاربهم، على الأقل ليس لهذا السبب.

وبينما كانت هذه الخواطر تدور فى ذهنه، فُتح الباب ودخل رسول. وبطريقة شبه آلية هبّ أوبى واقفًا لكى يستلم مظروفًا، قلّبه بين يديه ثم أخذ ينظر إليه من كل النواحى فلاحظ

أنه لم يتم فتحه بعد. وضع المظروف فى جيب قميصه وغاص فى مقعده. كان الرسول قد اختفى بمجرد تسليمه المظروف.

كان قد اتخذ قراره أن يكتب لكلارا الليلة الماضية عندما كان يفكر مليًّا مرة أخرى فى أحداث المستشفى، كاد أوبى أن يصل إلى الخلاصة أن ثورة غضبه لم يكن لها أى مبرر. أو على أى حال، فإن كلارا كانت لديها كل المبررات القوية التى تغضب من أجلها. كانت بلا شك تفكر أنه بسبب ما اقترفه هو ما زالت تحيا. لم تكن تدرى بالطبع عدد الأيام التى أمضاها فى قلق وحيرة، والليالى التى لم يغمض له فيها جَفن، وحتى على فرض أنها كانت تعرف، فهل ستكون متأثرة بذلك؟ وما العزاء الذى يأخذه شخص ميت من معرفة أن قاتله أصبح الآن ملفوفًا فى كفن وتحوّل جسده إلى رماد؟

أوبى الذى أصبح من المعتاد الآن أن يمضى كل وقته نائمًا أو مستلقيًا، غادر السرير واتجه إلى مكتبه، لم تكن كتابة الرسائل بالأمر السهل بالنسبة له. كان يفكر مليًّا فى كل جملة قبل أن يقوم بكتابتها على الورق. فى بعض الأحيان كان يستغرق نحو عشر دقائق فى التفكير فى الجملة الافتتاحية. كان يريد أن يقول «سامحينى لما حدث. كان الأمر كله بسبب خطأ فعلته أنا..» إلا أنه اعترض، فقد كان إيلام الذات نوعًا من أنواع الخداع الرخيص. فى نهاية الأمر كتب:

«أنا متفهم لشعورك أنك غير راغبة فى أن ترى وجهى أبدًا. لقد تسببت فى إيلامك أشدَّ الألم. ولكنى لا أستطيع أن أتخيل أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد. إذا منحتينى فرصة أخرى، فلن أخذلك أبدًا بعد ذلك».

قرأ الرسالة مرارًا وتكرارًا، ثم أعاد كتابة الرسالة مرة أخرى بأن قام بتغيير «لا أستطيع أن أتخيل» إلى «لا يمكن أن أحمل نفسى على التخيل».

غادر منزله مبكرًا جدًّا فى صباح اليوم التالى حتى يتمكن من ترك الخطاب قبل أن يستلم عمله فى الثامنة صباحًا. لم يجرؤ على الذهاب للعنبر، وقف خارجَ العنبر فى انتظار أن تظهر أى ممرضة. كان طابور طويل من المرضى قد اصطفوا بالفعل فى طابور أمام غرفة الكشف، وكان الجو مشبعًا برائحة وعقاقير غريبة. ربما لم يكن المستشفى فى حقيقة

الأمر قذرا على الرغم من أنه كان يبدو كذلك، على اليمين قليلاً كانت هناك امرأة حامل تُفرغ ما فى جوفها فى بلاعة مفتوحة. لم يكن أوبى يريد أن يشاهد مشهد الاستفراغ، إلا أن عينيه ظلتَا تحومان من تلقاء نفسهما.

مر بجانب أوبى اثنان يعملانِ فى العنبر، وسمع أحدَهما يقول للآخر:

«مستنى الممرضة العيانة إياها؟».

«بالنسبة لى مفيش فكرة» رد الآخر وبدا كما لو أنه قد تم شحنه بشحنة من التآمر «الصنف ده يوم كويس، اليوم اللى بعده عيان. بيمر علىّ كتير».

«بيقولوا مش بيعبروهم لما يدقوا الجرس».

الفصل الثامن عشر

كانت مُجمل المدة التى أمضتها كلارا فى المستشفى خمسة أسابيع. بمجرد أن أُذِن لها بمغادرة المستشفى مُنحت إجازةً سبعين يومًا، ومن ثم غادرت لاجوس. سمع أوبى هذا الخبرَ من كريستوفر الذى علِم به عن طريق صديقته التى كانت تعمل ممرضةً بالمستشفى العام.

بعد تجربة فاشلة أخرى قام بإسداء النصح لأوبى ألا يحاول أن يرى كلارا مرة أخرى فى حالتها النفسية تلك. قال له كريستوفر «سوف ترجع لطبيعتها مرة أخرى، فقط امنحها وقتًا كافيًا». ثم ذكر له بعض الكلمات بلغة الإيبو عن كلمات التشجيع التى قالتها حشرة الفراش لأبنائها عندما سُكب ماء ساخن عليهم جميعًا. قالت لهم ألا ييأسوا؛ لأن كل ما هو ساخن الآن لا بد وأن يتحول إلى بارد.

باءت محاولات أوبى بإيداع مبلغ الخمسين جنيهًا فى حسابها بالبنك بالفشل الذريع، وذلك لأسباب عدة. فى أحد الأيام، تلقى ورقة تفيد ضرورة استلامه طردًا مُسجّلاً. تساءل مَن عساه يكون قد أرسل إليه هذا الطرد المسجل؟ اتضح أن مأمور ضريبة الدخل هو الذى قام بذلك.

نصحته مارى أن يقوم فى المستقبل بترتيب دفع الضرائب فى أقساط شهرية فى البنك الخاص به، قائلة له «بهذه الطريقة لن تشعر به».

كانت هذه بالطبع نصيحة مفيدة للغاية صالحة للعام الضرائبى المقبل. أما بالنسبة للوقت الحاضر، فقد كان يتعين عليه أن يحصل على مبلغ اثنين وثلاثين جنيهًا على وجه السرعة.

ولكى يزداد الأمر سوءًا حدثت وفاة أمه، فقام بإرسال كل ما أمكنه الحصول عليه من أجل مصاريف الجنازة، إلا أنه قيل له شيء تسبّب فى إحساسه بشعور بالخزى لا يُمحى، وهو أن امرأة قد أنجبت كل هؤلاء الأولاد، وأحدهم كان يتولى منصبًا أوروبيًا، كانت تستحق جنازة أفضلَ مما حصلت عليه. كان هناك أحد الرجال من أموفيا يقوم بإجازة عندما ماتت، وجاء بالخبر إلى لاجوس عند انعقاد اجتماع مؤتمر أموفيا التقدمى.

قال لأوبى «كان أمرًا مخجلاً للغاية» كان هناك شخص آخر يود معرفة لماذا لم يأخذ هذا الحيوان (ويعنى به أوبى) إذنًا بالعودة إلى بلدته. «هذا ما تفعله لاجوس لشاب يافع. إنه يجرى وراءَ ملذاته، ويرقص مع النساء وهو ملتصق بهنّ وينسَى بلدته وأهله. أتدرى ما العقار الذى من الممكن أن تكون هذه المرأة من الأوسو قد وضعته لك فى الشوربة لكى تُبعد بصرك وسمعك عن أهلك؟».

تساءل شخص آخر «هل تراه أبدًا فى اجتماعاتنا هذه الأيام؟ لقد وجد لنفسه صحبةً أفضلَ منّا».

عند هذا الحد صاح أحد كبار السن فى الاجتماع بأعلى صوته، فقد كان شخصًا فخيمًا.

«لقد أصبتم فى كل ما ذكرتموه، ولكن هناك شىء أريدكم أن تكونوا على علم به، فكل ما يحدث فى هذا العالم لا بد وأن يكون له معنى ومغزى، وكما يقول المثل الذى يردده شعبُنا «عندما نجد شيئًا موجودًا وواقفًا فلا بد أن يقف شىء آخر بجانبه». ولا بد أن تعرفوا أن هذا الشىء هو ما يُطلق عليه «الدم». لا يوجد شىء آخر يماثله. فلذلك فإنك عندما تقوم بغرس شجرة yam فإنها تنتج شجرة أخرى yam، وإذا ما غرست شجرةَ برتقالٍ فإنها سوف تُثمر البرتقالَ. لقد شهدت حياتى أحداثًا كثيرة، ولكننى لم أرَ شجرة موزٍ تُثمر ثمار جوز الهند. لماذا أذكر ذلك؟ يا أيها الشباب اليافعُ، أريدكم أن تنصتوا لكلامى، فإن باستماعكم إلى الشيوخ فسوف تحصلون على الحكمة. أنا أعلم أنه عندما أرجع إلى أموفيا؛ فإننى لا أستطيع أن أدّعى أننى شيخ طاعنٌ. ولكننى فى لاجوس تلك فإننى أصبح شيخًا بالنسبة لكم». توقف برهة لكى يرى وقْعَ كلامه على مستمعيه «هذا الفتى الذى نتحدث عنه،

ما الذى فعله؟ قيل له إن أمه قد توفيت ولكنه لم يأبَه. هذا أمر غريب ويدعو للدهشة، ولكننى أستطيع أن أخبركم أننى قد شاهدت هذا الأمر من قبلُ، فقد فعلها أبوه من قبله».

أثارت تلك الكلمات بعض الحماس، فقال أحدهم، وهو شيخ طاعن «نعم، هذا صحيح».

كرر الشخص الأول بسرعة فائقة حتى لا تُسرق القصة من على فمه «أقول لكم إن أباه قد فعل الشىء ذاته. أنا لا أقوم بأى استنتاجات ولا أطلب منكم حتى ألا تذكروه خارج محفلنا أو اجتماعنا هذا. عندما أُبلغ والد هذا الفتى– أنتم تعرفونه بلا شك، إيزاك أوكنكو– عندما سمع إيزاك أوكنكو عن وفاة أبيه، أن أولئك الذين يقتلون ذويهم سوف يموتون بنفس الأسلوب والطريقة».

قال الرجل الآخر مرة أخرى «هذا صحيح. كان هذا مثار حديث أموفيا فى تلك الأيام ولسنوات عديدة. كنت صبيًا صغيرًا للغاية فى تلك الأيام، ولكننى سمعت به».

قال الرئيس «أنتم ترون أن شخصًا ما قد يذهب إلى إنجلترا ويصبح محاميًا أو طبيبًا، ولكن هذا الأمر لا يجعله يغيّر دَمَه. إنه مثل الطائر الذى يحلق عاليًا فى السماء منطلقًا من الأرض لكى يهبط على جحر النمل، إلا أنها لا تزال الأرض نفسها».

أصيب أوبى بحالة من العجز والشلل التام من جرّاء وفاة أمه. فبمجرد أن رأى ساعى البريد بزيه المميز الكاكى وخوذته النحاسية متجهًا ناحيةَ مائدته وهو يمسك التلغراف بيده، أدرك الخبر لتوه.

ارتعشت يده بعنف وهو يقوم بالإمضاء على الإيصال، وكانت النتيجة أن إمضاءه لم يكن يُشبه البتةَ إمضاءَه العادى.

نبهه الساعى بقوله «اكتب وقت الإيصال».

«ما الوقت الآن ؟».

«أنت لديك ساعة».

نظر أوبى إلى ساعته، حيث إن الساعى قد نبهه إلى أن لديه ساعة.

كان الكل يتعامل معه بطيبة متناهية. قال له مستر جرين إنه يمكنه أخذ إجازة أسبوع إذا أراد. ولكن أوبى أخذ يومين فقط. اتجه مباشرة إلى بيته وحبس نفسه فى شقته. ما الهدف من الذهاب إلى أموفيا؟ إنها سوف تكون قد وريت التراب عندما يصل إلى هناك. يا له من خاطر مر به– أن يذهب إلى بيته فلا يجدها! عندما اختلى بنفسه فى غرفة نومه انهمر فى البكاء مثل الأطفال.

كان أثر الدموع المنهمرة عليه مدهشًا.

عندما خلد للنوم أخيرًا لم يستيقظ ولو لمرة واحدة طوال الليل. لم يحدث هذا له منذ سنوات عديدة. ففى الشهور الأخيرة الماضية لم يكن يزوره النوم إلا نادرًا.

استيقظ مفزوعًا ليجد أن النهار قد انتصف.

ولدقائق قليلة تساءل عما حدث. ثم جاءت ذكرى الأمس لتهزه بعنف. وتحشرج، واختنق شىء ما فى حَلْقه. نهض من فراشه وأخذ يحملق صوب الضوء الآتى من خلال الشيش. امتلأ قلبه بمزيج من إحساس الخجل والإحساس بالذات. بالأمس ووريت أمُّه التراب وغُطيت بالتراب الأحمرِ، إلا أنه لم يستطع حتى أن يقوم بالسهر عند قبرها ليلةً واحدة فقط.

صاح «شىء فظيع!» اتجهت أفكاره ناحية أبيه. يا للمسكين، فسوف يكون ضائعًا تمامًا بدونها. الشهر الأول أو ما يقارب ذلك فإن الأمر لن يكون بهذا السوء. فكل أخوات أوبى المتزوجات سوف يعدن للبيت. من الممكن الاعتماد على أستر للاعتناء به. ولكن فى نهاية الأمر؛ فإنه من المحتوم أن تعود كل أخواته إلى بيوتهن. عندئذ فسوف يشعر بالصدمة عندما تشرع كل واحدة فى ترك البيت. تساءل أوبى ما إذا كان قد قام بالتصرف السليم عندما لم يتجه إلى أموفيا بالأمس. ولكن ما جدوى الذهاب؟ كان من الأفضل إرسال كل المال اللازم للجنازة بدلاً من إضاعته فى شراء البنزين اللازم لسيارته للعودة لبلدته.

غسل وجهه ورأسه، ثم قام بحلاقة ذقنه بشفرة موس قديمة. ثم كاد أن يحرق فمه باستخدام كريم حلاقة لكى ينظف أسنانه، الذى أخطأه ظنًا منه أنه كريم منظف الأسنان.

بمجرد أن عاد من البنك ذهب للاستلقاء مرة أخرى. لم ينهض من فراشه إلا عندما عاد جوزيف نحو الساعة الثالثة عصرًا. جاء مستقلًا سيارة أجرة. فتح سباستيان الباب له.

قال له «ضَعْ هذه الزجاجات داخل الثلاجة».

خرج أوبى من غرفة نومه ليجد زجاجاتِ بيرة على عَتبة الباب. لا بد وأن عددهم كان يقرب من الدستة. سأل جوزيف «ما هذا؟»، إلا أن جوزيف لم يرد مباشرة، فقد كان يساعد سباستيان ليضعهم بعيدًا أولاً.

قال أخيرًا «هذه الزجاجات تخصنى. سوف أستخدمهم فى شىء ما».

بعد مضى فترة بسيطة بدأت مجموعة من أهالى أموفيا فى التوافد، جاء البعض منهم فى مجموعات مستقلين سياراتِ أجرة، وليس مثل جوزيف الذى جاء منفردًا. كانت كل مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وبذلك تقاسموا أجرة التاكسى فيما بينهم. بينما استقلّ آخرون العَجل. كان العدد الإجمالى خمسة وعشرين شخصًا.

تساءل رئيس اتحاد أموفيا التقدمى ما إذا كان مسموحًا أن يغنى تراتيل بلهجة الأيكويو. كان سؤاله مرده أن أيكويو بمثابة محمية أوروبية. قال أوبى إنه يفضل ألا يقوم أحد بالغناء، ولكنه عبّر عن امتنانه أن الكثير من أهل بلدته قد حضروا، على الرغم من كل الملابسات، لكى يقدموا واجب العزاء له. انتحى جوزيف به جانبًا، وقال له هامسًا إنه قد أحضر البيرة لكى تساعده فى تقديم واجب الضيافة للمعزّين.

قال له أوبى «أشكرك» قالها وهو يجاهد ألا تنزلقَ الدموعُ، التى كانت مثل غِلالة تغطى عينيه.

«أعطِهم تقريبًا ثمانى زجاجات، وأبق على الباقى لهؤلاء الذين سوف يحضرون فى الغد».

عندما حضر الجميع قال كل منهم كلمة عزاء، بينما أجاب بعضهم بكلمة أو بهزة رأس. لم يستمر أحد منهم على أحزانه بدون داعٍ. فقط قالوا له أن يلمّ شَتات نفسه، وسَرعان ما

انخرطوا فى الحديث عن أحوال الحياة العادية. كان خبر اليوم خاصًا بوزير الأراضى الذى كان واحدًا من أكثر السياسيين شعبيةً حتى خطَر له أن ينافس البطل القومى.

قال أحدهم باللغة الإنجليزية «يا له من متهور!».

رد عليه رجل آخر بلغة الإيبو.

«إنه مثل الطائر الصغير الذى نسِىَ قدر نفسه الحقيقى بعد أن تناول وجبة كبيرة حتى ظن أنه بإمكانه أن يصارع طائرًا كبيرًا».

علّق رجل ثالث بقوله «ما رآه وما مر به فى أوبودو سوف يعيد إليه صوابَه، لقد ذهب لكى يلقى خُطبه فى أهله وشعبه، إلا أن كل الناس فى هذا التجمع قاموا بتغطية أنوفهم؛ لأن كلامَه كان أصابه عَفنٌ».

سأله جوزيف «ألم يكن هذا المكان نفسه الذى ضربوه فيه؟».

«لا، كان هذا فى بلدة أيامى. ذهب هناك بحافلات محمّلة بمشجعات ومؤيدات من النساء، ولكنك تعرف أهل أيامى، إنهم لا يضيعون الوقت. قاموا بضربه ضربًا مبرحًا وأمسكوا النساء من أغطية رءوسهن. قالوا إن ضرب النساء أمر غير لائق، فلذلك اكتفوا بأخذ أغطية رءوسهن».

فى أحد الأركان كانت مجموعة صغيرة العدد منهمكة فى حديث مختلف تمامًا. أما فى المناقشة الأكبر، فقد تخللتها فترة صمت تلاها صوت ناثانيال وهو يقصّ قصة على الحاضرين.

«ذهب السلحفاة فى رحلة طويلة إلى عشيرة بعيدة. ولكنه قبل الذهاب أخبر أهله ألا يرسلوا فى طلبه إلا إذا حدث أمر مهمٌ للغاية. عندما رحل، ماتت أمه. كان السؤال هو كيف يتأتّى لهم أن يخبروه بأهمية رجوعه لكى يدفن أمه؟ إذا ما قالوا له إن أمه قد ماتت، لكَان قد رد عليهم أن هذا الأمر ليس بالجديد. ثم قالوا له إن نخلة أبيه قد أثمرت ثمرة فى نهاية الورقة. عندما سمع السلحفاة هذا الخبر، قال إنه يجب أن يعود أدراجه إلى موطنه

لكى يرى هذا العجب العجاب. وهكذا؛ فإن دعوته للهرب من عناء حضور جنازة أمه تمت تغطيتها وتمويهها بذكاء».

عندما انتهى ناثانيال من قصته هذه سادت فترة صمت طويلة تدل على قدر كبير من الحرج. كان من الواضح أنه لم يقصد أن يقص القصة إلا على مجموعة صغيرة حوله. ولكنه وجد نفسه فجأةً يوجّه حديثه لكل الموجودين بالغرفة، ولم يكن بالرجل الذى يتوقف فى منتصف القصة.

ومرة ثانية، وجد أوبى نفسه ينام الليل بطوله ويستيقظ فى الصباح وشعور بالذنبِ يغمُرُه. ولكن هذا الشعور لم يكن بالحِدة التى شعر بها فى اليوم السابق. وسرعان ما اختفى هذا الإحساس تمامًا، مخلفًا شعورًا غريبًا بالسكينة. جال بخاطره أن الموت أمرٌ غريب للغاية. لم يكن قد مضى على وفاة أمه سوى ثلاثة أيام، ومع ذلك شعر أنها بعيدة للغاية عنه. عندما حاول بالأمس أن يتخيّلها ويسترجع صورتها وجد الصورة مشوشةً مهزوزةً عند الحواف.

قال بنبرة حاول فيها أن يستخدم النبرة المناسبة «يا أمى المسكينة!» إلا أن محاولته باءت بالفشل، فقد كان الإحساس الطاغى عليه هو شعور بالسلام والسكينة.

عندما حان وقت تناول وجبة الإفطار كانت شهيته عظيمة بطريقة لافتة للنظر، إلا أنه رفض عمْدًا أن يأكل إلا أقل القليل. إلا أنه بحلول الساعة الحادية عشرة لم يستطع مقاومة بعض النبيذ المزوج بالماء البارد والسكر. بينما كان يتناوله بالمِلعقة فوجئ بأنه كان يُهَمْهِم بلحن راقص.

قال «هذا فظيع!».

عندها تذكر قصة الملك داوود الذى رفض تناول الطعام عندما كان ابنه المفضل لديه يعانى من المرض، إلا أنه اغتسل وتناول الطعام عندما مات. هو أيضًا لا بد أنه شعُر بهذا النوع من السلامِ. هذا السلامُ الذى يستعصى على أى فَهمٍ.

الفصل التاسع عشر

عندما انقضت فترةُ الإحساس بالذنب شعر أوبى كما لو أنه مثلُ معدنٍ مرّ بالنار. أو كما عبر عنها بنفسه فى أحد خواطره فى مذكّراته الخاصة به «أتساءل لماذا أشعر مثل ثعبان قد خرج لتوه من البيضة؟». اختفت صور أمه المسكينة وهى عائدة من النهر والغسيل الذى قامت بغسله، وقد اتسخ مرة أخرى بعد أن قطعت شفرة الموس الصدئة الخاص به باطنَ يدِها. اختفت الصورة، أو ربما احتلت مكانًا ثانويًا. تذكرها الآن بصفتها المرأة التى تقوم بإنجاز الأعمال.

وعلى الرغم من أن أباه كان غير متهاون فى أى نزاعات تحتدم بين الكنيسة والعشيرة، فإنه لم يكن رجلَ أفعال بل رجلَ أقوالٍ. كان أمرًا حقيقيًا أنه فى بعض الأحيان كان يتخذ قرارات عنيفة وفجائية، إلا أن تلك الظروف كانت نادرة. عندما كانت تواجهه مشكلة فى الظروف العادية كان يزن الأمور ويقيسها وينظر إليها من جميع الجوانب، وبذلك فإنه يؤجل القيام بأى فعل. كان يعتمد بصورة كلية على زوجته فى تلك الأحوال. وكان دائمًا ما يقول مازحًا «إن كل شىء بدأ يوم زفافهم» ثم يقص كيف أنها هى التى قامت بقطع تورتة الزفاف أولاً.

عندما أتى المبشّرون بشكل الزواج الخاص بهم؛ فإنهم أيضًا أحضروا معهم تورتة الزفاف. ولكن سَرعان ما تم تطويع هذا التقليد لكى يلائم إحساس الناس بالإثارة. كان يتم إعطاءُ سكينٍ لكل من العروس والعريس، وكان القائم بتنظيم الزفاف يقوم بالعدّ «واحد، اثنين، ثلاثةً، هيا!» وكان الأسبق فى قطع التورتة يعتبر هو أو هى الأجدر بالفوز. فى يوم زفاف إيزاك كانت زوجتُه هى الأسبق فى تقطيع التورتة.

إلا أن القصة التى كانت تروق لأوبى أكثر من ذلك كانت الخاصة بالجدى المقدس. فى السنة الثانية من زواجهما، كان أبوه يعمل قسًّا فى مكان يسمى أنينتا. كان أحد آلهة أنينتا الكبرى اسمه أودو، يمتلك جديًا مخصصًا له. أصبح هذا الجدى مصدرَ ذعر فى مقر الإرسالية. فبالإضافة إلى إقامته هناك وترْكه بعض فضلاته، فإنه دمّر شجر اليام ومحصولَ القمح. اشتكى مستر أوكنكو مرات عديدةً لقسيس الأودو، إلا أن القسيس (ولا شك أنه كان يتمتع بروح الدعابة) قال «إن الجدى الخاص بالأودو حُر فى أن يتنقل حيث يشاء ويفعل ما يشاء. فإذا ما أراد أو عنّ له أن يستلقى أو ينامَ فى مكان صلاة أوكنكو، فإنه بذلك يثبت أن آلهتهما كانا صديقين». وكان من الممكن أن تقف القصة عند هذا الحد إذا لم يدخل الجدى مطبخ مسز أوكنكو فى أحد الأيام ويأكل الطعام الذى كانت تعدُّه. أخذت مسز أوكنكو سكينًا حادةً وهوَت بها على رأس الحيوان فقطعته. كانت هناك تهديدات غاضبة أطلقها كبار القوم. رفضت النسوة فى السوق لفترة من الزمان أن يشترين منها أو يبعن لها، إلا إن دين الرجل الأبيض وسياساته بلغت من القوة والنجاح فى ترويض القبيلة، حتى إن الأمر سرعان ما توارَى فى طيات النسيان. قبل هذه الحادثة بخمس عشرة سنة ذهب رجال أنينتا لشنّ حرب على جيرانهم وأجبروهم على الاستسلام. ثم تدخلت بعد ذلك حكومة الرجل الأبيض، وأصدرت أمرًا بتسليم كل السلاح فى أنينتا. عندما تم جمعهم، أخذ الجنود فى تحطيمهم على مرأى من الجميع. هناك صف دراسى فى أنينتا اليوم يسمى «المجموعة السنيّة لتحطيم الأسلحة». وهذه عبارة تطلق على الأطفال الذين وُلدوا هذا العام.

أثارت تلك الأفكارُ فى نفس أوبى سعادةً من نوع غريب، بدت كما لو أنها أطلقت العِنان لروحه. لم يعد يشعر بالذنب. كان هو أيضًا قد مات. فما بعد الموت لا يوجد أى مثل عليا أو كذب، فقط الحقيقة المجردة. يقول الشخص المثالى وهو يتحرق شوقًا «أعطنى مكانًا لى لأقف فيه، وسوف أحرك وأزحزح الكون». لكن لا وجودَ لهذا المكان. يجب علينا جميعًا أن نقف على الأرض نفسها ونتماشَى معها فى خطواتها. إن أبشعَ مشهدٍ فى العالَم لا يمكن أن يُفقِد المرء القدرةَ على الرؤية. إن موت الأم لا يمكن تشبيهُه بشجرة نخيل محملة بالثمر فى نهايات أوراقها، على الرغم من رغبتنا فى القيام بذلك. ولم يكن هذا هو الوهم الوحيد الذى يراودنا.

ومن جديد يجيء موسم البعثات والمنح. كان هناك الكثير من الأعمال التى لا بد من إنجازها، حتى إن أوبى اضطر لأخذ بعض الملفات كلَّ يوم للانتهاء منها فى البيت. كان قد بدأ فى العمل عندما توقفت سيارة شيفروليه موديل حديث. تمكّن من رؤيتها بوضوح وهو جالس على مكتبه. مَن عساه يكون؟ بدَا كأنه أحدُ رجال الأعمال الناجحين من لاجوس. مَن عساه يريد؟ كان كلُّ سكانِ الشقة الآخرين من الأوروبيين غيرَ ذى أهمية يَشغلون الوظائف الدُّنيا فى الحكومة.

طرَق الرجل باب أوبى بشدة مما جعله يقفز لكى يفتَحُه له. على الأرجح كان الرجل يريد أن يسأله عن الطريق المؤدِّى لمكان آخر. كان كثيرًا ما يُضَل الناسُ غيرُ القاطنين فى إيكوى الطريقَ، خاصة أن كل الشقق كانت شبيهة بعضها البعض.

قال «مساء الخير».

«مساء الخير. هل أنت مستر أوكنكو؟».

رد عليه أوبى بالإيجاب، دخل الرجل وقدّم نفسه. كان يرتدى عَباءة غاليةَ الثمنِ.

«من فضلك اجلِس».

«شكرًا» ثم أخرج فوطة صغيرة الحجم من طيّات ملابسه الفضفاضة ومسح وجهه بها. قال بينما كان يمسح يداه «لا أريد أن أضيع وقتك. ابنى سوف يسافر لإنجلترا فى سبتمبر. أنا أريد أن أحصل له على منحة. إذا استطعتَ أن تفعلها من أجلى، فسأعطيك خمسين جنيهًا». أخرج محفظة نقود من جيب عباءته الأمامى.

أخبره أوبى أن هذا الأمر ضربٌ من المستحيل، قائلاً «فى المقام الأول، فأنا لا أقوم بإعطاء المنح. كل ما أقوم به هو فحص الطلبات وكتابة توصية لهؤلاء المستوفين للشروط التى وضعها مجلس البعثات والمنح».

قال الرجل «وهذا كل ما أبتغيه، ما أريده فقط أن تكتب توصية بقبوله».

«ولكن المجلس قد لا يقع اختياره عليه».

«لا تحمِل همًّا لهذا الأمر. فقط قُمْ بالجزء الخاص المنوطِ بك».

التزم أوبى الصمت. تذكّر اسم الفتى، كان بالفعل اسمُه مدرجًا ضمن المرشحين الأصليين، سأل أوبى الرجل «لماذا لا تقم بسداد المصروفات لابنك؟ أنت لديك مال وفيرٌ. إن المنح والبعثات للناس الفقراء».

ضحك الرجل قائلاً «لا يوجد شخص فى هذا العالم لديه المال الكافى». نهض واقفًا، ثم وضع حافظة النقود على المائدة أمام أوبى، قائلاً «هذا مجرد عربون صغير. أشعر أننا سوف نصبح أصدقاء مقرّبين. لا تنسَ الاسم. سوف نتقابل مرة أخرى بلا شك. هل تذهب إلى النادى؟ لم أرك من قبلُ هناك».

رد أوبى بقوله «أنا لست عضوًا فى النادى».

قال الرجل «لا بد أن تنضم إلى النادى. إلى اللقاء».

ظلت حافظة النقود حيث وضعها الرجل بقية اليوم وطوال الليل. وضع أوبى جريدة فوق الحافظة، وأغلق الباب بحرص شديد. تمتم لنفسه «هذا شىء فظيع!» ثم صاح بصوت عال «فظيع!». استيقظ أوبى مفزوعًا فى جوف الليل، ولم يستطع أن يخلُدَ إلى النوم مرة أخرى إلا بعد انقضاء فترة طويلة.

هَمَس أوبى فى أذنيها بينما كانت تلتصق به، وهى تتنفس بأنفاس سريعة ولاهثة «أنت ترقصين بصورة رائعة». وضع يديها حول عنقه واقترب وجهه منها بحيث أصبحت ملاصقة لها. لم يعودا منتبهين أو يلقيا أدنى اهتمام للإيقاع المحموم الصادر من الموسيقى. قادها أوبى صوبَ غرفة نومه، فدنت منها إشارة تدل على تمنع ومقاومة غير حقيقية، إلا أنها مشت وراءه.

كان من الواضح أنها ليست تلميذةً غرة بريئة. كانت تعرف معرفة جيدة ما هى وظيفتها. كانت على أى حال ضمن قائمة المرشحين الأصليين. ولكن على أى حال، تسبب له هذا فى إحباط شديد. لا جدوى من ادعاء أنه ليس كذلك. يجب على المرء على الأقل أن يكون صادقًا مع نفسه. اصطحبها فى سيارته حتى يابا. فى رحلة عودته ذهب لزيارة كريستوفر

لكى يقصّ عليه ما حدث لكى يتمازحا ويضحكا معا. ولكنه مشى دون أن يقول أى شىء ودون أن يحكى ما حدث. ربما يفعلها فى أى يوم آخر.

توافد آخرون. قال بعض الناس إن الأستاذ فلان كان رجلاً محترمًا. قد يتلقّى أموالاً ولكنه يقوم بما يوكَل إليه، وكان هذا بمثابة إعلان ضخم، مما يجعل آخرون يقتدون به ويفعلون ما فعل. ولكنّ أوبى كان يرفض بإصرار وشدة أن يقابل أى شخص لم يكن يمتلك الحد الأدنى من المتطلبات التعليمية، بالإضافة إلى مهارات أخرى. كان فى هذا الأمر راسخًا لا تهتز له شَعرةٌ.

تمكّن من دفع أقساط السلفة الخاصة بالبنك، وكذلك الدَّيْن الذى عليه دفعُه للسيد سام أوكولى. لقد انتهت أسوأ الفترات، وكان من المفترض أن يشعر أوبى بسعادة أكثر تغمره، إلا أنه لم يشعر بذلك.

فى أحد الأيام أتى أحدهم بمبلغ عشرين جنيهًا. وبمجرد أن خرج الرجل، أدرك أوبى أنه لا يمكنه تحمل هذا أكثر من ذلك. يقول الناس إن المرء يعتاد على مثل هذه الأمور، ولكنه لم يجد الأمر بهذا الشكل قط. كانت كل واقعة تحدث أسوأ مئات المرات عن الحدث السابق له. كانت النقود لا تزال على المائدة. فيفضل ألا ينظر فى اتجاهها، إلا أنه أدرك أنه لم تكن له حيلةٌ فى ذلك. جلس محملقًا فيها، وهو فى حال شللٍ من الأفكار المتلاطمة بداخله.

سمع طرْقًا على الباب. نهَض مفزوعًا، واختطف النقود، وجرى صوب غرفة نومه. عندما سمع الطرق للمرة الثانية كان على عتبة غرفة النوم، مما جعله يتسمّر فى مكانه. ثم رأى لأول مرة القُبّعة التى نسيها زائرُه ملقاةً على الأرض، فتنفس الصُّعداء. دسّ النقو فى جيبه ثم اتجه إلى الباب وفتحه. دخل رجلان، كان أحدُهما الزائرَ الذى قام بزيارته، أما الآخر فكان غير معلوم له بالمرة، وغريبًا عنه تمامًا.

سأله الشخص الغريب «هل أنت مستر أوكنكو؟» رد عليه أوبى بصوت كان من العسير التعرف عليه. مادمت الأرضُ تحت قدميه ودارت الدنيا به. كان الغريب يقول شيئًا ما، إلا أن الكلام كان كأنه يصدر من بعيد، شأنه شأن الكلمات التى يسمعها شخص مُصاب بالحمى. قام الغريب بعد ذلك بتفتيش أوبى، فوجد النقود الموضوع عليها علامات. بدأ فى التحدث

عن أمور أخرى كثيرة، ذاكرا اسم الملكة، مثله مثل وكيل النائب العام وهو مختبئ وهو يتلو بنود قانون الشغب لجمهور محموم من الغوغاء غير المدركين لمغزى كلامه. فى هذه الأثناء استخدم الرجل الآخر التليفون الموجود خارج شقة أوبى، لكى يستدعى سيارة الشرطة.

تساءل الجميع عن سبب تلك الأحداث. وكما رأينا لم يتمكن القاضى الحصيف من فهم أو إدراك السبب الذى يدعو شابًا متعلمًا... إلخ إلخ من صفات ونعوت، حتى الرجل من المجلس الثقافى البريطانى وحتى الناس فى أموفيا، لم يدركوا السبب. ويجب علينا أن نفترض، على الرغم من اليقين، أن حتى مستر جرين لم يدرك ذلك أيضًا.

المؤلف فى سطور:

تشينوا آتشيبى :

وُلد فى نيچيريا، ونشأ فى قرية أوجيدى الكبرى، أحد أوائل مراكز التبشير الإنجيلى فى شرق نيجيريا. وقد درس آتشيبى فى جامعة عبدان وتخرج منها.

عملَ بالإذاعة النيچيرية، إلا أن عمله هناك انقطع بصورة مفاجئة فى ١٩٦٦، عندما ترك منصبه مديرًا للإذاعة الخارجية الموجهة فى نيچيريا، خلال فترة الثورة الوطنية، التى أدت بعد ذلك إلى حرب بيافرا. انضم آتشيبى إلى وزَارة بيافرا للاستعلامات، كما قام بتمثيل بيافرا فى العديد من المهام الدبلوماسية وجمْع الأموالِ. عمل فى وظيفة باحث أول فى جامعة نيچيريا، ومن ثم بدأ فى إلقاء المحاضرات بصورة مكثفة خارج نيچيريا، ولأكثر من خمس عشرة سنة كان يتولى كرسى تشارلز ستيفنسون للغات والآداب فى كلية بارد، ثم تولى بعد ذلك منصبَ أستاذ الدراسات الأفريقية فى جامعة براون.

كتب تشينوا آتشيبى أكثر من عشرين مؤلفًا، ما بين الرواية والقصص القصيرة والمقالات والمجموعات الشعرية، ومن بينها رواياته الشهيرة «الأشياء تتداعى» (١٩٥٨) التى بِيع منها أكثر من عشرة ملايين نسخة فى جميع أنحاء العالم، وتمت ترجمتُها إلى أكثر من خمسين لغة، ومن ضمن أعماله الأخرى «سهام الله» (١٩٦٤)، و«احذر يا توأم الروح وقصائد أخرى» (١٩٧١)، وهى المجموعة الشعرية التى نال عنها جائزة الكومنولث للشعر، وكذلك كتب «جبال النمل فى غابات السافانا» (١٩٨٧) التى رُشحت لجائزة البوكر، وكذلك «آمال ومعوقات» وهى مجموعة مقالات (١٩٨٨) و«الوطن والمنفى» (٢٠٠٠).

نال آتشيبى العديدَ من المناصب الشرفية من أنحاء مختلفةٍ من العالم، مثل الزمالة الشرفية للأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، كما حصل على درجات الدكتوراه الشرفية من أكثر من ثلاثين كليةً وجامعةً، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه حصل على أعلى جائزة نيچيرية للتميّز الفكرىّ، وهى الجائزة النيچيرية الوطنية للتميز. فى عام ٢٠٠٧ حصل على جائزة البوكر مان الدولية فى مجال القصة.

المترجمة فى سطور:

آمال على مظهر

– أستاذ بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

– متخصصة فى المسرح البريطانى والأيرلندى والمصرى.

– من أهم ترجماتها: مسرحية «باب الفتوح» لمحمود دياب من العربية للإنجليزية، مع مقدمة. وكذلك مسرحية «كليوباترا تعشق السلام» لأحمد عتمان من العربية للإنجليزية.

– وترجمت لدى المركز القومى للترجمة كتاب «فى البلاد العتيقة» لـ «آميتاف جوش».

– قامت بترجمة وتحديث قاموس المسرح فى خمسة أجزاء (مع مترجمين آخرين) الصادر عن الهيئة العامة للكتاب.

التصحيح اللغوى : أشرف محمود
الإشـــراف الفنى : حســـن كامل